

Amly

<http://arabiccivilization2.blogspot.com>

کتابی



حامی مراد

أميرة مصر

(غرام فی بدو «قبیز»)

وکتب أخرى



الخالدة الغالية - مريم المجدلية - تغطي جسمها العاري بشعرها الغزير ، من
فرط احساسها بالعار بعد نوبتها 1
لوحة للرسام - ليسان - في متحف (بيتي) بايطاليا

صورة راقصة لتمثال • الملك داود • القائم في اجنسل ميادين (فلورنسا) بإيطاليا
للمثال الخالد • ميكل انجلو •



كتاب

كتاب شهري لتلخيص الكتب العالية
يصدر اول كل شهر
صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد

* مار الكتاب



مصباح الفكر عند الغريق

الكتاب الحادى والثلاثون (السنة الثالثة) : اكتوبر ١٩٥٤
الاشتراكات و مجموعة الاعداد السابقة : اقرأ التفصيلات بالداخل
الادارة : عمارة الجندول - ١٤ شارع ٢٣ يوليو - بالقاهرة
تليفون ٥٩٥٥٦ و ٦٥٦٠٨

« كتابى » يشتري الاعداد الثلاثة الاولى من القراء !

نظرا لالحاح الكثيرين من القراء فى طلب الاعداد الثلاثة الاولى من كتابى ، ولتعدد اعادة طبعها فى الوقت الحاضر ، ولما كان لا يبعد ان يكون لدى البعض اكثر من نسخة من الاعداد المذكورة .. فقد رأت ادارة كتابى ان تعلن عن استعدادها لشراء اى عدد من نسخ الاعداد الثلاثة الاولى ، تهيئاً لتمكين من تنقصه الاعداد المذكورة من اقتنائها بعد ذلك من الادارة . فالرجا الاتصال بالجهة فى هذا الشأن، عل ان يكون تسليم النسخ اليها حضورياً أو بالبريد المسجل .

الاشتراك فى « كتابى »

◆ ترسل جميع الاعداد الى المشتركين : فى مصر والسودان بالبريد المسجل ، وفى الخارج بالطائرة . وقية الاشتراك فى مصر والسودان : عن سنة (١٢ عدداً) : ١٢٠ قرشاً ، وعن نصف سنة (٦ اعداد) ٦٥ قرشاً - فى الخارج (العراق وسوريا ولبنان والحجاز والأردن .. الخ) ترسل القية بشيك أو بحوالة بريدية نقدية عن طريق مكاتب البريد MONEY ORDER وتحسب القيسة بمياً يوازى ١٣٠ قرشاً (عن سنة) و ٧٠ قرشاً (عن نصف سنة)

نزهة القاري

رأيت وسمعت لك ... في أوربا

♦ عند ما فكرت في اقتناص بضعة أسابيع من الصيف المنصرم ، امتح نفسي فيها بسطا من الراحة التي كنت في أشد الحاجة إليها ، كان أول ما عاهدت نفسي عليه أن أقضي تلك الأسابيع بعيدا عن جو عيل المرهق الذي عشت في دوامته طيلة الثلاثين شهرا الماضية .. ومن هنا اخترت أن أقضي عطلاتي المرموقة خارج القطر .. وكان أمل ، وغاية مشتهى - ولا اكتسك - أن انتزع نفسي من (كتابي) ، ومنك ، أنتزاعا كاملا لا تنسويه شائبة من رواسب العمل أو النشاط الذهني في أية صورة من صوره !.. كنت أطمح في « اجازة » حقيقية ، استمتع فيها بأولر قسط من « الضمول » الذهني والنشاط الجسمي ، اللذين طالما حرمتني منهما (كتابي) !

ولكن خاب ظني .. فإن اجازتي المنشودة سرعان ما انقلبت بقدرة قادر الى دوامة من العمل والجهود الذهني التواصل .. ذلك انني لم اكف اذا كل ارضي ذرتها حتى وجدته عاجزا عن انتزاع نفسي منك أو انتزاعك من نفسي ! .. واذا كل همي طوال الرحلة يكاد يخصص في أن اقتنص لك كل كتاب شائق أو صورة جميلة اثر عليها في دور النشر والمكتبات الاوربية النساء مروري عليها .. ثم في أن احتفظ في وعيي ، واسجل في خاطري ومدكراتي ، كل شاردة وواردة مما اري أو اسمع ، كي انقلها كاملة اليك بعد عودتي ، فاشركك معي في كل متعة اتلوقها ، وكل احساس يخالجني ، وكل خاطر يطوف بذهني .. بل وكل حلم يداعب خيالي !

وهكذا وجدته لا أفك أدون لك ، واسجل ، أو اخزن في ذاكرتي ، كل صغيرة وكبيرة من مشاهداتي .. بل اني رحمت أبحث وأدرس ، وأتقب عما وراء المراتب والمظاهر من حقائق ، وخفايا ، ومعلومات ، واحصاءات .. حتى خرجت من رحلتي بدراسة مستفيضة مزودة ببنات الصور عن معالم تلك البلاد ، وشعوبها ، وأحوالها ، وتاريخها .. الخ

ولقد فكرت أثناء ذلك في أن أجمع هذه المادة الطائلة في كتاب واحد مستقل - من مطبوعات كتابي - يضم كل ما رأيت وسمعت في : إيطاليا ، والنمسا ، وسويسرا ، وفرنسا ، واليونان .. لولا اني لم البت أن تبيت أن كل بلد من هذه البلاد جدير في الحقيقة بكتاب كامل ! .. وانني لو جمعتها كلها في كتاب واحد ، وأطلقت فيه للقلم العنان كي يصف كل شيء ، لزادت صفحات كتاب كهذا على الخمسمائة صفحة ، بل الالف ! كما

انى لو انتظرت حتى الفراغ منه كله - الى جانب عمل فى كتابى - مى انشره كاملا على حدة ، لأحوجنى الأمر مى اكتبه ، وأحوجك مى تقرأه - الى انتظار قد يبلغ العام ! .. لذلك كله أثرت ان اكتب هذه الفصول وانشرها تباعا ، على صفحات كتابى ذاته .. ابتداء من العدد القادم بلذن الله

مشكلة الشباب أيضا

♦ وكنت قد حدثك فى المتاعية العدد الماضى عن «مشكلة الشباب» ، وما قبل من الصلة بين موجة « جرائم الطلبة » التى اجتاحت مصر فى الأشهر الأخيرة ، وبين الكبت الاجتماعى والجنسى الذى يعاني منه الشباب الأمريين فى بلاد الشرق ، ولا سيما فى مصر .. وقد طالبتك فى ختام مقال السالف بأن تبدي رأيك فى هذا الموضوع الشائك المقعد .. ووعدتك من جانبى باستطلاع حلول هذه المشكلة فى البلاد الأخرى ، وموافاتك بها .. لكن انشغالى بإنجاز هذا العدد فى موعده - بعد عودتى من الخارج ، فضلا عن حاجتى لتسنع من الوقت للدراسة الردود التى وصلتني فى هذا الشأن من كثيرين .. يضطرننى الى ارجاء استئناف البحث الى الإعداد القادمة ، كما تنسبني الى المقارنة فى كل مناسبة - وفى موضعها - بين شبابتنا وشباب البلاد الأخرى ، وكيف يعالج المجتمع ، والدولة ، والأسرة - فى كل بلد - مشكلات الجيل الناشء من شبابه ، الذى هو كل عدته للمستقبل

كنز قومي .. تهمله مصر !

♦ وبمناسبة السفر ، وحديث السفر ، اذكر اننى عدت من سفرى لمصر القلب غيرة وحسرة .. غيرة من الدول الأوروبية ، جميعا ، وحسرة على مصر .. لقد رايت تلك الدول تتبارى ، وتنتفنن ، فى ابتكار واظهار مفاصلها السياحية فى إطار خلاب ، يجتذب اليها الآلاف المؤلفة من السياح فى كل عام ، من كافة أنحاء الأرض .. وهى من أجل ذلك تحسن استقلال كل شبر من أرضها وكل مزية من مزاياها ، فلا تترك حتى التافه العادى من معالمها الا وتحيطه بهالة من الأهمية وتنظم اليه الرحلات القسرية التوالية بأفخر السيارات الكبرى ، الأتوكار ، المزودة بميكروفون ودليل - أو بالأحرى دليلة واسعة الثقافة ، تتولى شرح كل ما تقع عليه العين خلال الطريق بثلاث لغات رئيسية ، وتروى قصة وتاريخ كل ما يمر به السياة من دور ومبانيات ، وأنهار وجبال .. ثم تتوقف بك بين الحين والآخر أمام مصنع للخزف ، أو المرجان ، أو الزجاج ، أو العطور ، أو الحلوى ، بحجة رؤية كيفية صنع هذه المنتجات - فى الظاهر - فى حين يكمن وراء هذه الزيارة غرض

آخر خفي مكر ، هو استدواؤ تقود السالحين الكرام في شراء ما يروئهم من منتجات تلك المصانع الصغيرة النافهة التي توجد المئات من أمثالها في بلادنا ، دون أن يفكر أحد منا في لفت انتظار السياح إليها بطبيعة الحال !

هذا مثل واحد من مئات - بل آلاف - الأمثلة التي من هذا القبيل ، والتي سائير إليها تفصيلا في مواضعها من حديث هذه السياحة في الأعداد القادمة .
ومثل آخر يفرض نفسه غرضا على في هذا المقام ، ولا أمك أكثر من أن أتبعه تحت أنظار السيد مدير مصلحة السياحة : المعروف عن باريس أنها أشهر عاصمة سياحية في العالم - حتى لقد بلغ عدد السياح الذين زاروها في سنة ١٩٥٢ (صدق أو لا تصدق) : ثلاثة ملايين و ١٩١ ألفا ، انقلوا فيها ١٢٥ مليارا من الفرنكات ! .. وانت تعرف طبعاً أن العامل الأول الذي يجتذب السائحين إلى باريس بهذه الكثرة المروعة هو شهرتها كعاصمة للهنو والخلاعة .. فهل تعلم أن هذه الشهرة ما هي إلا خدمة ضخمة وبساعة - قوية - مفتعلة للفحشك على « ذقون » السذج من الأجانب الوافدين ، بحيث لا تكاد تجد بين رواد ملاهي باريس الليلية أحداً من أهل البلاد الفرنسيين ؟ والمغزى الذي يكمن وراء هذه الحقيقة المستترة أن الحكومة هناك تشجع على الانكثار من تلك الملاهي ، وعلى تسهيل مهمتها ، وتحسين برامجها ، فاصدة من وراء ذلك إلى اجتذاب السياح من أبعد أقطار الأرض ليقبلوا على باريس كالسحورين ، يفترون من لهوها ويفرغون فيها أموالهم بلا حساب !

قد تتساءل : أو لا تفتنى الدولة هناك على أخلاق بينها من تعريضهم لتلك المقربات ؟ .. وأنا أجزم لك ، بعد ما رأيته وسمعته ، بأن الفرنسيين هم أكثر الناس حساسة ضد تلك الملاهي . فهم لا يرتادونها أكثر من مرات معدودة طيلة حياتهم . وليس ذلك لأنهم قديسون ، وإنما لأن جميع برامج تلك الملاهي الاستعراضية تكاد تكون متشابهة ، بحيث يكفى أن يراها المرء مرة كى يكون فكرة عنها تنفيه عن ارتيادها بعد ذلك . والباريسي الذي يراها مرة - أو حتى الذي يراها كثيراً فيألفها - لن يضره ذلك أو يمس خلقه في شيء ، (فهو أكثر ميلاً وأقبالاً على حضور دراما تمثيلية جدية في مسرح الكوميدي فرانسيز) ، أو برنامج باليه في دار الأوبرا . لكن وجود تلك الملاهي الخليعة مع ذلك يكتفل لفرنسا دخلاً قومياً هائلاً من جيوب السياح الذين ينفدون خصيصاً من أجلها ، أكثر مما ينفدون لزيارة متحف اللوفر أو يل أنك قد تدعش إذا علمت أن باريس تذهب في أروضاء ألوان جميع السياح إلى حد تخصيص أكثر من مليون فيها للرقص الشرقي ، من واقصات مصريات وجزائريات .. بل إن ملهى « الفول برجيير » ، (البقية صفحة ١٩٤)

جملہ

كنايت

اعداد نكس

كتابى الاول : « خطايا الحب » وكتب اخرى ، وكتابى الثانى : « قلب عذراء » وكتابى الثالث : « الهاربة من الجنة » وكتابى الرابع : « حواء الجديدة » وكتابى الخامس : « احبب نوتردام » وكتابى السادس : « جريمة حب » .

اعداد توجد نسخ منها بالادارة

كتابى السابع « عشيقه نابليون » ، والثامن « مذكرات كيويو » ، والتاسع « صتم لحظى » ، والعاشر « حديقته الله » ، والحادى عشر « عندما تحقد المراقب » ، والثانى عشر « العبة الحب والقوت » ، والثالث عشر « التوبة خاطئة » ، والرابع عشر « ايها الربيع لرفق » ، والخامس عشر « الشيطان على الارض » ، والسادس عشر « اليدى هاملتون » ، والسابع عشر « الاممعة المرحقة » ، والثامن عشر « حياة جورج صانعة » ، والتاسع عشر « حياة سارة برنار » ، والعشرون « رباعيات عمر الخيام » . والحادى والعشرون « حياة بيتوفى » ، والثانى والعشرون « حياة موسولينى » ، والثالث والعشرون « كوخ العم توم » ، والرابع والعشرون « الزوج والعشيق » ، والخامس والعشرون « البوهيمية » ، والسادس والعشرون « فتاة لها ماضى » ، والسابع والعشرون « الترويض النخرة » ، والثامن والعشرون « فن الحب » ، والتاسع والعشرون « الجريمة والعقاب » ، والثلاثون « المناق » (طرفوف)

♦ وتطلب من ادارة كتابى: ١٤ شارع ٢٢ يوليو بالقاهرة (عمارة الجندول)، ولين كل عدد ١٠ قروش خالص اجر البريد (المسجل) ما عدا الاعداد ١٣ و ١٦ ، ثم من ٢٥ الى ٣٠ ، ولين كل منها بالبريد المسجل ١٢ قرشا ، والمسدد العاشر والمسدد العشرون ولين كل منهما عشرون قرشا خالص اجر البريد ♦ ملحوظة : ترسل القيمة فى مصر والسودان بلان بريد عادى ، وفى الخارج بخوالة بريدي نقدية من طريق مكاتب البريد MONEY ORDER او بنسبك على أحد بنوك القاهرة ، ولا تقبل العملة الاجنبية او اذونات البريد الخارجية . وتحرر الاذونات والشيكات باسم صاحب المجلة شخصا .

مطبوعات كتابى

صدر منها حتى الان :

- | | |
|-----------------|----------------------|
| ١ - قصة عدينتين | ٢ - ذات الثوب الابيض |
| ٣ - الخيالون | ٤ - الغاطشة |

ولين كل من الاول والرابع عشرون قرشا خالص اجر البريد المسجل (نظرا لوبك نقاده) ، والثاني ١٢ قرشا ، والثالث ١٠ قروش



قصة مصرية: المحرر



عين وحالة

♦ في معرض للتصوير ، وففت منذ أيام اتامل صورتها طويلا .. وفي دليل المعرض عثرت على العنوان الذي أطلقه عليها مصورها : (« عيون حاملة » - تصوير « فريد »)
يا للمسكين .. انه ما يزال يذكرها !



عندما عرفني به صديقي الدكتور شاكر ، لمحت في عينيه انه يتالم . كان الملل من الحياة ناطقا فيهما يتكلم ، ويقول : ان المسكين يحيا ، ولكن رغم ارادته !
وحركت نظراته فضولى الفطرى ، وميل الى دراسة الوجوه والنفوس . وددت لو اصل الى أعماق هذا الفنان الشاب ، لاسبر أغوار نفسه

ومرت الايام .. حتى اقترح على الدكتور شاكر ذات مساء ، ان نمر على فريد كي يلتقط لنا صورة .. وطال بقاؤنا في الاستوديو الى ما بعد مواعيد العمل ، فجلسنا نسمّر ونتحدث فيما يروق الحديث فيه عادة بعد اجهاد العمل طوال اليوم . وتشعب بنا الكلام الى بحث ألوان العواطف التي يفرزها القلب البشرى .. وحلا للدكتور شاكر أن يداعب صديقه فقال : « دعونا من هذا ، وحدثنا أنت يا سيد فريد عن اختباراتك واسعة النطاق . ترى كم أحببت من هؤلاء الفتيات الجميلات اللواتي تزين صورهن جدران الاستوديو ؟ »

كيف أصف أثر هذه الدعابة في نفسية فريد ؟ لقد قابلها اول الامر متكلفا ضحكة استهتار ساخرة ، ثم ما لبث ان شرد هنا فترة بدا فيها كأنها يجمع شتات نفسه ، وبدأت نظراته كأنها آتية من بعيد .. حتى تنبه اخيرا الى ان انتظارنا قد طال ، وأن اسماعنا معلقة بلفه ، فقال :

«كنت تمزح يا شاكر؟ يا بختك! لقد كنت يوما مثلك حرا طروبيا بلا قلب، أعشق كل امرأة فاتنة كما أحب كل زهرة عطرة، أو فاكهة شهية، أو صورة جميلة! .. وعشت هكذا أعواما، متوهما أنني قد عرفت الحب مرات ومرات، وأننى - دون الناس - قد أفلحت فى الاستمتاع به مجردا عن سائر قيوده وأشواكه! .. وكم سخرت من أشجان الهوى، وكم هزأت بنزوات المحبين! .. إيه، ولكن «كريمة» بدلت كل شئ! .. أننى حين أفكر فى حاضرى وتقسو على قلبى آلامه، أتمنى لو أننى لم أعرف الحب، ولم أعرفها، وأجدنى أحن إلى نسيمات «الميل» الهادئ، الذى كنت أحسبه «جاء»، والذى طالما نعمت به قبل أن تبده العاصفة! .. إيه! نعم، ولكننى لا أليث أن أقتلع الندم من جذوره حين تشتعل فى حسى نشوة السعادة المداقة التى غمرتنى بها كريمة، فأحس أن آلامى قد غدت شفافة، تسمح لى بأن أعيش وراءها فى الماضى القريب، قانعا بأن أجتر اللحظات الخالدة التى نفحنى بها حبها! ..



و .. كنا دائما نلتقى فى مشرب للشاي قريب من هنا، ثم نخرج إلى إحدى الضواحي الهادئة: صحراء هليوبوليس، أو الهرم، أو ضفاف النيل فى الجزيرة! .. ونسير متلاصقين نتهامس، أو ننصت للطبيعة وهى تهمس بأحاديث الجمال والسحر والحب! .. حتى نتعب فنجلس على أحد المقاعد الخشبية المتناثرة، كى تغنى لى كريمة بصوت خافت سماوى أغنية

رقية من أغاني الراديو أو الافلام المحببة الى ، بينما أحميم أنا في عينيها الحالمين اللتين كانتا تحكيان لي في كل جلسة حلما جديدا ، وأملا أعذب من نسيم الفجر ، مسكرا كعطر الربيع ، ناعما كأوراق الورد ، وكبشرة خدها الخمرى .. وكم كان خدعا حلوا ودافئا على الدوام . كلما نظسرت اليه كنت أحس كأنى الصق وجهي بوسادة من الريش ، مكسوة بالحرير !

وبقدر ماكانت الوسادة ناعمة ، كانت البقطة دائما ترعينا .. كنا نخشى أن نفيق ، ونشفق من الفراق ، فتراوغ ونظل تراود الدقائق عن سيرها ، ونتملقها أن تقف ، ليطول لقاءنا ونبقى أيضا .. ولو لحظات !

آه .. كيف يجترى احد على أن يتهم الحب بشر أو خطيئة ! ان قلبي ، الذى كان قبل أن تملأه كريمة لا يعبد غير ذاته ، وغير الشيطان ، قد غدا منذ عرفتها متبتلا ، يغرق في صدى كلما لقيتها ، ساجدا لله فى خشوع ، شاكرا للسماء أنها وهبتة حاضره السعيد .. متعبدا لها كى تديمه عليه !

وكما علمنى الحب الشكران ، علمنى الاحسان ، حين كنا نتمشى ذات مغرب جميل ، ومررنا بمتسول ضرير كان يحاذي سور احدى الحدائق الانيقة ، وهو يتلمس قضبانه بأصابعه المرتعشة ، وفى يساره عصا يثق بها الارض دقات واهنة كجسده الهزيل ، الذى خيل الى أن منظره كان الغصة الوحيدة فى حلق سادة المنزل وهم يتناولون الشاى فى الحديقة ، فى استرخاء ، كأنما يستجمون من عناء الراحة ! .. ورقنت كريمة لمراى الضرير فضغطت على ذراعى ، وهى تقول بصوت ذاب فيه الاشفاق والحنان : « أترى يا فريد هذه المفارقة الاليمة .. هذا السور الذى يفصل بين النقيضين : فى الخارج أعنى جائع ، حافى القدمين ، بالى الثياب ، حرمة الدنيا كل شىء .. وفى الداخل ورود وعطور ، وسلم من رخام ، وقصر يضيق بالمقاعد المريحة

والفراش الوثير ، ومخازن الثياب ، والطعام الشهى ، والحياة الناعمة .. ترى ماذا جنى هذا التعس أو جنى ابواه ، وماذا أتى أولئك من أفضال ؟

وقبل أن تسترسل كريمة في خواطرها ، وجدتني أسخو على الضربير بالعتاء ، وأسارع معها بالابتعاد .. فقد أحسست بقلبي يرق حتى ليضنيني ، أنا الذي لم أكن أفهم الألم ، أو أقدر الحنان ، والفقران ، والبر والتسبيح .. وعشرات غيرها من المعاني الرقيقة واحساسات الناس التي ألهمتني كريمة أن أراعيها ، وهي ترعاني بنظراتها الساخنة التي كانت تنضح بالعاطفة ، حتى لتكاد تعطيني في كل نظرة .. قلبها بأكمله ! آه .. لماذا خلق الله لنا ذاكرة ، تعي ظروف الألم أكثر مما تعي ساعات السرور ؟

إن ذاكرتي كثيرا ما تتجأل البداية السعيدة لقصتي ، ولكنها لا تعطيني لحظة من مرارة النهاية ..

.. فقد غابت عني كريمة يوما فأياما ، تبينت خلالها قسوة ما كانت قد فرضته على من الجهل التام بكل ما يمكنني من لقائها كلما أردت أنا ، لا هي .. وهكذا بقيت حائرا ، أنتظرها كالمجنون ، ثلاثة أسابيع ، حتى وصلتني منها هذه الرسالة .. مبللة بالدموع :

« يا فريد .. أعلم أنك لن تغفر لي هذا الغياب الطويل ، فكيف لو علمت أنني لن أعود ؟

.. لقد خدعتك يا فريد ..



أخفيت عنك اننى انما احببتك لكى انتقم لكراحتى من الرجل الذى هويته فانصرف عني ، أو ظننت أنه فعل ، حتى عاد منذ أيام ليخطبني ، نادما مستغفرا .. فصفحت عنه ، بعد الحاج قلبي الذى لم يكن قد نسيه ! .. فاغفر لي يا فريد اننى .. ساتزوجه ، أو فحاول أن تكرهني وتنساني .. الوداع يا فريد .. »

وفرغنا من الرسالة والتفتنا الى فريد ، فاذا الدموع تهيم في عينيه ، بينما نظراته تهيم في عينيها هي ، وهو يتأمل صورة كبيرة لها كانت بين يديه !



قلت للدكتور شاكر ونحن نسير معا في شارع قصر النيل قبيل منتصف تلك الليلة ، بعد أن ودعنا فريد : « انك قد اضطربت حين رأيت صورة كريمة .. ترى هل كانت لها قصة معك أنت الآخر ؟ »

قال : « نعم ، ولكنها قصة من نوع آخر .. فقد تذكرت هذا الوجه .. انها قد كذبت عليه كي يكرهها وينساها ، بينما لم يكن خطيبها الا .. الموت .. لقد رأيته قبل زفافها اليه بساعات .. كان يترصدها في اصرار ليأخذها معه .. لعلك فهمت أنها كانت مريضة ، فقد لبثت أكافح (التيفويد) ثلاثة أسابيع ، ولكن الموت غلبني واستأثر بها .. وقبيل وفاتها كنت أعودها ، فانتهرت فرصة خلو الغرفة من أهلها وطلبت مني وهي تبكي أن آتي لها بورقة صغيرة كي تكتب كلمة وداع ، لرجل .. بعد أن رجتنى أن أصون سرها عن ذويها ! »

وسكت الدكتور شاكر ، وكان الترام قد وصل ، فمضى .. ومضيت ..

ومضت شهود ، حتى وقفت منذ أيام في معرض التصوير ، أتأمل صورتها طويلا

ومر بخاطري فريد .. يا للمسكين ، انه لا يعلم أن العيون
الحالة قد كفت عن أن تنسج الاحلام ، وانه لم يبق منها الا
هذه الصورة الراقدة في اطارها الاسود ، الذي تراه لى - وانا
ابتعد - كأنه نعش قائم بغيض !

اقرأ فى « كتابى » تباعا ابتداء من العدد القادم :

رأيت وسمعت لك ... فى اوربا

بقلم المحرر

وصف تفصيلى شائق لاشهر المعالم التاريخية والسياحية فى كل
من : إيطاليا ، النمسا ، سويسرا ، فرنسا ، اليونان .. مع تصوير
صداها فى نفس كتابها ، ودراسة اجتماعية لشعوب تلك البلاد ،
واحوالهم ، واساليب حياتهم ، وعاداتهم ، مع احصاءات دقيقة فى كل
باب من ابواب هذا البحث ، وصور فريدة فى نوعها ..

سوف تحس وانت تقرأها ، كأنك راقت المحرر
فى زيارته لكل من هذه البلدان والبقاع :

روما (المدينة الخالدة) .. نابول .. كابرى (جزيرة الاحلام) ..
فلورنسا (موطن دانتي) .. البندقية (المدينة العائمة) .. كورنيسا
(جنة إيطاليا) .. التيرول النمساوى .. اينزبروك .. سالتزبورج
(عاصمة المهرجانات الموسيقية) .. فينا (مدينة الحب والنساء والفناء)
.. بحيرة كونستانز والحدود الألمانية .. مصانع زيلن .. شلالات
الراين (شافهاوزن) .. الريف السويسرى .. زيوريخ (عروس مدن
اوربا) .. باريس (مدينة النور) .. شاطئ الكوت دازور والريفييرا
الفرنسية .. نيس ، كان .. امارة موناكو (دولة القمار) ، وكازينو
مونت كارلو .. الريفييرا الإيطالية ، سان ريمو .. جنوا .. ميسينا
.. اثينا (عاصمة الاغريق) ، الاكروبول ، كيبسيا ، قناة كورنث ،
جزيرة سترمبول .. الخ

أضحى وأوفى ما كتب عن تلك البلاد باللغة العربية

ترقب « كتابى » القادم

عزيزى القارىء ...

قرات معى فى الاعداد الماضية قصص :

- اموك : لستيفان زفايج
- مرتفعات وذرنيج : اميل برونسى
- قلب عدراء : جون جالزورنى
- التلميذ : بول بورجييه
- احلب نوتردام : فيكتور هوغو
- جريمة حب : بول بورجييه
- جين اير : شارلوت برونسى
- ايام بومباى الاخيرة : ليتون
- مانون ليسكو : الاب برىفو
- حديقه الله : روبرت هنتسز
- عندما تحلق المرأة : اونييه
- آسيا : ايفان تورجنيف
- كاس تمبرلين : سنكلير لويس
- الشيطان على الارض : رسل
- رساله من مجهولة : زفايج
- تايبس : اناول فرانس
- بلاد العميان : هـ.ج. ويلز
- نادى الانتحار : ستيفنسون
- كوخ العم توم : ستو
- البوهيمية : هنرى موجيه
- فتاة لها ماضى : بورجييه
- شيرى : كوليت
- الجريمة والعقاب : داستويسكى
- لحن كرويتزر : تولستوى

واليوم اقدم لك هذه القصة الرائعة
من مصر القديمة قبيل غزو الفرس لها
بقيادة « قمبيز »

الحياة قصه



روائع القصص العالمى

AN EGYPTIAN
PRINCESS

By
GEORG MORITZ
EBERS

الملكة المصرية

قصة فرعونية بقلم الكاتب الألماني
"جورج موريتز ايبزر"



تلخيص : الاستاذ محمد بدر الدين خليل

هذا المؤلف ... وهذه القصة

• ولد « جورج
« دويتز ايسرز » في
برلين في أول مارس
سنة ١٨٣٧ ، ودرس
القانون ، ثم أصيب في
سنة ١٨٥٨ بمصر
خلف بساقه عرجا ،
فصرف النظر عن أن
يصبح محاميا ، وأقبل
على دراسة اللغات
القديمة والآثار. منصرفا
انصرافا تاما الى تاريخ
مصر القديمة .. ثم
قام برحلات جاس فيها
خلال مصر والنوبة وبلاد
العرب ، وانتهى الى



ان صار اسنادا للتاريخ المصري بجامعة « ليبزيغ » . حيث ظل حتى
سنة ١٨٨٩ ..

وكان قد زار مصر مرة اخرى في سنة ١٨٧٢ ، حيث قام ببعض
اعمال الكشف الاثرى الجلية ، واعملها ورقة البردي التي اصبحت
تعرف باسمه .. ومات في ٧ أغسطس سنة ١٨٩٨
وكان ابرز مشغولا أثناء مرضه ودرسه للتاريخ ، بقصص
المصريين القدماء ، فراودته فكرة احيائها ونشرها في روايات تاريخية
يعزج فيها الحليفة بالخيال .. والرواية التي تقدمها في هذا الشهر
« اميرة مصر » هي اول ما كتب في هذا الباب ، وقد اصدرها سنة
١٨٦٤ ، فلفت نجاحا ودواجا حلزا على اعادة طبعها مرارا ، وعلى
ترجمتها الى معظم اللغات الاوروبية

وسر كتابي ان ينقلها اليوم - ملخصة - الى العربية لأول مرة

الفصل الاول رودوبيس

♦ كانت مياه الفيضان تغمر الوادى وتفيض على جانبي النيل .. وليس ثمة نسمة واحدة من هواء .. واشعة القمر تبسط على صفحة النهر العظيم الخالد ستارا من فضة .. وفى تلك الليلة من ليالى عام ٥٢٨ قبل الميلاد ، انساب من « نوكراتيس » - التى كانت معقلا لليونانيين ، والتى اختارها الاسكندر الاكبر فيما بعد ليقيم الاسكندرية على مقربة منها - قارب لم يلبث أن دلف عبر مصب فرع النيل ، وقد استوى بين وسائده رجلان ، كشف القمر عن أنهما من أصل اغريقى (يونانى) .. وكان أكبرهما سنا اسبرطيا فى حوالى الستين من عمره ، فارع الطول ، قوى البنية ، تهدلت جددائه التى وخطها المشيب على عنقه .. فى حين كان الآخر أثينيا يصغره بعشرين عاما ، ممشوق القوام ، متين البنيان .. وكان الصمت يلفهما ، حتى اذا اقتربا من الشاطئ بعد حوالى نصف الساعة ، قال الاصغر : « ها قد أشرفنا على غايتنا يا اريستوماخس » .. فهناك الى اليسار ترى الدار البهيجة ، مقر صديقتى « رودوبيس » .. ان كل أصدقائها ، حتى الملك ، يتنافسون فى ادخال التحسينات على هذه الدار فى كل عام .. - انك تكثر من اطراء هذه العجوز يا فينس .. - أؤكد لك اننى لا أعرف فى مصر من هى أنبل منها .. - وكيف استطاعت « رودوبيس » أن تغدو كالمملكة ، وان تعيش فى جو ملكى ، وهى التى كانت جارية ومحظية ؟ وهنا راح الاثينى يروى لصاحبه قصتها : كانت جارية يونانية ، جمعها الرق فى حدثاتها بعد أوتى علما وحكمة ، فعلمها الحديث والفناء والموسيقى .. ثم ابتاعها سيد حملها

الى بلدة « نوكراتيس » حيث راح يستغل جمالها الباهر الخلاب كى يثرى ، الى أن قدر لها أن ابتاعها نبيل من أبناء الاغريق اللاتين بمصر ، وتبدله فى هواها ، فاعتقها وتزوجها .. وصارت دارهما مقصد اليونانيين الذين كانوا يعجبون بجمال « رودوبيس » وثقافتها ..

وعندما مات زوجها ، ظلت فى « نوكراتيس » مع الابنة التى انجبتها ، حتى اذا كبرت هذه الابنة تزوجت من تاجر فينيقى نبيل المحدث ، نزع بها الى الخارج ، وهناك رزقا بنتا أطلقا عليها اسم « سافو » .. ثم دهم الوالدين وباء قضي عليهما ، فضمت « رودوبيس » حفيدتها وكفلتها .. وكان الهوان الذى لقبته هى فى صغرها ، يجعلها تفار على الصغيرة وتحول بينها وبين الاتصال بالرجال - على كثرة من كانوا يترددون عليها ، اذ اعتاد اليونانيون أن يجلسوا فى قصر « رودوبيس » المجتمع الذى تهفو اليه نفوسهم المشوقة الى الوطن .. سيما وقد كانت « رودوبيس » تحظى برعاية سابقة من « امازيس » - أو « احمس » - الذى قاد ثورة الجيش وانتزع العرش لنفسه .. وكان « احمس » يميل الى الأجانب ، رغم ما كان يعلمه من أن الشعب ما تقم على سلفه الا لأنه كان يؤثر اليونانيين بحظوة أثارت عليه الكهنة والمصريين جميعا .. بيد أن « احمس » كان يعرف كيف يتفادى ما تعرض له سلفه ، وان كان نفوذ الكهنة قد غدا عبثا بمرحمته ويعكر عليه صفو الحياة ..

الفصل الثانى

على مائدة رودوبيس

◆ كانت « رودوبيس » تبدو أصغر من سننها الحقيقى ، وان لم تكن تحاول أن تخفى هذه السن ، بل كان يسرها أن

تبدو «أما» لهؤلاء المغتربين الذين اعتادوا أن يلوذوا بمجلسها ، وأن يستمتعوا بما لديها . . وكانت كالمملكة وسط حاشيتها ، فياضة اللطف ، تؤثر كل ضيف ببعض العبارات الرقيقة . . وعندما تناول الضيوف في تلك الليلة كفايتهم من الطعام ، تحولوا يسمرون ويشربون . . وجرى الحديث بين «رودوبيس» والأثيني «فينس» ، فإذا بها تعرف أن الأخير قد أقصى عن خدمة الملك أحمس ، وأنه راحل إلى اليونان . . ومازال الحاضرون بفينس حتى انطلق يروي لهم قصة اقصائه : **فلقد كان «بسامتيك» - ابن الملك وولي عهده - يحقد عليه ويناصبه العداء . . وشاء الحظ العاثر أن يفاجأ خادم للأثيني وهو يلقي بعض القطط في النيل - وكانت القطط مقدسة لدى المصريين ، إذ كانوا يصورون الالهة «باخت» برأس كراس القط ، فكان الحاق آتفه ضرر بهذه الحيوانات يعتبر جريمة كبرى - لذلك كاد القوم يفتكون بالخادم ، ثم قاده إلى المعبد ، حيث أمر كبير الكهنة بالقائه في السجن . . وكان الحادث فرصة للكهنة الذين كانوا يحقدون على الأجانب ، ويتحالفون مع بسامتيك ، فآلقوا مسئولية الخادم على مولاه ، وسرعان ما اعتقل «فينس» وقدم إلى المحكمة العليا المؤلفة من كهنة (مفيس) و (عليوبوليس) و (طيبة) . . فقضت عليه بالموت . . لولا أن اجتمع الضباط والجنود الاغريق الذين في خدمة أحمس - وكانوا حوالي ٤٠٠٠ - وهددوا بالاستقالة إن لم يعف الملك عن قائدهم ، فاستدعاه الملك من سجنه ، ووعدته بأن يشفع له لدى الكهنة ، بشرط أن يغادر مصر قبل انقضاء ثلاثة أسابيع !**

واستطرد «فينس» يقول : «وعند أبواب القصر ، التقيت ببسامتيك - ولي العهد - فقال لي : «لقد نجوت من نقتى مرة أخرى أيها الأثيني ، ولكنك لن تهرب من انتقامي !» . .

ومن ثم سارعت الى المجيء الى نوكراتيس لاتأعب للرحيل عنها الى وطني .. »

ودارت بين الحاضرين أحاديث شتى ، وفجأة ، قال أحد الحضور : « الآن ، اليكم النبأ الذي تكتمته عنكم حتى تدب التشوة في رؤوسكم .. ان الفرس قادمون ! »

وقفز الجميع عن مقاعدهم مذعورين .. ولكن المتحدث صاح يطمئنهم : « صبرا .. فليس القادمون جيشا ، وانما بعثه أوفدها قمبيز عاهل الفرس ولن تلبث أن تصل بعد أيام قلائل .. وليس ثمة من يدري لمقدمها سببا ، وان قيل ان قمبيز سيعرض على احمس معاهدة تحالف .. بل وسيطلب يد ابنته ! »

فهتف فينس غير مصدق : « وما حاجة الفرس الى تحالف وقد غدوا يحكمون نصف الدنيا .. ولم ينبج من غزوهم غير مصر واليونان ؟ »

— أنسييت ان الامبراطورية اذا اتسعت رقعتها وتعددت اجناسها ، بدأت بوادر التمرد تدب فيها ، فهي تحذر الحروب مع الاجانب حتى لا تنتهز الولايات المتمردة فرصة غياب الجيش فتنتقض عليها ؟

الفصل الثالث

رودوبيس وفينس

♦ كان الوقت ظهرا .. وقد جلست رودوبيس الى فينس بجوار نافورة في حديقة قصرها الغناء . وراحت تقول : « لو كنت ضعيفة لنزحت عن نوكراتيس ولعشت في عزلة عاكفة على حفيدتي ، فهي دنيا كاملة تكفيني .. وانما أبقي لاننى أشعر بأننى ذات نفع لمواطنينا الذين آثروا حياة التغرب على

الحياة في ربة الاستعباد .. بل ان وجودى - بعد رحيلك - أصبح ضروريا لحمايتهم . لقد شاخ أحسن ، ولو خلفه « بسامتيك » لعانينا المتاعب الجسم . ولكننى سابقى لا كافح من أجل حرية الاغريق ورحائهم .. »

وقال فينس : « هذا ما يروق لى منك . لسوف يفتقدنى أحسن ، فان علاقائى بجنوده الأجانب المرتزقين كانت تمكننى من أن أحسن سياستهم كما لا يتسنى لسواى .. اننى ما فارقت أثينا الا لأننى قهرت فى محاربة الطغيان هناك .. ولقد تركت زوجتى التى مانت فى العام الماضى ، وتركنت ابنى - الذى بلغ الحادية عشرة - وابنتى التى تصغره بعام ، فى حصانة عمتهم .. وقد أرسلت فى استدعائهما ، لكنهما لن يصلا قبل أن تنقضى الاسابيع الثلاثة التى أمهلتها كى أغادر البلاد . فان شئت أن تثبتى صدق وفائك لى ، فاستقبليهما ، وأرسليهما ورائى فى أول سفينة تبحر الى (تراشسيا) ، وأخفيهما عن أعين جواسيس « بسامتيك » ، فانت تعرفين أنه عدوى الألد ! .. اننى أعرف أن الملك جعل بيتك حرما وخلع عليه حصانة ، ومن ثم فانه خير ملاذ للطفلين . ولسوف تلمسين مدى تقديرى لك حين تثبينين أننى أعهد اليك بخير وأعز ما لى فى الحياة ! »



❖ **ووصلت البعثة الفارسية ، فاذا مصر تستقبلها استقبالا حافلا . وكانت تتألف من ستة رجال ، بدوا فى أبهى الصور ، وأفخم الرواء :** « بارتشا » رئيس البعثة وشقيق العاهل الفارسى ، وهو شاب فى العشرين أوتى كل ما يشتهى من الجمال ، من شعر ذهبى ، وعينين زرقاوين تفيضان بالحياة ، والهناء ، والرحمة ، والشجاعة .. وكأنما وجهه النبيل القسمات ، الذى تحوطه لحية حديثة النمو ، تحفة رائعة من

انتاج أبرع فنان • والى جانب هذا الجمال كله كان الشاب على قدر كبير من الفتوة البادية ..

وكان يتلو بارتشا فى البعثة « دارا » ، وهو شاب لا يقل عنه حسنا ، ومن الأسرة المالكة .. ثم رجل أشيب الشعر ، بادی الرزانة ، تفيض من وجهه الصبوح اشعاات من الرحمة ، واللفظ ، يخالطهما الذكاء ، والخبرة بالحياة .. ذاك كان « كروسس » ملك (ليديا) المخلوع ، الذى استقر فى بلاط قمبيز كصديق ومستشار له .. ثم « بركسامبس » سفير ملك الفرس ، وزوبيرس - أحد نبلاء فارس وصديق « بارتشا » و « دارا » - و « جايجس » الشاب النحيل ، الرقيق ، ابن « كروسس » ..

واستقبلهم « بسامتيك » - ولى عهد مصر - فى البناء .. كما كان والده الملك « احمس » فى ارتقابهم فى قصره ، مرحبا ، مؤهلا .. فلما كان اليوم الرابع ، انتهز احمس فرصة غياب شباب البعثة مع ولى عهد فى ممفيس ، وخرج يتمشى مع الملك المخلوع المسن « كروسس » فى حدائق القصر ، بعد أن فرغ من أعماله التى كان يكرس لها فترة الصباح من كل يوم .. وجلس الشيخان فى ظلال الاشجار الوارفة .. فقال الفرعون فى لغة يونانية سليمة :

- لكأنا الصداقة ربطت بيننا منذ أمد بعيد يا صاحبي ..

- كذلك شعورى .. اننى أعجب بشجاعتك التى تمكنك من أن تفعل ما تراه صالحا ، رغم تحدى رجال البطانة الذين حولك .. اننى أرى فيك زميلا ، فلقد استمتعت مثلى بكل مايمكن أن تتيحه الحياة من بهجة وهناء ، ومن متاعب وأشجان .. لقد حملت لى ساعة النحاس فى طياتها أولى ساعات الفرح ، فعندما انكسرت أمام الفرس رفع جندى منهم سيفه وكاد

يهوى به على عنقي ، لولا أن أمسك أبني « جايجس » بيده فعاقه .. وكان أبني ذاك أبكم منذ العام الرابع من عمره ، فأنطقه الفزع ! وكانت هذه أسمى نعمة أغدقتها على الآلهة : أن استعاد أبني القدرة على الكلام .. فبدأت أرى أن المصائب قد تطوى في أردانها الخير .. وانك لتعلم انني غدوت بعد ذلك صديقا لكورش - والد قمييز - فسمح لابني بأن يعيش في احضائي .. وعندما رايت المتاعب التي عاناها كورش في آخر ايامه ، والليالي التي كان يقضيها مؤرقا ، ارتجفت لذكرى ما كان له من عظمة وملك ، وتبينت أين تكمن السعادة الحقة : انها في أعماق كل منا .. انها القدرة على القناعة ، والصبر ، والانشاء بكل ما هو رائع وجميل ، وتحمل الحزن بلا شكوى ، وتجميله بالذكريات .. انها الاعتدال في كل الامور ، والثقة الوطيدة في الآلهة ..

- الحق يا كروسس انني أغبطك ، رغم انني « اله العدل وصاحب المجد العسكري » كما يلقبني المصريون ، وانت المحروم من عرشه ومجده .. لقد كنت سعيدا مثلك فيما مضى ، يحبني جنودي ، ويعتز بي رؤسائي .. فلما أرسلنا سلفي « خفرع » لغزو سبيرين (ليبيا) ، راح الموت يحصدنا في الصحراء ، فتمردنا ورفضنا التقدم .. واذا ذاك نيتت في رأسي فكرة خلع الملك ، فاذا الجيش يؤازرني ، واذا الشعب يعضدني .. ولكنني لم ألث - بعد أن اعتليت العرش - أن منيت بعداء عليه القوم ! .. فالكهنة لم يتقبلوني الا لانهم طمعوا في أن أكون أداة في أيديهم .. ولقد أفقدني السلطان اصدقائي من ضباط الجيش ، فاضطرت الى الاستعانة باليونانيين الذين أعجبت بفنونهم وعاداتهم ، فحاولت أن أدخلها على مصر .. ولكن الغرض السامي الذي رميت اليه من وراء ذلك تحطم تحت ربة الكهنة ، إلسادة الذين يسمعون

لفرض سلطانهم على أعمالى . وكان نفوذهم على الشعب أقوى من نفوذى ، فاضطرت الى أن اتخلى عن أروع مشروعاتى ، وأن ارتضى العيش عبدا لهم ! .. بل لقد أقاموا أبناءهم رقباء على ، وأن قدموهم على أنهم مرافقون وخدم لى .. كل من هؤلاء الفتية حارس وسجان ورقيب !

واذ تجلت الدهشة على كروسس ، قال أحس :

« لكل مركز ممتاز ضريبة .. وأنا كملك لهذه البلاد مضطر الى أن ارتضى اغلال تقاليد ترجع الى ألف عام ، والا حرم الكهنة دفن جسدى اذا مت ! .. وأنا قد اتأثر بالانغريق ، واقتبس الكثير من أفكارهم وعاداتهم ، ولكنى مصرى قبل كل شئ .. مصرى بكل جارحة فى كيانى .. وقد اكتهلت ولم تبق لى فسحة من العمر ، فهل ترانى أضحي براحة آلاف السنين فى العالم الآخر ؟ .. لا يا صديقى ، اننى مصرى أو من بان النعيم فى حياتى الثانية يتوقف على صيانة جسدى .. فهى مستودع روحى .. وما اكتسب أطباؤنا شهرتهم ومكانتهم لو لم نطمئن الى أنهم فى حفظ كياننا الدنيوى .. وبهذه المناسبة ، كيف حال « نينخارى » طبيب العيون الذى أرسلته لملك فارس ؟ »

— لقد كرم علم بلادكم .. وكان هو الذى أثار اهتمام قمبيز بجمال ابنتك .. ولك أن تطمئن الى اننى سأرعى ابنتك « نايتيتس » كما لو كانت ابنتى ، وستجدنى فى عونها دائما ، فإن أجنحة النساء فى قصور فارس كثيرة المزالق .. على أن قمبيز سيرضى عنها ، وإن كان نينخارى لم يحدثه الا عن « تاخوت » ..

— ان « تاخوت » ضعيفة البنية ، لا تحتمل عناء الرحلة ، ولوعة الفراق .. ولولا حاجة مصر الى السلام ، ما أرسلت نايتيتس هى الاخرى !

الفصل الرابع

مأدبة في القصر الملكي

◆ لبس قصر الملك أحمر في « سايس » أبهى الحلل ،
 وازدحمت قاعاته الرحبة بالضيوف الفارسيين والحاشية
 التي صحبتهم - والتي كانت مؤلفة من أكثر من ثلاثمائة
 شخص - وبالنبلأ وعلية القوم من المصريين ، رجالا ونساء ،
 من متباين الأعمار .. وكان « بارتشا » - الأمير الفارسي
 الشاب - ونايتيس ، ابنة فرعون ، أكثر الحضور تألقا ..
 وقامت الملكة « لاديس » زوجة أحمر - التي كانت تنحدر
 من الدماء الاغريقية - بتقديم أعضاء البعثة الفارسية الى
 ابنتها .. وكان أحمر قد اختار زوجته هذه بعد موت زوجته
 الاولى المصرية ، أم ولي العهد « بسامتيك » ، بدافع من شفقه
 باليونانيين ، رغم معارضة الكهنة ..

وكان لكل من ابنتيه « نايتيس » و « تاخوت » طابعا
 الخاص من الجمال . كانت « تاخوت » شقراء ، ذات عينين
 زرقاوين ، وجسد رقيق ، صغير .. بينما كانت أختها فارعة
 الطول ، ملتفة الجسد ، سوداء الشعر والعينين ..

وقال « بارتشا » اذ قدم الى « نايتيس » : « انني احبك
 كملكتي وأختي . ومن السهل أن أدرك أنك مهمومة لفراق
 الوطن والابوين والاخ والأخت ، ولكنك خليقة بأن تطرحي
 عنك الهموم ، فإن زوجك - أخي - بطل عظيم وملك قوى ..
 كما أن أمنا « كاسانداني » أنبل النساء ، ومثال الجمال
 والعفة ، حتى ان الفرس يعبدونها عبادتهم لأشعة الشمس
 التي تمنحنا الحياة .. »

ثم التفت الى تاخوت قائلا : « جدير بي أن أسألك أن
 تغفري لي كوني قد جئت أسلبك أختك ، وأعز صديقاتك .. »

وانحنيت له تآخوت في صمت .. ولكن عينيها الزرقاوين
طلتا تتبعانه خلال الحفلة ..



♦ وفي تلك الليلة لم ينعم الملك أحسن بالنوم أكثر من ثلاث ساعات بعد الحفلة ، إذ أيقظه الكهنة الصغار مع صباح الديك كالمعتاد ، فقادوه الى الحمام ، ثم البسوه ثياب الملك ، وساروا به الى المذبح المقام في ساحة القصر ليذبح القرابين أمام الملا من الشعب .. ثم شرع الكهنة يقرأون عليه - كعادتهم - طرفا من أعمال ونصائح العظماء الذين وردت سيرهم في المؤلفات الدينية .. ثم قادوه الى جناحه الخاص ، حيث عكف على الاطلاع على الخطابات والتقارير الواردة من كافة أرجاء البلاد .. حتى اذا فرغ ، استدعى ابنه ، الذي أقبل فركع اذ تجاوز عتبة القاعة .. وابتدره أحسن : « لم أردت مقابلتي ؟ .. ان وقتي محدود ! »

فارتجفت شفتا بسماطيك وقال : « لاسيما بالنسبة لابنك .. »
لقد التمسيت سبع مرات أن أحظى بلقائك فلم تسمح الا اليوم !
- اننى أحسن سبب مجيئك ، ولكننى أبدد هواجسك بشأن تسب تايتيتس ..

- بل جئت أحذرك من أن سواى يعلم السر .. أى ضمان يكفل لك ان « فينس » الذى تتركه يغادر مصر ، لن يشى بنا للفرس ؟

- اننى أثق بصديق حكى على الناس .. ان فينس صديقى - ولكنه عدوى اللدود ..

- اذن فاحذره أنت ، اما أنا فلا أرى داعيا لأن أخشاه

- انما أخشى على بلادنا .. انك يا أبى قد تكرهنى ، ولكنك ملزم بأن ترعانى بوصفى العاهل المقبل لمصر .. وان

في سقوطى ضياع الملك من اسرتك ، وخراب مصر .. يجب ان تصدقنى اذا أكدت لك ان فى وسع فينس ان يغدر بمصر ويخونها مع كل عدو .. وان فى صدره لسرا لو كشف لجعل صديقنا العظيم أقطع عدو لنا !

- أنت مخطئ .. صحيح ان نايتيتس ليست ابنتى ، ولكنها فى الوقت ذاته ابنة ملك ..

- حتى اذا كانت ابنة اله ، لن يحول ذلك دون عداء قمييز لك اذا عرف السر ، لأن الكذب أقطع جرم لدى الفرس .. وهم يرون أن الخداع عار يتطلب النار ..

- أو خيل لك أيها الاحمق اننى لم أحسب لكل هذا حسابه ؟ .. دع فينس يشئ بالسر ، فمن أين له البرهان ؟ .. اذا كنت تسمى لأن تشيرنى على صديق وفى خدمتى بأخلاص ، فاعلم اننى على استعداد لأن أحميه من نعمتك التى أعرف سببها .. انك تبغى أن تقضى عليه لأنه صدك عن أن تفتصب حفيذة « رودوبيس » .. مالك شجبت ؟ .. لقد عينته قائدا بدلا منك لأننى وجدتك غير جدير بالمنصب .. فساعدنى على أن أحيط نفسى بأولئك الذين يسندون عرشى ويقدرّون « رودوبيس » ..

- أمعن فى اهانتى ماشئت ، ولكن لا تقل ان بلادنا تعتمد على الأجانب .. الا انظر الى تاريخنا .. وانظر الى ما صرنا اليه ، اذ يدعو الملك بلسانه المشردين والمغامرين من الأجانب ليسندوا عرشه .. ويسعى لكسب صداقة عنصر غلبناه فى معارك مجيدة قبل أن يفد الأجانب على وادى النيل

- ان مصر لم تصل من قبل الى ما هى عليه اليوم من ازدهار .. لقد أقام رمسيس مجده على اوراقه الدماء ، أما أنا فقد صرفت الناس الى ما هو أجدى : الى التعمير ، والعمل من أجل الرخاء .. ومع ذلك ، فإن أى عدو يهاجمنا ، سيجد القلاع والسدود ، وسيجد خير جنود حملوا السلاح .. ثلاثة آلاف يوناني ، فضلا عن الطبقة العسكرية المصرية ..

- بل ان الترف الذى يعيش فيه الأجانب قد امتص دماء المصريين .. لقد استفحل عتو الاغريق حتى لقد غدوا ينالون من آلهتنا بالسخرية ..! ولقد انشغلت بمعاركك مع الكهنة - وهم خير دعائم لعرشك - بينما كان الفرس يبنون قوتهم ويزحفون من الشرق الى الغرب كجبار وارد يتلع الشعوب .. حتى غدوا يسيطرون على نصف العالم ، وحتى دانت لهم رقاب الملوك .. وعندما شامت الآلهة أن تساعدك على انقاذ مصر ، ورغب قمبيز فى أن يتزوج من ابنتك ، اذا بك أضعف من أن تضحي بها من أجل الصالح العام ، واذا بك ترسل الى الملك العظيم بديلة عنها : ابنة مرعومة !

أخذ أحسن يهتز لفرط الغضب ، ثم صاح : « ايها الابن العاق ، أفتعرف من الذى سيقضى على مصر ومجدها العريق ؟ .. أنت .. الرجل الذى لا يعرف قلبه الحب ، ولا وجهه الابتسام .. لقد خلعت عليك لعنة الآلهة طباعك التمسعة .. الا اعرف ما كنت أخفيه عنك : عندما هزمت سلفى أجبرته على أن يزوجنى من أخته .. وفى الليلة التى وضعتك فيها ، رايت فى المنام أنها ترقد على شاطئ النيل ، تشكو ألما فى صدرها ، فأنحنيت عليها واذا بى أرى فى قلبها شجرة اخدت تنمو سريعا ويسود لونها ، وراحت جلورها تلتف حولها حتى قفست عليها .. وفجأة ، هبت الأعاصير ، وأسقطت الشجرة ، فاذا فروعها ترتطم بالنيل ، واذا ذاك غاض ماء النهر ، وتحول مجراه الى موميا ، والمدن القائمة عليه الى نائحات ناديات .. وقد فسر كهنة معبد آمون الليبى هذا الحلم بأن مولدك سيقضى على أمك ، وإن شعبا سيفزق مصر فى عهدك ، فيحيل النيل الى مقبرة لجثث أبنائه المدافعين عنه ! »

وصاح بسامتيك وهو يشن ويبكى : « كفى ايها القاسى ! .. » ثم ستر الشاب وجهه فى طرف ثوبه وخر على الأرض وقد استبد

به الأسى ، فأشفق الاب الشيخ عليه ، وانحنى يقبل جبينه ،
 وحسرو اليه عن قسوته ، ويسرى عنه قائلا ان الاحلام كثيرا
 تكون كاذبة ، وان المفسرين كثيرا ما يخطئون . ثم سأل ان
 يتنى ما يشاء ليحققه له ، ترضية واسترضاء . واذ ذاك أو مضت
 عينا الشاب وهتف فى انفعال : « دع لى غريمى » فينس ! »

وفكر الملك برهة ثم قال : « ساجيب رغبتك ، وان حدثنى
 قيسى باننى أقدم على عمل سيكون نذير القضاء على ، وعليك ،
 وعلى ملكنا ، وعلى كل شىء » ، فترو فى الامر قبل أن تقدم على
 شىء ، ومهما كانت نيتك نحو فينس ، فلا يجب أن تمس شعرة
 من «رودوبيس» ، واحرص على أن يظل مصير فينس على يدك
 سرامكتوما ، لا سيما عن الاغريق . . . والآن لعل من الأصوب أن
 تعرف قصة نايتيتس »

وأصفى الشاب الى أبيه بكل حواسه . .

الفصل الخامس

ساييس

♦ يعم بسامتيك لغوره صوب معبد الالهة « ينيت » ، حيث
 استقبله « نييتوتب » كبير كهنتها العجوز فى ترحاب صادق ،
 فقص عليه الشاب ما دار بينه وبين أبيه . . وفى عطف ، أخذ
 الكاهن الشيخ يؤنب بسامتيك على ما جرؤ عليه من اغضاب
 أبيه ، وراح يذكره بما للوالد من حقوق ، وبما للدمانة واللفظ
 من قدرة على تحقيق المآرب .

وقال بسامتيك : « لقد حدثنى الملك عن نسب نايتيتس . .
 ولكن ، كائن بك غير تواق لأن تستمع لى ؟ »
 - ان الفضول رذيلة لا تستمرئها سوى النساء . . ثم إننى
 عرفت كل ما سوف تقوله ، منذ أمد بعيد . .

— اذن فانت تعرف من هو الأب الحقيقي لنايتيتس ؟
 — لقد تلوت بنفسى الصلوات على قبر الملك خفرع .. وكان
 حريا بك أن تعرف أن النجوم الخالدة والكتب الالهية كفييلة
 بأن توحي لى بالسرى .. وهى أبدا لا تخدع من يخلص فى فهمها ..
 فشحب وجه بسامتيك اذ تذكر رؤيا أبيه .. ولح الكاهن
 الخفير الطارىء فقال : « أراك تفكر فى النذر التى رافقت مولدك
 .. ولكن الفلكيين الذين أدركوا سوء طالعك ، نسوا أنه قد
 يتحول الى سعد .. لو .. لو أنك تناسيت كل شئ ، وعشت
 عمرك للالهة وحدها ، وأطعت وحيها طاعة عمياء .. »

واقسم الشاب أن يكون كذلك .. واذا ذاك قال الكاهن :
 — **والآن ..** لو أمكن أن ترجى مصرع فينس فانى أحب أن
 اتحدث اليه أولا .. لقد وصل بالأسى جنود من اثيوبيا لايفهمون
 اللغة المصرية ولا اليونانية ، فاذا قادهم شخص مخلص أمكن أن
 يخلصونا من الأثينى ، ثم نردهم الى اثيوبيا فوراً ، دون أن يتاح
 لهم أن يدرکوا حقيقة السرى !

وما أن بارح بسامتيك الحجرة ، حتى برز كاهن شاب من
 حاشية الملك ، كان متواريا ، وقال : « أرايت يا أبى اننى أجست
 الاصغاء ، فلم أفلت كلمة مما دار بين الملك والامير ؟ »
 — عد الآن الى القصر ، وأخطرني اذا تبينت أن أحسن يحاول
 أن يعرقل الاعتداء على فينس !



◆ **فى تلك الليلة زار « كروسيس » ومرافقوه (نوكراتيس)**
 وقضوا سهرتهم فى ضيافة « رودوبيس » .. أما ابنه جايجس
 والامراء الثلاثة فقد بقوا فى « سايس » اذ أعجبوا بها .. وراق
 لهم ما كان الملك وزوجته وابنتاه يغمرونهم به من حفاوة واکرام
 .. وكانت نايتيتس بادية اللوعة ، موجفة القلب خشية الفراق
 والغربة .. أما « تاخوت » ، فقد كانت لا تكاد تحول عينها
 الزرقاوين عن « بارتشا » الامير الفاتن ..

وخرج الثيبان يجوسون خلال المدينة ، فأوفد الملك فى رفقتهم أحد ضباطه اليونانيين المقربين ٠٠ واذا بلغوا الشارع المفضى الى معبد « نيبث » ، وجدوا جمعا امام دار أنيقة أغلقت معظم نوافذها ، ورأوا شيخا فى ثوب أبيض - وهو زى خدم العابد - وقد وقف يحاول أن يصد جماعة من زملائه عن أن ينقلوا صندوقا ضخما من السدار ، قائلا : « من أذن لكم بأن تشرقوا متاع مولاي ٠٠ ؟ لقد أقامنى مولاي حارسا على الدار حين أوفد الى ملك فارس ، وأوصانى بأن أحرص على هذا الصندوق بالذات ، اذ فيه وثائق تهجه »

فأجابه أحد الخدم الآخرين : « هدى من روعك يا « حبيب » فان « نيبث » الاكبر ، وهو مولى مولاك ، قد أوفدنا » .
وأزاح الخدم الشيخ العجوز عن طريقهم ٠٠ وضحك « زوبيرس » الفارسى ، اذ أدرك أن صاحب الصندوق هو الطبيب المصرى الشيخ الذى أوفد لعلاج عينى والده الملك الفارسى ، فجلب على نفسه كراهية الحاشية لمسلكه المتزمت اشرفع ٠٠ وود « بارتشما » أن يتدخل ، لولا أن « جايجس » رجاء بأن يتحاشى اقحام نفسه فى توافه كذلك ٠٠ ومن ثم استأنفوا سيرهم ٠٠ وكان الظلام يزحف سريعا ٠٠ وفجأة ، مس غريب يد « جايجس » وهمس فى أذنه بالفارسية : « متى استطيع أن أراك بنجوة عن الرقباء ٠٠ ؟ لا تسلمنى ، فلدى معلومات خطيرة ٠٠ اننى فارسى مثلك » ٠٠

وبعد ربع ساعة ، التقى ابن « كروسس » بالغريب عند باب منزله من القصر الملكى ، وفى صحبته « دارا » ٠٠ وفى لهجة سريعة متهدجة ، انطلق الغريب يقول :

« اننى ادعى بوبارس ٠٠ وكنت ضابطا فى قوات كورش ملك الفرس حين غزا « ساردس » ، بلد « كروسس » ٠٠ وقد ارتكبت هفوة أغضبت كورش على ، فكنت ألقى حتفى لولا أن

شفع لى «كروسس» ، فنزحت الى قبرص ، وتعلمت اليونانية
والعبرية ، وحاربت ضد أحصس ، فأسرني «فينس» ، وعينت
بين العبيد فى حظائر خيل الملك .. وقد آن لى ان ارد الى
«كروسس» صنيعه .. فقد علمت انه الليلة فى ضيافة
«رودوبيس» .. واعرف ان مركبين محشودتين بالاثيوبيين
قد أفلعتا خلسة لحاصرة قصر «رودوبيس» واعتقال ضيوفه ،
بتدبير من الامير سامتيك ..

وجف قلب «جايجس» وهتف : «ما الوقت الذى يستغرقه
الجواد فى قطع المسافة الى نوكراتيس ؟ »
- ثلاث ساعات ، اذا مضيت دون توان ..
- حسنا ، سامتطى جواد بارتشا ، وليأخذ بوبارس فرسك
يا «دارا» .. اما أنت فابق هنا واعتذر للملك عن تخلفى عن
مائدته ومجلسه ، وازعم أننى أصبت بصداغ ..



◆ كانت الاضواء تتألق فى قصر «رودوبيس» ، وقد حفلت
موائدها تكريما لكروسس .. وكان بين المسدعويين فينس
وزميله الاسبرطى اريستوماخس
وفىما كان القوم فى سمرهم الطروب ، انبعث صوت فى
القاعة يقول : «اغفروا لى ايها السادة ازعاجى لكم ..
واغفروا لى ايها الاغريقية النبيلة ان ولجت دارك غير مدعو ..
اننى «جايجس» بن «كروسس» ، وما قطعت المسافة بين
سايس ونوكراتيس فى ساعتين لامر هين ! »
وافضى الى الجمع بما لديه ، فهب الرجال وقوا متحفزين ،
بينما استعطرد يقول : «عندما وصلت ، سهل جوادى ..
وتبدى لى بريق أسلحة بين اشجار الحديقة ! .. ولكم اخشى
ان يكون الاثيوبيون قد وصلوا ! »

.. ارتجفت رودوبيس ، فى حين صاح اريستوماخس
متحمدا .. واذا ذاك قال فينس : «ما ارى الا ان المصريين



جندول (البندلية) الخالد ، يمرق في إحدى فتواتها تحت « جسر
 شهدات » الذي كان يعبره السجونون في عهود الاستبداد قبل أن يصلوا
 « زناياتهم » فيلقون منه آخر نظرة على الدنيا الفارجية .. ويتهلون !



الهمم السليم الذي اقامه الامير الخور - كابوس - في احدى شوارع روما -
وهو لا يبلغ ربع حجم امصر الاهرامات المصرية !

سيقفلوننى فى صباح الغد وأنا أتأهب لمغادرة البلاد ، دون
أن يشعر أحد .. ولو أننى بقيت هنا لما دعوا للبيت حرمة
.. ولست أرى داعيا لاراقة الدماء من أجل ، »

وفجأة صاح تاجر من احدى جزر اليونان : « وجدتها ..
نحى سفينة ستبحر مع مطلع الشمس محملة بالقمح ، من
«كانوبس» لا من «نوكراتيس» .. فليستقل فينس جواد
الفارسى الى هناك ، وستفسح له الطريق لمغادرة الحديقة
الآن .. » وتطوع «جايجس» كى يرافق «فينس» حتى يجتاز
خطر الخطر ، فارتدى كل منهما ثياب الآخر ، ثم خرجا الى
الحديقة ، فامتطى الاثنى حصان الفارسى وهو فى ثيابه ،
بينما وقف «جايجس» - فى الزى الاثنى - يودعه صانعا :
« مع السلامة يا جايجس » .. حتى اذا اختفى الجواد وراكبه
فى جوف الظلام ، سار جايجس الى سفينة فينس واستقلها ..
وما أن ابتعدت عن الشاطئ حتى ارتفعت منها صرخات فى
الظلام ، وسمع ضجيج القتال .. وما لبثت أن غاصت فى
البحر .. وكان بعض المهاجمين فى تلك الاثناء قد أسروا
«جايجس» وحملوه الى سفينة ملكية .. ثم انطلقت بهم
مراكبهم عائدة الى «سايس» !

الفصل السادس

الحب الاول

« كانت «سافو» تلعب فى حديقة جدتها «رودوبيس» مع
حارثا «مليتسا» حين أقبل «بارتشاء» يسأل عن صديقه
«كروسس» وابنه .. فأخذت الفتاة بجمال الشاب الفارسى
وابنته .. وهرعت الجارية توقف مولاتها ، فهمت «سافو»
بأن تلحق بها ، لولا أن اشتبك ثوبها بأشواك بعض شجيرات

الورد ، فبادر «بارتشاء» الى تخليص ثوبها .. ولم تقو «سافوه» على أن تنطق بكلمة شكر ، بل غضت من بصرها مبتسمة في حياء .. ثم تحولت تجري نحو القصر .. واذا بالأمير الجميل ينقض عنه حرج الموقف ، ويلحق بها ، فيمسك بذراعها ، قائلاً :

— كيف أفلتت وقد اقتطفتك من بين الورود ؟ .. ان اسمى بارتشا ..
— بارتشا .. بارتشا .. اتعرف أنني أحب هذا الاسم ؟
— وأنت .. ما أجمل اسمك !

ولم يفلتها حتى فاز بوردة كانت تزين صدرها ، وقدم لها في مقابلها نجمة ماسية كانت هدية يعتز بها كأثر لاييه .. وعندما ولجت «رودوبيس» مخدع حفيدتها في ذلك المساء كعادتها ، لم ترها نائمة في طفولتها الساذجة ، بل كانت شفتها ترتجفان ، والزفرات تنبعث من صدرها آسية .. كما لو كانت في حلم محزن !

أما بارتشا ، فقد عاد الى «سايس» وفي قلبه وقدة الحب الاول .. وهناؤه .. وما لبث أن وصل «كروميس» فيمم لفوره الى أحمس ، وروى له كل ماحدث ، ملتصاً رد حرية ابنه الذي اعتقله الاثيوبيون في سفينة فينس وهو متنكر في زيهِ وما أن انصرف كروميس من حضرة أحمس ، حتى استدعى الملك ابنه ..



❖ استقبال أحمس ابنه بضحك امتزجت فيه السخرية بالغضب ، فصاح الشاب : « لا تجرح شعوري يا أبت .. لولا مبعوث قمبيز ما أنقذت قوة ما ذلك اليوناني من الموت .. لذلك أرجو أن تسأل ملك الفرس أن يعاقب الرجل الذي تدخل في الأمر ! »

- بل ساكتفى بأن أحذره من فينس ، خشية أن يكون
 حدث قد أوغر صدر الاثنى بحيث يحفزّه على الانتقام
 بنوشاية واثارة الفرس ضد مصر !

- افهذا قرارك الاخير ٠٠؟ اذن فلا تخش فينس وحده ،
 بل اخش رجلا آخر فى قبضتنا ٠٠ وانت فى قبضته !
 - اتهددنى يا بسامتيك ٠٠ انصحك بأن تذكر أنك فى
 حرة ملكك وايبك !

- لسوف أمضى فى المعركة بأسلحتى الخاصة ٠٠ انك
 تعرف أن نينخارى - طبيب العيون - فى قبضتى واصدقائى
 الكهنة ٠٠ لقد أبعدته أنت الى فارس قبل أن يخطر لك أن
 قمبيز قد يرغب فى الزواج من ابنتك ، لتقصى عن مصر رجلا
 كان مطلعا على نسب نايتيتس ٠٠ وان أتفه اشارة من الكهنة
 كهبة بأن تدعه يطلع الملك على خدعتك حين أرسلت له ابنة
 سمث المخلوع بدلا من ابنتك ٠٠ ان كل أوراق الطبيب فى
 قبضتى الكهنة ، وبينها خطاب بخط يدك الى أبيه تعده فيه
 جانب حلقة ذهبية ان كتم عن الكهنة أن نايتيتس ابنة رجل
 صواب !

- حسنا ، فما رغباتك ؟

- ان تسأل قمبيز أن يعاقب جايجس ٠٠ وان تطلق لى
 الحربة فى أن أفعل بفينس الهارب ما أراه ٠٠ وان تقسم
 للكهنة بأنك منذ اليوم لن تسمح للاغريق بإقامة معابد لالهتهم
 فى مصر .

- لقد وجدتم السلاح الذى يضطرنى لأن ارتضى رغبات
 أعدائى الذين انضمت أنت لهم ، ولكننى أتمسك بشرطين :
 لن أحصل على الخطاب الذى كتبته لوالد نينخارى ، حتى
 لا يستغله الكهنة لاستعبادى ٠٠ والثانية ، ان لا أسأل قمبيز
 لمرأى سخيافا كعقاب جايجس ٠٠ والآن دعنى ولا ترنى وجهك

الا اذا ارسلت في طلبك .. ودع الكهنة يحلون محل الاب لك .. لقد اعتدت من اجل صون عظمة مصر ان اقدم راضيا على كل تضحية شخصية ، اما الآن وانا ارى الكهنة لا يتورعون عن اتهامي بخيانة وطني ، في سبيل غاياتهم ، فسانظر اليهم كاخاطر اعداء لي .. لقد رضحيت في هذه المرة ، ولكنني اقسم بالالهة « نيبث » انني لن احجم في اية مرة قادمة عن ان اضحي بالكهنة كلهم ولا انزل عن شيء من ارادتي !

وبادر بسامتيك الى كبير الكهنة فافضى له بما قال ابوه ، ثم اسرع الى قصره ، واذا به يجد ان ابيه قد ارسل في طلب ابنه الصغير - حفيد الاب - ومربيته .. والفى رسالة ملكية كتب فيها احمس لولي عهده : « ارسلت استدعى ابنك حتى لا يصبح - مثلك - اذا كبر اداة عمياء في ايدي السكينة وسأشرف على تعليمه بنفسى .. ولا مانع لدى من ان تراه على ان تستاذننى في كل مرة »



♦ وعندما أعلن الملك أن نايتيتس ستستكمل استعدادها للرحيل في خلال أسبوعين ، شعر شبان البعثة الفارسية بأسى لقرب فراق مصر . وكان « بارتشاش » أكثرهم حزنا ، اذ كان قد تدله في هوى « سافو » .. ولم يشعر أحد بما طرأ عليه من تغيير سوى « تاخوت » ، التي كان حب الامير الفارسي اللغتن قد تملكها ، حتى اضطرت الى أن تفتاح أختها ، فشجعته نايتيتس ليتاح لهما أن تعيشا معا .. ولكن « بارتشاش » اذ أحس بعاطفة الاميرة الفتاة ، راح يتجنبها ويبدى لها القنورا .. مما عذب المسكينة فقااست منه الامرين .

وكم كان الفراق قاسيا على قلبى « بارتشاش » و « سافو » .. ولم تخف على « رودوبيس » - وهي المرأة التي عرفت الحياة - جال حفيدتها بعد الوداع ، فما زالت بها في مساء ذلك اليوم

حتى اعترفت لها بهواها .. وحز في قلب الغانية العجوز أن تقع الفتاة فيما حاولت أن تجنبها عذابه .. وحاولت أن تزعزع قبضة الحب في قلبها ، فلما استبانت أن تلك القبضة أثبت من كل محاولاتها ، لجأت الى «كروسس» تستشير .. وفيما هما يتحدثان ، أقبل «بارثشا» يصارح «رودوبيس» بحبه لحفيدتها ، ويرجوها أن لا ترفضه زوجها لها ..

وامسك كروسس بيده في حنان أبوي وقال له : « ألم أحذرك من الحب مرارا ؟ .. انه نار تحرق ! »

— بل ان لهبه يضيء الحياة ..

— انه يبعث الألم ..

— ولكنه ألم حلو .. يقوى القلب ..

وجاءت «سافو» ، فنهض اليها الشيخ وقبل جبينها .. ثم احاب بها أن تقترب من بارثشا وأن تمسك بيده .. ووقف الشابان يتأملان وجه «رودوبيس» في ضراعة .. وكانت تبسم والدموع تغمر وجهها .. وهي تبارك جبهما :

الفصل السابع

في بابل

♦ بعد سبعة أسابيع ، شوهد رتل من المركبات على الطريق المفضى من الغرب الى بابل . وكانت نايتيتس تغوص بين وسائل مركبة أنيقة ذات أربع عجلات ، تتبعها خمسون مركبة ، ويحف بها الامراء الفارسيون وملك ليديا المخلوع وابنه على جيادهم ، ترافقهم كوكبة من الفرسان .. واذا بلغت مركبة « نايتيتس » آخر محطة للاستراحة قبل بلوغ المدينة ، تقدم « كروسس » يساعد الاميرة الشابة على الهبوط الى الارض ، ويسألها أن تستبدل بثيابها زى ملكات فارس ، ويشجعها على التأهب للقاء الملك ..

وكانما لم يقو قمبيز على الانتظار ، فقبل أن يبلغ الركب « بابل » ببضعة أميال ، أقبل الملك بوجهه الشاحب تحيط به لحية سوداء كثة ، وتجلي على ملامحه أسارير القوة والعظمة والكبرياء . وكانت عيناها أكثر سوادا من شعره ولحيته ، تندلع منهما نظرات كأنها لهب حامية .. ولم تقو نايتيتس على أن تحول عينيها عنه .. قط لم تر رجلا تتجلي كل معالم الرجولة على وجهه مثله ! .. وخيل اليها كأنما الدنيا بأسرها - وهي بالذات - خلقت لخدمته .. واحست برهبة وخشوع وضعف ، فتمنت لو تعلقت به ولاذت بحماه .. وراحت الحمرة المفرجة، والشحوب المتفجع ، يتناوبان وجهها، ونظراته الثاقبة مسلطة عليها .. ثم ففز عن جواده ولوح يديه مرحبا ، وهتف وهو يصفاح كروسس ويسأله أن يقوم بدور المترجم : « انها لجميلة ، وانها لتروق لقلبي .. »

وأدركت نايتيتس ما كان يعنى ، فبادرت قائلة فى فارسية ركيكة استمدتها مما كان يلقنها كروسس خلال الرحلة: « لكم اشكر الالهة اذ جعلتنى أحظى برضاك » .. وهزت الكلمات زهوه فابتسم .. وبدأ له حرصها على الفوز برضاء غريبها ، وهو الذى اعتاد من زوجاته الاخريات البلالدة ، والجهل ، والانصراف الى الدس والمكائد .. ومع ان نايتيتس أجفلت إذ سمعته يتحدث عن « تطهير روحها » بتعليمها طقوس عبادة الشمس لتعتنق دينه ، الا انه لم ينتبه الى ما اعترأها، وقال لها : « سترشدك أمى كاساندانى الى واجباتك كزوجة لى ، وسأقدمك لها بنفسى غدا .. وأحب أن يكون اتصالك بالخصى (الطواشى) «بوجس» الذى نصبته على شئون الحريم .. »

وبادرت نايتيتس قائلة : « قد يكون مشرفا على الحريم ، ولكنى لا أرى أنه ينبغى أن تكون لخلق سواك اميرة على

تزوجك .. اننى رهن اقله اشارة منك ، ولكننى اميرة من
 هذا تبيع لاضعف امرأة ان تشارك اقوى الرجال حقوقه .. وان
 هيريا ، التى تشع من عينيك لتعلا صدرى .. ويسعدنى ان
 نضحك ، فانت عظيم ، وانت زوجى وصاحب السلطان على ،
 ولكن من المستحيل ان انصاع لمخلوق ناقص الرجولة .. عبد
 حترى بالمال ! »

ودعش قمبيز لروحها ، وازداد رضاء عنها ، فوعدها بان
 خصص لها مقرا غير الحريم ، لا يكون الامر فيه لسواه ..
 يستأجرها عما اذا كان ميعوثوه قد ارضوها ، فهتفت :

— منذ الذى يعرف كروسس النبيل ولا يحبه؟ ومن يملك
 نفسه من الاعجاب بخلال اصدقائك الابطال ، لا سيما
 بارتشاه ، اخوك الجميل الذى ملك كل القلوب ، والذى
 اكتسب اعجاب المصريين على نفورهم وتوجسهم من الاجانب!
 وتجههم وجه الملك فجأة ، فلكز جواده فى قسوة جعلته يقفز
 فيسبق الركب الى بابل .. وكانت الحشود مجتمعمة خلف
 ابواب المدينة ، فقابلت الملك وعربة عروسه بصيحات فرحة
 اقبلت الى هتاف بلغ عنان السماء حين بدا بارتشاه ، فتم
 عن مدى محبة الناس للامير الشاب الجميل !

وبلغ الركب قلعة الملك ، ثم تقلعت عربة العروس الى قصر
 اصغر ، يشرف على الفرات .. واصطف عليه القوم والامراء
 حول قمبيز ريشما تهبط نايتيش .. وفجساء ، اخترقت
 الصفوف فتاة اقلت بنفسها بين ذراعى بارتشاه وهى تبكي
 وتضحك وتقبله .. وهتف قمبيز مبتسما : « استرحبى
 يا آنوسا ! .. انك لم تعودى طفلة ، وخليق باميرة مثلك ألا
 تنسى الحشمة ولو كانت مشوقة الى أخيها .. والان عودى الى
 امك ، وانبشها باننى قادم لفورى مع بارتشاه »

وغامت على وجه الملك سحابة وهو يقول لبارتشاه بعد
 انصراف اختها : « تعال الى امنا ، فقد سالتنى ان اتودك

اليها بمجرد وصولك .. كل النساء لا يرتاح لهن بال حتى
يرفك .. ولقد أنباتنى نايتيتس أن شعرك الذهبى وخديك
المتوردين فتنت نساء مصر ! »

— أو تعنى أن ليس لى من فضائل سوى جمالى ؟ .. سأسألك
أن تتيح لى الفرصة لأثبت اننى لا أقل رجولة عن أى فارسى !
— هيا .. اننا على وشك الحرب مع « المساجيتيه »
اليونانيين الذين أردوا والدنا .. فهناك فرصة ..

وان هى الا دقائق حتى كان بارتشا بين أحضان أمه
العمياء ، تضمه فى لهفة وشوق ، وتحنس شعره ووجهه ..
وتدله بأعقب الكلمات .. وكان مثل هذا المنظر يبعث فى قلب
قميز ألما خفيا موجعا . كان — بوصفه الابن الأكبر لأبويه
ووارث الملك — قد درب على الخشونة من حياته .. ثم أن
الشعب كان يرهبه وهو « قميز الجبار » فيخشع له .. أما
بارتشا فكان « محبوبا » دون مارهبه، سيما وأنه كان شديد الشبه
بأبيه كورش .. وما كان قميز ليكره بارتشا ، وإنما كان
يسوؤه أن لا يمتاز الشاب ببطولة وأعمال تبرر حب الناس
له .. لكنه فى هذه المناسبة ، وبعد ما سمعه من أطراء
نايتيتس لبارتشا ، استشعر غيرة أكربت نفسه .. فلما
انصرفا من الحريم قال لبارتشا : « لقد سألتنى فرصة تتيح
لك أن تثبت رجولتك .. ان عشائر « نابورى » قد أعلنت
التمرد ، فأوفدت جيشا الى حدودها .. فالحق به وتول
القيادة ! »

ورحب الشاب بالفرصة ، والتمس من أخيه أن يسمح
لاصدقائه دارا وجايجس وزوبيرس بأن يصحبوه ، فلما
أجاب قميز سؤله ، عاد يقول : « هل تحقق لى أمنية فى
نفسى ، ان قدرت لى الآلهة أن أعود مظفرا ؟ »

وثومت عيناها إذ أكد له الملك رجاءه - فقد كان يفكر في « صافو » ! - لكنه انتبه فجأة على صوت قمبيز يقول : - لقد بلغت العشرين وخليق بك أن تتزوج .. ويقال إن « ريگسانه » ، ابنة النبيل « هيدرانس » بأرعة الجمال ، صعدت عن نبل مجتدها .. وعن أنها أخت « دارا » أعز أصدقائك !

وبدول بارتشا أن يصعد أخاه عن التفكير في زواجه ، ثم تحزن يتوسل ويلحف أن يعفيه من العروس التي يريد أن يتزوجها أباه .. ثم انتهى قائلا : « والآن ، وداعا ، فسأرحل بحرب منذ الغد .. هل تسمح لي بأن أودع نايتيتس بعد ذلك أودع أمي وأختي ؟ »

وعض قمبيز شفته ، وراح يتفرس في أخيه بنظرة ثاقبة ، وجد أوحى إليه خياله أن يربط بين الحاف أخيه في أرجاء التفكير في زواجه ، وبين الفيرة التي ثارت في فؤاده هو حين أطرت نايتيتس بارتشا ! .. وهجس الريب في نفسه عن أخاه أحب عروسه الجديدة .. ففر عزمه على أن يرسله إلى مكان لا ترتقب له منه عودة .. إذا هو اعترض طريقه !

وفي تلك الليلة ، أمر قمبيز الخصى « بوجس » بأن يفرد المصرية الجناح الذي كانت تشغله ثانية زوجات أبيه كورس ، من انصر المقام بالحدائق المعلقة ، وأن يعاملها باحترام ، ولا يحرض عليها شيئا من أوامره ، ثم قال له : « واحرص على أن يقابلها أحد - ولا كروسس - حتى أصعد إليك أوامر أخرى ! »

- لقد كان كروسس معها اليوم ، وكانا يتحدثان باليونانية ، مع أنهم من حديثهما سوى اسم بارتشا وقد تردد مزارا .. وكانت المصرية بادية الحزن ، ولعلها تلقت أنباء سيئة .. فولاه الملك ظهره وهو يسبه صاحبا ..

ال حتى
وخديك

سأسألك
بارسى
جيتيه

بان أمه
جهه ..
في قلب
لأبويه

ثم إن
أما ..

الشبه
ما كان
ناس
سراء

لما
تتبع
أعلنت
وتول

مع
أ
ة في

الفصل الثامن

غيرة ... وتآمر !

◆ قضى الملك ليله مسهدا ، لفسرط الغيرة التى زادت من رغبته فى أن يحظى بالمروس المصرية - اذ كانت التقاليد الفارسية تقتضى مرور عام قبل أن تغدو زوجه الشرعية ! - ولكنه ما لبث أن عقد العزم على أن يخفض المدة الى شهور أربعة .. وأن يغير القانون والتقاليد ، بما له من سلطان .. وأحس بسأم واشمزاز نحو زوجاته الاخريات .. حتى « فيديمه » ، ابنة خالته وأكثر زوجاته حظوة لديه قبل أن يرى نايتيتس التى بدت له أنبل وأرفع من كل النساء طرا ! .. لقد استهوت قلبه فقرر أن يبوئها من نفسه ما كان لأمه لدى أبيه من مكانة ، فتكون ملكته الحقيقية وصاحبة الشورى لديه ! وبدورها قضت نايتيتس هى الاخرى ليلة كثيبة .. وتولاها الحنين الى وطنها ، والى أختها المسكينة « تاخوت » .. كما فكرت فى « بارتشا » الذى أنبأها كروسس بأنه ذاهب الى القتال .. ومن يدري ؟

وواتاها النعاس أخيرا .. فرأت فى المنام « قمييز » على صهوة جواده الاسود .. وأجفل الجواد اذ رأى جثة بارتشا تعترض طريقه ، فالتقى براكبه على الارض وجره الى النيل الذى فاض بسيل من الدم القانى ! .. وصرخت الفتاة فإذا الاحرامات تردد صرختها .. ثم استيقظت مفزوعة فجرت الى النافذة ، واذا الحدائق الفناء تستلقى وادعة فى أحضان القمر .. وفجأة ، لمحت شبحين يتسللان من المبنى الذى خصص لها .. وعرفت فى أحدهما الخصى « بوجس » .. أما الآخر فكان لامرأة فارسية جميلة ، كانت تسائله ملهوفة :

- احقا ان في وجود هذه الغريبة خطرا على مكانتي ؟
 - اجل .. انها لا تتلقى منى اوامر ، بل تتلقاها من الملك
 راسا .. لسوف تحتاجين الى معونتي يا عصفورتي .. وعندما
 يرحل كروسس البغيض ، سندبر لها شركا !

وارتدت نايتيتس عن النافذة في شمم صامت وقد بدأت
 تعرف أعداءها .. وداخلها فرح اذ أدركت مكانتها لدى قمبيز ،
 فتولاهما يقين غريب بأنها ولا بد منتصرة على كل من يريد بها
 سرا ..

وزاد من غبطة نايتيتس أنها وجدت من الاصدقاء من يعوضها
 عن الاعداء .. فلقد وقعت من نفس كسانداني ، أم الملك
 العمياء ، أحسن موقع .. كما أحببتها أخته « أتوسا » ..

وعهد الملك الى كروسس بأن يشرف على تلقين عروسه
 العادات والدين واللغة الفارسية .. وقبلت الفتاة على مضض
 ان تتعلم الدين الجديد ، حين أقنعها كروسس قائلا : « اذكرى
 دائما ان لا الالهة المصرية ولا الفارسية ولا اليونانية تحكم
 العالم ، وانما تحكمه قوة واحدة ، لا تتجزأ ، هي التي توجه
 مصائر الامم والمخلوقات ، وان كنا ندعوها بأسماء مختلفة ،
 ونصورها في اشكال متباينة .. »



• واصبحت « كسانداني » بمثابة الام و « أتوسا » بمثابة
 الاخت لنايتيتس .. كما كان الملك يزاد كل يوم بها اعجابا ،
 ولها تقديرا .. ورويدا ، تحولت رهبة نايتيتس من الملك الى
 حب أخذ ينمو ، حتى غدا مشبوبا ..

وذوي نفوذ الخصى « بوجس » ، اذ لم يعد الملك يتردد على
 « الحريم » - مملكة العبد - وكان حريا بالعبد أن يجسد في
 « فيديمه » - الزوجة الاثيرة المهجورة - حليفا ، فراحا يتآمران
 سرا ضد غريمتهما المشتركة نايتيتس !

وقدر لبارتشا أن ينتصر ، وأن يعود مظفرا ، فتلقته الجماهير في حفاوة رائعة .. كما تلقاء قميبيز في ابتهاج ، وصحبه الى أمهما كسانداني لدى وصوله ، وكانت نايتيتس في حضرتها - فقد اطمأن الملك الى حب الفتاة له ، وشاء أن يظهر لبارتشا أنه يثق فيه ، سيما وأن الحب مسح باللطف على خشونته ، وبث الرحمة في فؤاده ..

وحان عيد ميلاد قميبيز ، فاذا بابل تزخر بالامراء والنبلاء ، وقادة العشائر وحكام الولايات والمستعمرات ، وقد جاءوا بالهدايا والقرايين .. وكان هذا العيد خير فرصة كي يصارح بارتشا أخاه بالامنية التي سمأله أن يحققها له لو عاد مظفرا .. فسعى الى أمه أولا يكشف لها عن قلبه .. وكان كروسس قد مهد له الطريق لدى أمه ، التي لم يكن يكدرها سوى أن قميبيز لم ينجب أولادا ، وإن أى ابن ينجبه بارتشا من زوجة اغريقية لا يمكن أن يلي العرش !

وفي تلك الاثناء ، قدر للسعادة التي بدأت تسيطر على نايتيتس أن تتبدد حين تلقت من « أمها » المزعومة « لاديس » - زوجة « أحمس » - خطابا طار قلبها شعاعا لما حواء من أبناء : فلقد خبا ضوء عيني أحمس في نفس اليوم الذي وصلت فيه الى بابل ، كما أن تاخوت أصيبت بمرض قاس ، واشتد بها الهزال حتى أشرفت على الهلاك ، من جراء حبها لبارتشا وما يملكها من ياس .. وهكذا سيطرت سحب النحس على بيت أحمس ، وأصبح بسامتيك يدير شئون الدولة نيابة عنه ، بمعونة نيبوتوب كبير الكهنة !

وأحزنت هذه الانباء « نايتيتس » فظلت تبكي حتى خارت قواها ودمعها النعاس .. ولم تستيقظ في الموعد المعتاد من الصباح . وأشفقت عليها وصيفتها «مانداني» فلم تشأ أن توقظها ، وهبطت الى الحديقة في انتظار يقظتها .. وإذا بهـ

تفتنى بالخصى « بوجس » وقد أقبل يحمل إليها نيا سارا : فلقد كانت « مانداني » تهوى « جاوماتا » شقيق الكاهن الأكبر « خيزوبستس » ، فلما كشف الكاهن الأمر رأى فيه خطرا يهدد بدمعه ، إذ كان يرجو أن يزوج أخاه من إحدى بنات الأسرة الثكنة ، كى يرقى على أكتاف هذا الزواج الى حكم البلاد فى خيرات غياب قمبيز فى الحروب ، لذلك أقضى أخاه بعيدا ، وصلى حتى الحق « مانداني » بالخدمة فى القصر الملكى حتى يسب غرامهما ٠٠ لكن « بوجس » فاجأ الفتاة فى ذلك اليوم بانه يحمل لها رجاء من حبيبها - الذى كان فى جمال بارتشا ، بل كن شديد الشبه به - كى تلقاه فى الحدائق المعلقة فى طيبة التالية ٠٠ ووعداها بأن يقضى الحراس حتى يخلو لهما الحو لمقاء !

وإذ فارقها ، يعم شطر كبير البستانيين فآخضروه بأنه سيحضر بحى النبلاء ليرىهم بعض الزهور النادرة التى كان البستاني يرمو باستنباتها ٠٠ ثم ذهب الى « الحرير » ليأمر زوجات نعت بأن يتخذن أبهى زينة ٠٠ ولكنه أصر على أن تبدو « فديمه » فى أبسط المظاهر ، لينير بذلك أهلها وأقاربها فى مأدبة أعياد التى أقامها قمبيز بمناسبة عيده ٠٠ واما « مانداني » فمرها بأن تنحنى فى خضوع أمام المصرية حين تلتقى بها فى مأدبة ٠٠ حتى يوغر صدور أهلها ضد غريمتها !

الفصل التاسع

الكأس المسمومة

♦ كانت نايتيتس وآتوسا نجمى المأدبة اللامعين ٠٠ وصح م توفعه الخصى الخبيث ، فان جميع أبناء عشيرة « أخيمنديه » - التى كانت « فديمه » تنتمى إليها - ساءهم ما تبدى على هذه من ذلة وصغار !

واذ فرغ الجميع من الطعام ، وشربوا نخب الملك ، التفت هذا الى أخيه بارتشا يسأله عن الأمنية التي سأله أن يحققها اذا عاد مظفرا من الحرب .. وصارحه الشاب بحبه لسافو ورغبته في الزواج منها .. وابتهج قمبيز اذ تبين أن شكوكه في أخيه كانت خاطئة ، فوعده بأن يوفده بعد أيام ليحضر عروسه .. وما أن سمعت « نايتيتس » ذلك ، حتى تذكرت أختها وتماسستها ، فأغشى عليها !

وقفز قمبيز وقد شحب وجهه حتى صار كوجوه الموتى .. واذا افافت نايتيتس ، تطلعت الى وجه قمبيز في اعتذار وتوسل ، ولكن مخاوف الجبار كانت قد تاججت ، فصاح في الخلم أن يعودوا بالنساء الى « الحريم » .. وقال لنايتيتس وهي تنصرف : « طيبي نوما أيتها المصرية ، ولى الآلهة أن تهبك الفسوة كى تسيطرى على عواطفك .. الى بنبيد .. بل ذوقوه أولا ، فأنى لأول مرة أخاف السم .. أسمعنين يا مصرية ..؟ أجل ، فكل السموم ، وكل الترياق ، تأتى من مصر ! »

وصدرت الاوامر الى « بوجس » بأن لا يسمح لأحد - ولو كان أم الملك أو أخته أو كروسس - بدخول الحدائق المعلقة حيث قصر نايتيتس .. بينما تابع قمبيز الشراب ، وهو يفكر فى عقاب للمرأة التى خالها تخدعه !

وفيما هو منصرف ، رأى « بوجس » فى نزاع مع صبرى كان يحمل رسالة زعم أن نايتيتس أمرته بأن لا يسلمها لغير الامير بارتشا .. وركع الصبرى اذ رأى الملك ، فانتزع هذا منه الرسالة ، ثم دق الارض بقدمه غاضبا اذ ألفاها كتبت باليونانية التى لا يعرفها .. وأمر الخصى بأن يشدد الرقابة على المصرية وأنذره بأنه سيقضى عليه لو أن انسانا أو رسالة نفذت اليها فمئذ اللحظة غدا مسئولوا عن الحدائق المعلقة كلها !

وزعم بوجس أنه محموم ، ثم التمس من الملك أن يعين رئيس « الطواشى » بدلا منه ، ولو ليوم واحد يتمالك فيه صحته

فقبل الملك أن يتولى « كانداولس » - زعيم الخصيان - الحراسة في القد . . . واذ ذاك قال « بوجس » انه كان قد وعد خمسة من النبلاء - بينهم كروسس - بأن يرهم الزهور النادرة التي ستنبعث في الحدائق أخيرا ، فسمح الملك بأن يتولى « كانداولس » عنه مهمة مرافقتهم ، على أن يعلم أن حياته ستضيع لو أن أحدا منهم اتصل بالمصرية !



✱ وانتهى الصيد والقنص ، فدعا بارتشا أصدقاءه : « دارا » و « زوبيرس » و « جايجس » الى كأس للوداع قبل رحيله الى مصر . . . وفيما هم منتشون بأحاديث الهوى والمخاطرات ، اذا « كروسس » يفد مضطربا ، فيهتف ببارتشا : « أو ما زلت هنا ؟ » يادر الى الفرار . . . ألا تعرف طباع قمييز الهوجاء ، وتغيرته منك ؟ فكيف سولت لك نفسك أن تزور ليلة أمس زوجته المصرية ؟

- أزورها ؟ . . . اننى لم ابرح هذا البستان !
 - لا تلجأ الى الكذب ، ولذ بالفرار . . .
 - لست اكذب ، ولن افر !
 - انك غر مفتون . . . لقد وايناك باعيننا قبل ساعة في الحدائق المعلقة ؟

وأقسم الشاب في حرارة جعلت الشيخ يصدقه . . . وقبل أن يجد للأمر تفسيراً ، أقبلت ثلة من الجنود بقيادة ضابط كان تحت إمرة بارتشا في الحرب ، فأنباء بأنه مكلف بأن يلقي القبض عليه وعلى كل من معه ، ولكنه يدع لهم فرصة الفرار ، ولو دفع حياته تمنا لذلك . . . وأبى بارتشا . . . فلفس كان يريثا ، وكان يعرف نزع أخيه في ساعة الغضب ، ولكنه كان يوقن من عدائته اذا ما هدأت سوريته . . . ولم يكن أصدقاؤه أقل شجاعة منه ، فأبوا أن ينفضوا عنه ، رغم ما كان يتهددهم من خطر !

الفصل العاشر

حكم بالاعدام

♦ لم تنقض ساعتان حتى مثل بارتشا وأصدقائه أمام الملك، الذي كان قد تغلب على الغضب الجامح الذي تملكه حين أفضى إليه « بوجس » بأنه ذهب - رغم مرضه - ليتفقد الحقائق ، فلمح بارتشا الى جوار نافذة نايتيتس ، وما لبثت هذه أن أشرفت من مخدعها .. وكان كروسس وبعض النبلاء يشاهدون الزهور النادرة ، فتأدى الشيخ على بارتشا ولكن هذا لاذ بالفرار بين الاشجار .. ولم يملك النبلاء أن يكذبوا رواية الخصى ، وان كان كروسس قد قرر أنه ربما خدع بشخص شديد الشبه .. فشحب وجه « بوجس » لسماعه هذه الكلمات ..

على أن أصدقاء بارتشا أكدوا أنه لم يبرحهم طيلة الامسية ، وانهم جميعا كانوا في القنص .. وراح قميبيز يتأمل الوجوه بنظرات ناقبة محاولا أن يستشف الحقائق ، ولكنه لم ير ما يفسر هذا التناقض الغريب .. بينما هتف بارتشا :

- ما كان لابن من صلب كورش أن يكذب .. ولو أن كل شعب فارس هب يتهمك بأنك ارتكبت سوءا ، وقلت لي انك لم تفعل ، دون ما قسم ، لصحت في فارس بأسرها أكنب شعبها لأن ابن كورش لا يقدم على الكذب .. أقسم لك اننى برى ، ولم ألق الحقائق المتعلقة مذعدت من ميدان القتال !

اذ ذاك لانت قسما وجه قميبيز ، وبسط يده لآخيه .. وفي تلك اللحظة اقبل خادم فقدم للملك خنجرا وجد تحت نافذة نايتيتس .. وتأمل قميبيز الخنجر ، ثم امتقع وجهه .. وما لبث أن التفت الى أخيه فى غضب وصاح : « هذا خنجرك ايها الكاذب .. اقبضوا عليه واكلوه بالاعلال .. ستعلم واصدقاؤك

الحقايه غدا .. وستضرب المصري بالسياط في الظهيرة على
حراي من الملا في الطرقات ..
ثم تولته نوبة الصرع ..

وكانما كان القدر مصرا على أن يورد المساكين أبشع مصير ،
 قد عرض قمبيز الخطاب الذي كتبته نايتيتس باليونانية على
 كروسس ، وأمره بأن يقرأ عليه .. فإذا به يتضمن هذه
 العبارة : « لدى أمر هام أريد أن أفاتحك به ، ولا يمكن أن أفضي
 به لخلق سواك .. أرجو أن أراك غدا في جناح أمك .. » في
 حديث مواساة قلب محبوب حزين ، وادخال الفرحة عليه قبل
 حرقه .. وحاول كروسس أن يشفع لكاتبة الخطاب لدى
 الملك ، فإذا به في سورة الغضب يأمر بأن يكون مصيره مصير
 الآخرين !



• موت بنايتيتس ساعات حافلة بالشقاء ، فقد باتت سجينه
 في مخدعها ، تحت حراسة « بوجس » الذي أنبأها في شماته
 سخرة بأن خطابها وقع في يدي الملك !
 وراحت المسكينه في غيبوبة من الأسى .. واشتد بها
 القنوط حين أقبل بوجس مع عبيدين آخرين فكبلا يديها
 وساقها بالأغلال ! .. وفي لوعة الجزع قرأها على أن تتناول
 سما يقضي عليها قبل أن تتعرض لمهانة الاعداء .. وشرعت
 تحورها تكتب خطابا لقمبيز ، على الرغم من أصفادها ، وقد
 دبرت الأمر بحيث لا يتسلم الملك الخطاب حتى تكون هي قد
 تحطت أنفاسها .. وفعلًا كتبت تقول : « أؤكد لملوأي أنني أحبه
 أكثر من حبى للالهة ولحيساني .. فلتحسن « كسانداني »
 و « أتوسا » بى الفطن ، إذ أن خطاب أمى كفيل بأن يثبت براءتى
 ويؤكد أنني ما رغبت فى رؤية بارتشيسا الا من أجل أختى
 أبائسة .. أنني ارتكبت جريمة قتل نفسى ، لاحول بينك
 بقمبيز وبين عمل ظالم تلاحقك جريرته ! »

وعهدت بخطابها وخطاب أمها - زوجة أحبس - الى وصيفتها
مائداني كى تسلمهما الى قمبيز بعد أن تلفظ أنفاسها .. ثم
ركعت واستغرقت في صلاة حارة لآلهتها الأصليين .. آلهة
الفراخنة .. وحين فرغت منها أطلت على الكون ، فإذا الفجر
ينبثق .. وظلت سارحة الطرف ، شاردة الذهن ، ثم أحست
بالخور والوهن يغلبانها ، وتهاكت على أريكة قريبة .. فغشيها
النعاس ، ولما تمس السمع !

ووقفت مائداني ترقبها وقد اخذ ضميرها يستيقظ .. وخفق
قلبها اسى للشابة المظلومة ، المهضمة الجناح .. وانتهى بها
التفكير الى أن اعتزمت الاعتراف بأن حبيبها - الذى كان شديد
الشبه ببارثشا - هو الذى كان فى الحقائق المعلقة فى الليلة
السائلة !

كذلك قضى « بوجس » ليلة مسهدة ، وقد طردت نشوة
الظفر كل أثر للنعاس عن جفنيه .. أما « فيدييه » - زوجة
قمبيز المهجورة - فقد أرقنتها لهفة الى معرفة ما دبره حليفها
الخصى ، الذى بادر الى مخدعها فى ساعات الصباح الباكرة
يداعبها مزهوا ، ويصف فى شماعة موكب العار .. عار المصرية
اذ توضع على ظهر حمار يطوف بها فى الطرقات حتى ينتهى الى
ساحة الأعدام !

ومضى يروى لها خطته التى نفذها : كان قد فطن الى غيرة
قمبيز على عروسه من أخيه ، فعول على أن يستغلها .. وكانما
شاء القدر أن يساعده فأرسل اليه « جـواماتا » - شقيق
الكاهن الأكبر - اذ وفد على بابل مع الوافدين فى عيد الملك ،
فراعه ما كان بينه وبين بارتشا من شبه .. واذا ذاك وائته
الخطئة ، فقد منى هذا بأن يجمع بينه وبين « مائداني » ،
العجيبة التى حرم منها .. وأخفاء فى داره زيادة فى الحيلة ،
وقد اعتزم أن يذهب به الى الحقائق المعلقة - من مدخل سرى -

فى نفس الموعد الذى دعا فيه كروسس والنبلاء كى يشاهدوا
الزهور النادرة ، ثم يعتمد أن يرسله الى نافذة مخدع نايتيتس
كثناء وجود النبلاء على مقربة من المكان ، فاذا خرجت اليه
وصيفتها « ماندانى » خيل اليهم انهم يشاهدون لقاء بين
نايتيتس وبارتشا ٠٠١ ومرة أخرى ، بدا القدر فى عونه ،
فقط على نايتيتس بأن تقع مغشياً عليها فى المأذبة حين تحدث
بارتشا عن زواجه من « سافو » ٠٠ وبأن يظفر الملك بالرسالة
التي كتبها للامير الشاب كى يستجيب لغرام اختها المتاعاة
باخوت ١

الفصل الحادى عشر

شاهد جديد

♦ لم تكن قد بقيت سوى سويغات فلائل على مسوكب
العار ، فزحزت طرقات بابل بالناس ٠٠ وفجأة ، وفدت على
باب « بعل » مركبة أنيقة جلس بداخلها رجل ملبس فى
الخمسين من عمره فى ثياب رجال البلاط ٠ وصاح الجوزى
فى الجنود الواقفين لدى الباب : « افسحوا الطريق والا ندمتم
على أى تأخر يضطر اليه مولاي ١ »
وما ان بلغت المركبة قصر الملك حتى هبط الراكب ، فاذا
به يونانى أقبل يرجو لقاء الملك ، زاعماً أنه أوتى ما يبرىء
ساحة الموشكين على الموت ١
وصاح قمبيز : « دعوه يأتى ٠٠ ولكن ، ليذكر انه سيدفع
رأسه ثمنا ان كان يبغى خداعى ١ »
واخذ قمبيز بمظهر الاغريق ومسلكه ، فتلاشى توجسه
٠٠ ثم ذهب عنه الريبة حين تبين ان الرجل لم يكن سوى
« فينس » الذى ذاع صيته كقائد للجنود الاغريق فى خدمة
فرعون مصر ٠٠ وحين علم انه جاء يعرض عليه خدماته ١

ومضى الرجل قائلاً في فارسيّة ركيكة : « صحيح ان ثمة أمرا آخر جئت الى فارس من أجله ، ولكننى أرجئه الى وقت آخر .. أما اليوم .. »

ولم يشأ الملك أن ينصت ، فقد كان متعجلاً يريد الخروج للقنص ، إذ كانت هذه عادته إذا أراد أن يسرى غضبه .. بيد أن «فينس» استطاع أخيراً أن يقنعه بالاستماع الى قصته : ففيما كانت مركبته تقترب من بابل ، قبيل منتصف الليلة السالفة ، سمع صرخات مرتاعة ، قانطة ، وتبين ثلاثة أشقياء شرسي المظهر ، يجرون شاباً الى النهر .. وجرّت الدماء فى عروقه ، فتصدى لهم ونازلهم ، واستطاع أن يقتل أحدهم .. واذا ذاك فر زميلاه .. وانحنى «فينس» على الشاب الذى كاد يذهب ضحية ، وشد ما كانت دهشته إذ وجد أنه لم يكن سوى « بارتشا » الذى كان قد تعرف الىه فى بلاط فرعون .. وحمله الى أقرب محطة فى الطريق ، فضمّد جراحه ، وعنى به حتى أفاق من غشيته .. وكم كان عجب «فينس» إذ علم منه أنه لم يكن بارتشا ، وإنما .. أخ كبير الكهنة .. ومضى «فينس» قائلاً :

— وعادته الحمى من جديد .. وبدأ من هذيانه أن الحقائق المعلقة كانت تشغل باله .. وأنه نجا من خطر شديد .. وأنه التقى فى الحقائق بامرأة تدعى «مانداني» .. وهتف قهقرياً : «مانداني .. ان وصيفة ابنة أحسن تحمل هذا الاسم !»

وأخذ الاغريقى الى التفكير لحظة ، ثم قال : « أطلق مسجونيك يا مليكي ، فانى أضع راسى ضماماً لأن بارتشا لم يكن فى الحقائق المعلقة ! »

وكان الملك يصغى فى دهشة .. لم تسوّه جرأة الاثينى ، بل أطال التفرس فى وجهه ، فإذا به يزداد اطمئناناً الى ضمامه

وصراخه ونبله .. وابتنس « فينس » أخيرا ، وسأله أن يسمح له بأن يسأل رجال بلاطه عن بعض معلومات تساعد على اظهار الحقيقة .. وفيما كان يفعل ذلك ، استدعى الملك قائد حرسه وسأله عما يفعل المسجونون ، فأجابته : « النصر للملك ! » انهم ينظرون الموت في هدوء ، فليس أحل من الموت في سبيل رصتك .. ولولا خوفا من نقمة مولاي ، لقلت انك لو سمعت بنبادلون من حديث لما تماكنت أن تؤمن ببراءتهم ! »

والتمس « فينس » من الملك أن يستدعي كبير الكهنة « مانداني » ، ثم تولى بنفسه سؤالهما : فأقر الاول بأن له أخا يشبه بارتشا ، وأنه كان قد أقصاه ليسلو هوى « مانداني » .. وعرفت هذه باللقاء الذي جرى في الحداثق المعلقة على يدي « بوجس » .. ثم انطلقت في حرارة تروي ما كان يبدو من مولائها من حب للقمبيز ، حتى انها لتردد اسمه لنفسها في يومها ويقتلها !

وأرسل الملك يدعو « بوجس » ، فاذا الخدم لا يعثرون له على أثر ! وغضب الملك فأمر بأن يساق اليه في الصباح التالي ، كيما كان الامر .. ثم أمر بإطلاق سراح المعتقلين جميعا .. ونهض فسار الى جناح امه التي لم تكف في تلك الاثناء عن لارسال في طلبه كي يذهب اليها ..

كان الأسى يسيطر على جناح أم الملك ، فان كسانداني حين علمت بما تضمنه خطاب نايتيتس لبارتشا آمنت بخيانتها ، وحملتها جريرة مصير ابنها ورفاقه .. اما « اتوسا » فقد جن جنونها للموت المعلق على عنق أخيها الأثير ، فراحت تشفق ثيابها ، وتقطع شعرها ، وتسب « قمبيز » ، ثم راحت تصل للالهة وتسكب الدمع مدرارا .. وحاولت أن تحمل امها على أن تصحبها الى الحداثق المعلقة ، لتستبين حقيقة موقف نايتيتس ، ولكن اصرار الأم على الرفض زاد من هياجها ، حتى اضطرت كسانداني الى أن نامرها بأن تلزم مخدعها ..

واقبل أخيراً رسول من كروسس يحمل للملكة الأم بشرى إطلاق سراحه وبارتسا وأصدقائه ، وبراءة نايتيتس .. فبادرت كسانداني الى استدعاء نايتيتس .. وهرعت أتوسا الى الحديقة ترتقب محفة صديقتها في لهفة .. ولم تكد تراها وقد عراها شحوب الموتى حتى انفجرت باكياً ، وراحت تعانقها وتقبلها .. ولم تكدمصرية تبلغ حجرة أم الملك ، حتى كانت فاقدة الرشيد .. وعندما فتحت عينيها ، وجدت رأسها مسنداً الى حجر الملكة العمياء ، بينما كانت شفتا أتوسا تلتصقان بجبينها ، وقمبيز يقف مطلاً عليها .. فابتسمت اذ عرفتهم ، ثم غمغمت في لهجة خللت من اللوم وزخمرت بالاسي : « كيف ظننت بى الظنون يا مليكى ؟ » .. فهمس في ضراعة : « أغفرى لى ! » ودفعت اليهم بخطاب أمها ، وهى تهمس : « لا تسخروا من أختى ، فان المصرية اذا أحببت لم تتحول عن حبها .. ولكننى خائفة .. ان النهاية تقترب .. ذلك البغيض « بوجس » .. أخبرنى بحكم الاعدام وموكب العار .. فتناولت السم ا » ولم يقو الطبيب على شئ ، فقد كان السم الذى تناولته زعافا ، لا ترياق له .. وصرخ الملك مهتاجا : « بل يجب از تعيش .. ادعوا أطباء بابل جميعا .. والكهنة طرا .. يجب ان تعيش ! »

وفتحت عينيها وكأنها تحاول اطاعة رغبة الملك .. وتطلعت اليه طويلا ، وهو يلصق براحتها شفتيه المحمومتين ، وتمتمت : « يا لها من سعادة ! » .. ثم راحت فى بحران الحمى ..

الفصل الثانى عشر

غزو مصر ..

♦ أخفقت كل المحاولات فى انقاذ حياة نايتيتس .. وعصف الحزن بقمبيز لوفاتها ، فراح ينشد السلوى على طريقته : بالغزو والفتح والقتال !

وأضاء له « فينس » الطريق : روى له أن نايتيتس لم تكن ابنة أحبس ، وإنما ابنة سلفه خفرع ! .. وراح فينس يزين تمهيز غزو مصر ، والاستيلاء على عرشها بوصفه زوج الوريثة الشرعية لذلك العرش ! .. وكان حب الثار ما يزال يملك الإثني ، لما ناله على يدى « بسامتيك » ولى عهد مصر .. سيما وإن هذا قد استطاع أن يقتنص ابن « فينس » ويقتله !

أما ما بقي فيعرفه كل من درس التاريخ : إذ غزا قمبيز مصر - يعاونه « فينس » - فهزم بسامتيك ، واستولى على امبراطورية مصر بأسرها .. ومع ذلك ، فإن الحرب والظفر لم يسريا عنه الحزن الذى ناله لوفاة نايتيتس ، فأنصرف الى الشراب ، واشتدت به نوبات الهياج والصرع ، وفرض على امبراطوريته حكما من الأدهاب والفرع .. واستفحل طغيانه حتى لقد أمر بإعدام أخيه بارتشا فى نوبة أخسرى من نوبات الغيرة ، ولم يحجم عن تنفيذ الحكم ..

لكن الأمر انتهى به أخيرا الى أن يلوق الهزيمة على أيدي الاحباش ..

وسنحت لكبير الكهنة «أوروباستس» فرصة تحقيق أطماعه حين مات قمبيز ، فحاول أن يستولى على عرش فارس ، ولكنه فقد حياته ثمنا للمحاولة .. ثم أفاقت فارس من الهزات التى أصابت كيائها ، فعادت تتحد تحت لواء « دارا » النبيل .. صديق بارتشا الوفى وقريبه !



عزى القارىء...

قرات معى فى الاعداد المائىة من
كتايبى ، من روائع الكتب القديمة ، هذه
الكتب على التوالى :

- « ديكامرون » : بوكاشيو
- « دون كيشوت » : سرفانتس
- « الياذة » : هوميروس
- « اميل » : جان جاك روسو
- « حى بن يقظان » : ابن طفيل
- « روبنسن كروزو » : دانييل ديفو
- « غرام الاخوين » : (كاتب
فرعونى مجهول)
- « يوتوبيا » : توماس مور
- « الجمهورية » : افلاطون
- « الكوميديا الالهية » : دانتي
- « الاوديسة » : هوميروس
- « العالم كما يسير » : فولتير
- « غرام مشبوب » : لين يوتانج
- « رباعيات عمر الخيام »
- « غفاف (كوزى سانكتا) : فولتير
- « رسالة الغفران » : المعرى
- « نظرية التطور » : داروين
- « رأس المال » : كارل ماركس

وفيما يلى اقدم لك الكتاب الذى
احدث اكبر هزة فى القرن الثامن عشر،
وكان من اقوى الكتب التى مهدت لقيام
الثورة الفرنسية

كُتِبَ الأولون



كنوز الكتب القديمة

جان جاك روسو



العقد الاجتماعي



انجيل الثورة الفرنسية

♦ يسر كتابي ان يقدم اليك فيما يل اول خلاصة وافية تنشر بالعربية لهذا الكتاب الشامخ الذي يعد من اقوى الكتب السياسية تأثيرا على الفكر البشرى في تاريخه الطويل ، كما يعتبر اعظم مؤلفات الفكر الخالد « جان جاك روسو » على الاطلاق ، ومصدر مجده العريض .. وقد بلغ من حجر حكام فرنسا في ذلك العهد على الحريات العامة - وحرية النشر بصفة خاصة - ان روسو اضطر يومئذ الى نشر كتابه هذا في هولندا (عام ١٧٢٦) ، فرارا من الرقابة الفرنسية .. وقد كان الكتاب ، كما يدل عنوانه ، اول محاولة لتفسير وتبرير قيام الحكومات باتفاق كلمة الحكوميين على اقامتها برضاهم واختيارهم كى ترعى امورهم وتسهر على راحتهم - وهو عكس البدا الذي كان سائدا في تصور الطغيان القديمة - ومن هنا كان نشر الكتاب بمثابة الوحي الادبي الذي هبنا الانهتان انشوب الثورة الفرنسية ، واشعل في النفوس شرارتها الاولى !

فسلام على روسو حيث يرقه راضيا مرصيا - بجوار نبى الثورة الآخر « فولتير » - في مقبرة «الانثيون» بباريس .. وحيث حجبت اليه منذ اسابيع - مع مئات الزائرين من كافة اركان الدنيا - لخليل الى ان روحه توفد من عليانها قرية بالحرية الخالدة التى منحها الثورة لفرنسا .. وللعالم بأسره !

السياج المشثوم :

♦ يرجع انشاء المجتمع المدني الى أول رجل ضرب سياجا حول قطعة من الارض ، وجرؤ على أن يقول : « هذه ملكى » ، ووجد اناسا من السداجة بحيث أقروه .. ترى كم من جرائم واغتياالات ، وكم من فظائع وتعاسات كان يفقد للجنس البشرى أن يتفادها ، لو أن رجلا قام لحظتئذ فانتزع السياج وصاح فى رفاقه : « حذار أن تنصتوا لهذا المدعى ، فلسوف تقضون على انفسكم بالضياح ان أنتم نسيتم يوما ان ثمار الارض ملك لنا جميعا ، وان الارض ذاتها ليست لاحد ! »

بيد أن المرجح أن الظروف كانت قد بلغت وقتئذ حدا لا سبيل إلى استمرارها بعده ، لأن فكرة الملكية إنما قامت على كبح من الأفكار التي سبقتها ، والتي ما كانت لتتكون جميعا في ذهن البشري دفعة واحدة ، وإنما تواردت متعاقبة ، تنسخ كل منها ما سبقها على مر الاجيال ، حتى انتهت إلى هذا الوضع الأخير ..

ذلك أن أول مشاعر الانسان كانت تنصب على حفظ كيانه ، وكان نتاج الارض يمد به بكل ما كان يعوزه ، وقد أرشدته الغريزة إلى وسائل استخدامه الارض ونتاجها كما هدته رغبة عصياء إلى العلاقات الجنسية لحفظ النوع .. وكانت حياة الانسان الاول كحياة الحيوان ، مقيدة بالنزوات والاهواء ، فكان لا يكاد يفيد من عبات الطبيعة فائدة تامة ، وبالأحرى ، كان أعجز من أن ينتزع من الطبيعة شيئا .. على أن الصعاب لم تلبث أن علمته كيف يتغلب عليها . كيف يتسلق الأشجار ليحني ثمارها ، وكيف يصمد لمنافسة الحيوانات الأخرى الراحية في اقتناص هذه الثمار ذاتها من أجل بقائها .. ومن هنا كان عليه أن يتعلم كيف يحارب ، وكان من السهل أن يجد الأسلحة الطبيعية في الأحجار والعصى .. كما كان عليه أن يتعلم كيف يعوض نفسه عما يفتصبه منه من هو أكثر منه قوة ..

وازدادت شواغل الناس بازدياد عدد أفراد الجنس البشري .. وأدخل اختلاف أنواع التربة ، والمناسخ ، والفصول ، اختلافات على طرق معيشتهم .. وأدت سنوات الجذب ، وفصول الشتاء القارسة ، وفصول الصيف القانظة ، إلى وجوب البحث عن حرفة جديدة غير الزراعة .. فاخترع سكان الشواطئ الخيط والشص ، وصادوا الأسماك وأكلوها .. وصنع سكان الغابات الأقواس والنشاب فصادوا الحيوان ، واتخذوا من جلوده كساء يقيهم غائلة الشتاء .. وهداهم

البرق أو البراكين الى النار ، فكانت مصدرا جديدا لمكافحة البرد . ثم تعلموا كيف يشعلونها ، ومن ثم كيف ينضجون عليها اللحم التي كانوا من قبل ياكلونها نيئة .

ابتكار اللغات . . واخترع الآلات

♦ وكان خليفنا بالاتصالات المتكررة بين الانسان والكائنات العديدة ، وبين هذه وبعضها بعض ، أن تنتهي به الى نوع من التفكير ، أو الحكمة الآلية التي توحى له بالاحتياجات الضرورية من أجل سلامته . وترتب على الذكاء الجديد الذي تأتي عن تطور الانسان أن ازداد سموه على الحيوانات الأخرى ، إذ أوحى اليه الذكاء بكثير من الحيل التي مكنته من الغلبة عليها ، ومن أن يفرض سيادته على البعض ، وأن ينكل بالبعض الآخر . ثم ان اتصالاته بالآدميين الآخرين جعلته أن يقابل بينه وبينهم ، فيخلص من ذلك الى تبين أنهم يتصرفون مثله ، ويفكرون كما يفكر ، فأغراه ذلك على أن يسلك من قواعد السلوك نحوهم ما يكفل له السلامة والمصلحة والخير . وعلمته التجارب أن حب الخير هو الحافز الأوحده لتصرفات الناس ، وأن ثمة حالات يخول له اشتراك الصالح فيها بينه وبين الناس أن يعول على مساعدتهم ، كما أن ثمة حالات يجد من تضارب المصالح فيها ما يخول له أن يركن الى الريبة والحد . وفي الحالات الأولى كان يسير مع من يشاطرونه المصلحة ، وفي الحالات الثانية كان كل فرد ينصرف الى ما فيه صالحه ، ويسعى الى تحقيق هذا الصالح اما بالقوة السافرة ، أو بالحيلة . وبهذه الطريقة أصاب الناس شيئا من الادراك لقيمة الاعمال المشتركة والفوائد التي تنأتى عن تنفيذها . ودعاهم هذا الى ابتكار اللغات ، فى صورها الأولية الفجة الخشنة . وادت خطوات التقدم الأولى الى خطوات أعظم وأسرع . فان بنى آدم ازدادوا نشاطا بازدياد تنور عقولهم ، فاخترعوا

العديد من الآلات التي صاغوها من الصخر الصلب ليحفرها
 بها الأرض ويقطعوا الأشجار ، ثم أقاموا من الأشجار أكواخا
 ما لبثوا أن تعلموا كيف يكسونها بطبقة من الطمي والطين ..
 وكان هذا عهد انقلاب أدى الى انشاء الامرات والى نوع من
 الملكية أثار آلافا من المنازعات والمشاجرات .. واذا كان من
 المحتمل أن الاقوياء هم أول من أقاموا لانفسهم أكواخا شعروا
 بالقدرة على حمايتها والفود عنها ، فان الضعفاء لم يلبثوا أن
 انتهوا الى أن الحذو حذوهم أسهل وأسلم من محاولة اغتصاب
 أكواخهم منهم .. وشيئا فشيئا تعود الانسان أن يحترم حرمة
 ساكني جيرانه وملكيتهم لها ..

نشأة الحب والغيرة !

♦ **وأصبحت إقامة الزوج والزوجة وأبنائهما تحت سقف**
 واحد عادة ، تفتقت عن أنبل وأسمى العواطف الانسانية ..
 وغدت كل أسرة مجتمعا صغيرا ، قوى الترابط ، لان الحرية
 والصلوات المشتركة المتبادلة كانت دغائمه وحدته .. وبدأ
 الجنسان ينفصلان في العمل ، فأخذت المرأة تجنح الى الاستقرار
 والعناية بالكوخ والاولاد ، بينما كان الرجل ينطلق سعيا
 وراء الحاجات المشتركة للأسرة .. وأدت أسباب الراحة
 والمتعة والامن الى أن ينزل كل من الجنسين عن شيء من قوته
 وبطشه .. ولعل هذا أدى الى أن يعجز الفرد عن منازلة
 الوحوش وحده ، ولكنه - من ناحية أخرى - تبين أن
 اجتماعه مع أبناء جنسه لمساومة الوحوش عسبة ، أجدى
 وأسهل ..

وأناحت بساطة الحياة ، وقلة الحاجات ، وكثرة الادوات
 التي اخترعها الانسان ، مجالا للفراغ أخذ يملأه بملاء ومسرات
 لم يكن لأبائهم بها عهد ، ومن ثم نبعت أولى المساويء والشرور
 .. اذ لم تلبث هذه المتع أن فقدت بهجتها ، بل أنها استحالت

الى حاجات حقيقية اخذ الانسان يشقى بها .. يشقى بفقدانها
كما يشقى بوجودها !
وهكذا اعتري التغير كل شيء .. فبعد ان كان الناس
يهيمون في القصابات ، استقروا واخذوا يكونون جماعات
منفصلة .. وعلى مر الايام قامت في كل بلدة معينة ،
موحدة في الصفات والاخلاق ، لا يحكم قوانين او لوائح ،
وانما يحكم ممارستها لونا واحدا من الحياة ، وبحكم تناولها
انواعا معينة من الغذاء ، وبحكم تأثير الجو على افرادها ..
وادى الجوار الى ترابط العائلات ، والى اتصال أبناء الجنس
في هذه العائلات ، فنما في نفوسهم تقدير الجمال والخلال ،
وتسربت الى قلوبهم عواطف عذبة جميلة تربط ما بينهم ..
ومع الحب انبعثت الغيرة ، وادبى الدم في سبيل ارق
المواطف !

وازدادت اللفة بين الناس ، واخذ أبناء الجيرة يجتمعون
في اوقات الفراغ امام اكواخهم ، فبدأ كل يول الآخرين
اعتبارات ويطلع في أن يولوه
مثلها ، وصار أعذبهم غناء ،
أو أجملهم رقصا ، أو أبهاهم
شكلا ، أو أقواهم عضلا ، أحظاهم
بالاعتبار .. ومع الحظوة
والاعتبار ، ولدت أولى أشكال عدم
المساواة ، واتخذت أولى الخطوات
نحو الرذيلة .. اذ بدأ كل
انسان يعتز بما ينال من
اعتبار ، ويطالب الجماعة بمراعاته ،
فاذا مسه أحد ، أحس في ذلك
بأهانة تستوجب الانتقام ..



يؤغل الناس في القسوة والعنف في انتقامهم .. وهذا ما كان يلاحظ في كثير من الامم الهمجية التي عرفها العالم المتحضر ، علماء كثير من الكتاب الفهم وتسرعوا في الحكم على الانسان بأنه فطر على القسوة .. والواقع أنه لم يك ثمة أرق والطف من الانسان في بداوته الاولى !

الطمع والاثرة افسدا سعادة الانسان

♦ اما وقد تكون المجتمع وتوطدت العلاقات بين الناس ، فقد أصبح الموقف يتطلب منهم صفات تختلف عن تلك التي كانت لهم في وضعهم الفطري البدائي ، ومن ثم ظهرت بينهم قواعد الاخلاق تحكم تصرفاتهم قبل مولد القوانين .. وكانت هذه اسعد الفترات في تاريخ الانسان .. وكان أخرى بها أن تعند وتبقى ، فيظل الناس يستمتعون بمسرات الحياة ويستمرثون الصلات المستقلة على أساس النفعة المشتركة والتبادلة .. ولكن .. منذ اللحظة التي أحس فيها انسان بالحاجة الى مساعدة انسان آخر. ومنذ اللحظة التي خيل فيها لاي امرئ أن من الخير أن يستحوذ من المؤن على ضعف حاجته ، تلاشت المساواة ، وتفشيت الملكية ، وأصبح العمل أمرا لا غنى عنه ، واستحالت الغابات الشاسعة الى حقول ناضرة يرونها الانسان بقرق جبينه .. ومع محصولها نبئت العبودية والشقاء ..

وكانت الزراعة وصناعة المعادن هما الفنان المذان أحدثا هذا الانقلاب .. كان الحديد والقمح أول ما علم الناس المدنية، وأول ما أفسد الانسانية .. ولقد ظلت الامم التي اقتصررت على الزراعة في همجيتها حتى عرفت الحديد والمعادن .. ولعل من أهم أسباب ارتقاء أوروبا في المدنية عن سواها أنها كانت يوما أكثر بلاد العالم نصيبا من الحديد ، وأغناها بالقمح .. ذلك أنه لم تكد تظهر الحاجة الى طرق الحديد لاستخدامه في

الزراعة وغيرها ، حتى صحبتها الحاجة الى صيانة الادوات الحديدية واصلاحها ، وكلما ازداد عدد الايدي العاملة التي اجتذبتها الصناعة ، قل عدد الايدي التي تركت للزراعة ونتاج القوت ، دون أن يقل عدد البطون التي تنشدهم الغذاء . ثم ظهر الاتجاه الى الاستبدال . فالزارع في حاجة الى أدوات ، والصانع في حاجة الى غذاء ، ومن ثم شرعا يتبادلان السلع . وهكذا قامت الصناعة وصوغ المعادن وترويج استعمالها الى جانب الزراعة وتربية الحيوان والاكتثار منها .

وكان حريا بالزراعة أن تستتبع توزيع الارض ، ومن ثم فإن الاعتراف بالملكية أدى الى أولى قواعد العدالة . سيما وقد شرع الناس ينظّمون الى المستقبل ، وغدا كل منهم - وقد أصبحت لديه ممتلكات - يخشى أن يوقع بأحد ضررا فيفقد ذلك الى أن يدفع الثمن من ممتلكاته . وهذا أمر طبيعي ، مثله مثل الملكية ذاتها في الاصل ، فهي لم تنأت الا عن طريق العمل اليدوي . اذ كيف للإنسان أن يملك شيئا لم يخلقه بنفسه ، الا عن هذا الطريق ؟ ففلاحة الارض واستنباتها يتيحان له حق ملكية انتاجها ، وملكيته بالتالي ، الى أن يحصل ما زرع على الاقل . وعاما بعد عام ، توطد حقه في الارض ذاتها فامتلكها .

ولم يعد من الممكن الاحتفاظ بالمساواة في هذه الحال ، فلو أن مواهب الناس تساوت لامكن الاحتفاظ بتوازن دقيق بين استخدام الحديد وبين استهلاك السلع . ولكن المواهب لم تكن متساوية ، فكان القوى يعمل قسما أكبر من سواء ، والماهر آتقن صناعة من غيره . وكان صاحب الذكاء الموفور يبتكر من الاسباب ما يخفف عليه الجهد . ثم ، كان الفلاح في حاجة الى مزيد من الحديد ، والحداد في حاجة الى مزيد من القمح ، ولقد يبدل كل منهما من الجهد قدر ما يبدل الآخر

يُصيب أحدهما من عمله كسبا كبيرا ، بينما لا يكاد الآخر يحصل على ما يقيم أوده ٠٠ ومن ثم بدأ عدم المساواة يظهر ويسود ، واشتدت الفوارق التي نجمت بين الناس نتيجة اختلاف ظروفهم ، وغدت ابقى اثرا ، وأظهر نفوذا ٠٠

ولا أريد أن أطيل على القارىء ، ففى وسعه - وقد بلغت الامور هذا المبلغ - أن يحدد ما بقى ، وأن يتصور ما ترتب على كل ما ذكرناه من تطورات ، وخاصة استغلال الموهب ، وتباين الثروات ، وفوائد ومساوىء الغنى ٠٠ والمهم أن الناس أصبحوا بعد ذلك يعنون بأن يظهرُوا بما يفاير ما هم عليه فى الواقع ٠٠ ومن هنا نبت الزهو الكاذب والتظاهر والغش ، بكل ما يتبعها من رذائل ٠٠ ومن ناحية أخرى ، نشأ عن تضاعف رغبات الناس وحاجاتهم ، أن نزلوا عن حريتهم واستقلالهم ، وان ارتضوا أن يخضعوا أنفسهم لبعضهم بعضا ، فالأغنياء غدوا يحتاجون للخدمات من غيرهم ، والفقراء غدوا فى حاجة الى معونة الأغنياء ، وحتى من كانوا وسطا بين هؤلاء وأولئك لم يستطيعوا أن يستغنوا عن زملائهم من الناس ٠٠ وهنا تحتم على الانسان أن يعمل على استدراج الناس الى الاهتمام بمصالحه والاقتناع بأن من الخير لهم أن ينموها له ، فلجأ الى المكر والحيلة مع بعض الناس ، وإلى القسوة مع البعض الآخر ٠٠ وأدى التعطش الى مضاعفة الثروة - لا عن حاجة بقدر ما هو عن رغبة فى التفوق على الغير - الى الإيحاء الى الناس جميعا بنزوع خبيث الى إيذاء بعضهم بعضا ، وبفيرة كامنة عظيمة الخطر ، لأنها تتخذ من البر والتظاهر بالخير ستارا تسعى من ورائه الى هدفها فى أمان !

ازدياد الفوارق ونشوء العنوان

♦ وبالاختصار ، نبت التزاحم والتنافس من ناحية ، والمصالح المتضاربة من ناحية أخرى ، مع رغبة خفية - فى

الحالين - فى الكسب على حساب الغير ٠٠! وكانت كل هذه المساوىء هى الآثار الاولى للملكية ، والعوامل التى تلازم ازدياد الفوارق وعدم المساواة ٠٠

ذلك ان اتوسع فى الملكية لم يلبث ان وصل الى حد لم يكن من الممكن بعده لانسان ان يزيد من املاكه الا بالعدوان على اراضى وماشيه سواء ٠٠! وفى الوقت ذاته كان الفقراء ، بسبب ضعفهم او عجزهم عن التملك ، قد ازدادوا فقرًا - وان لم يخسروا شيئًا ، اذ لم يكونوا يملكون ما يخسرونه ! - وقنعوا بأن يحصلوا من الاغنياء على ما يقيم اودعهم ، او يسرقوه ٠٠! ومن ثم نشأ عن هذا الوضع أحد أمرين : اما استكانة وعبودية ، واما عنف وعدوان ٠٠ فى حين أن الاغنياء لم يلبثوا أن استمروا ا متعة السلطان ، فاستهانوا بسواهم ، ولم يعودوا يفكرون الا فى استئلال من حولهم أو استعبادهم ، وقد انقلبوا ذاتًا با ضارية ٠٠

وهكذا صحبت انهيار المساواة فوضى فظيعة : استغلال وجشع من جانب الاغنياء ، وسطو وسرقة من جانب الفقراء ، وخنق اندفاع كل من الجانبين فى غيه ما تبقى من اصوات العدالة الواهنة ، فاذا نفوس البشر تفعم بالجشع والبخل والطموح والشر ٠٠ ومن ثم افضى مولد المجتمع الجديد الى حالة رهبة من المعارك والحروب ٠٠ ولم يعد من احرزوا الثروات قادرين على النزول عنها ، بل اندفعوا فى غيهم باسم الشرف والكرامة والحق ، لينتهوا بانفسهم فى الواقع الى هاوية الدمار ٠٠ فاذا الاغنياء والفقراء يكتوون على السواء بنيران العلل والمساوىء الجديدة !

وكان من المستحيل أن لا يفكر الناس فى هذا الموقف وفى النكبات التى حاقت بهم ، بل لعل الاغنياء - بوجه خاص - قد أحسوا بمدى ما عانوا بسبب الحروب المتواصلة التى كان الغرم كله فيها عليهم ، فمع أن الاغنياء والفقراء كانوا فيها يجازفون

بأرواحهم على السواء ، إلا أن الأغنياء كانوا يعرضون ممتلكاتهم في الوقت ذاته للضياع . . هذا فضلا عن أن القلة منهم التي افترست أموالها بجدها ، لم تكن بأقوى من سواها حجة وحقا في ادعاء الملكية . . وكان من العيب أن يقول أحد منهم : « أنا حفرت هذه البئر ، وأنا كسبت هذه البقعة بجدي » ، إذ من الذي خول له أن يتفرد بملكيتها ؟ . . وكان ثمة من يرد عليه قائلا : « بأي حق تطلب البئر أن ندفع لك أجر ما لم نسالك أن نفعله ؟ . . ألا تعرف أن الكثيرين من أخوتك في البشرية يتضورون جوعا لحرمانهم مما توفر لديك بأكثر من حاجتك ؟ . . ان عليك أن تحصل على اقرار وموافقة الجنس البشري بأسره قبل أن تستحوذ من القوت المشاع على ما يزيد عما يكفي لصون كيانك » . .

نشوء فكرة الحكومات

♦ **واذ كان الغنى مفتقرا الى ما يعزز ملكيته ، وعاجزا عن أن يحمي نفسه ، فقد كان يستعين بعصابت مرزقة لا تلبث أن تنقل كامله . . كما كانت الغيرة المتبادلة تحول دون تعاونه مع أعداده ضد أعدائهم العديدين . . ومن ثم ، ألهمت الضرورة الأغنياء في النهاية أعمق فكرة خطرت ببال الانسان . . تلك هي أن يستخدم لصلحته قوى أولئك الذين كانوا يهاجمونه .** وأن يتخذ من أعدائه حلفاء ، فيوحى اليهم بالحكم والمبادئ المختلفة التي تفيده بعد أن غدا قانون الطبيعة لا يجدي . . فعند اى اظهار جيرانه على فضاة الموقف الذي يضطر فيه كل انسان الى حمل السلاح ضد بقية الناس ، والذي تغدو فيه الممتلكات والثروات عبئا لا يقل في الارهاق عن الحاجات والمطالب ، والذي تميز فيه السلامة والامان للغنى والفقير على السواء . . وفي لياقة ، خلص من هذا الى غايته ، فساقها في شكل اقتراح مستخلص من المناقشات التي دارت بتوجيهه ،

قائلا : « لننتخذ كى نحمل الضعيف من الجور ، وكى نكبح جماح الطامع الطموح ، ولنضمن لكل فرد ملكية ماله .. لنضع قواعد للعدل والسلام ، يقرها ويلتزم بها الجميع دون ما استثناء .. قواعد تصلح بطريقة ما ما بين الحظوظ من فوارق ، اذ يضطر بهما القوى والضعيف - على السواء - الى مراعاة التزامات متبادلة .. وبايجاز ، لنجمع قوانا - بدلا من ان نشهرها ضد انفسنا - ونركزها فى قوة عليا تحكمنا بموجب قوانين حكيمة ، فتحمل جميع اعضاء الجماعة وتلود عنهم ، وتكسر شسوكة الاعداء المشتركين لنا ، وتقر الونام الخالد بيننا .. »

وخذعت الكلمات المعسولة الناس الذين كانوا فى غمرة الجهالة ، فهرعوا جميعا الى اغلالهم وهم ياملون ان يصونوا حريتهم ، اذ لم تكن لهم الخبرة والتجربة اللتان تبصرانهنهم بمواطن الخطر فى هذه المبادئ السياسية .. وانما كان اقدرهم على استبانة الخطر ، هم اولئك الذين توقعوا النفع من ورائها .. بل ان اوفر الناس حكمة ، لم يروا كثير ضير فى ان ينزل كل فرد عن قسط من حريته ليؤمن بقية الاقسط ، كما يضحي الجريح بذراع تالفة لينقذ عمره وبقية جسده ..

هكذا كانت - او لعلها كانت - بداية المجتمع والقانون الذى اضفى على الفقير قيودا جديدة ، واتاح للغنى سلطات جديدة .. ففضى على الحرية الطبيعية ، ووطد للابد قانون الملكية وعدم المساواة ، وحول الاستغلال الماكر الى حق مشروع لا مراء فيه ، وأخضع الجنس البشرى باجمعه الى العمل والعبودية والمسغبة الدائمة من اجل مصلحة قلة من الطموحين ذوى الطامع ! ومن السهل ان نرى بعد ذلك كيف ان قيام جماعة واحدة جعل قيام الجماعات اخرى ضرورة لازمة ، فأخذ الجنس البشرى يتحد تباعا فى جماعات لم تلبث ان ازدادت وانتشرت حتى شملت وجه البسيطة ، فلم يعد فى الارض ركن ينجو فيه الانسان من ربة

الوضع الجديد ، الذي غدا كالسيف المصلت أبدا فوق عنقه .. وهكذا أصبح الحق المدني هو الحكم الشائع المشترك بين أعضاء كى جماعة ، ولم يستبق القانون الطبيعى الا بين الجماعات المختلفة ، حيث يتفق عليه ضمنا باسم حقوق الامم لتيسير ممارسة التجارة ، وليعوض التعاطف الطبيعى الذى فقد عند تطبيقه على الجماعات كل ما كان له من تأثير على الافراد ، ولم يعد له بقاء الا فى بعض المذاهب الروحية الشاملة ، التى تحطم العوارق والحواجز بين مختلف الناس والشعوب ، وتزاحى بين البشر ، عملا بتعاليم الخالق ، الذى يشمل برحمته الجنس البشرى برمته ..

كيف برزت البشرية الحروب ؟

● بيد أن الجماعات السياسية ظلت على الوضع الطبيعى ، تعاني ما سعى الافراد للخلاص منه ، فقامت الحروب الاهلية ، والمعارك ، والمذابح ، مما هز الطبيعة وأذهل العقول .. فتعلم اشرف الناس أن قطع رقاب سواهم واجب !! وكانت هذه هى اولى آثار انقسام الجنس البشرى الى جماعات ..

اعرف أن بعض الكتاب شرحوا أصل المجتمعات السياسية على صور أخرى ، منها غلبة القوى للضعيف ، أو اتحاد الضعفاء وتعاونهم .. ولكنى أرى الصورة التى قدمتها أقرب الى الطبيعة من سواها ، وذلك للأسباب التالية :

اولا : لان حق الغزو والغلبة ليس مبررا أو أساسا مشروعا تبنى عليه حقوق أخرى ، فإن الغالب والمغلوب يظلان على حرب .. ما لم يسترد الأخير كامل حريته ، فيختار راضيا أن ينضوى تحت لواء الاول ..

ثانيا : لان كلمتى « قوى » و « ضعيف » ليستا دقيقتين ، إذ أن خير ما يعبر عنهما فى الفترة بين قيام حق الملكية وقيام الحكومة السياسية هما كلمتا « غنى » و « فقير » ..

ثالثا : لم يكن الفقراء يملكون ما يعز عليهم فقده ، اللهم الا حريتهم ، لذلك كان من الغباء المطلق أن ينزلوا عن هذا الشيء الوحيد الذي يملكونه دون أن يحصلوا على شيء في مقابله .. في حين أن الاغنياء كانوا ينصرفون بكل عواطفهم الى ممتلكاتهم ، فكان من السهل الاضرار بهم ، وكان من الضروري لهم أن يتحوطوا ضد ذلك ، ومن ثم فمن المعقول أن يكونوا اول من فكر في الدعوة لاقامة الحكومة

من هذا نرى أن المشكلة التي واجهت الناس في البداية تمثلت في : « البحث عن نوع من التجمع والاشترك » يحمي بكل القوى المشتركة شخص وثروة كل فرد من أعضاء الجماعة ويدافع عنهما .. ويظل فيه كل فرد - رغم اتحادهم مع الباقين - حرا لا يخضع الا لنفسه .. »

فكرة العقد الاجتماعي

♦ وتوفر حل هذه المشكلة ، في « العقد الاجتماعي » .. وتمثل روح هذا العقد في أن كل فرد ينزل نزولا كاملا ، غير مفيد أو مشروط ، عن جميع حقوقه للمجتمع ككل ، أي كوحدة .. فلا يحق لفرد أن يحتفظ بحقوق لا يمتلكها كافة الافراد الآخرين - على قدم المساواة - والا خرق العقد ونقضه .. ثم ان الفرد حين ينزل عن حقوقه للمجتمع ، لا يحولها أو ينزل عنها لشخص معين ، ومن ثم فانه في علاقاته بالافراد يظل محتفظا بكافة الحقوق التي ضحى بها .. ويمكن ايجاز الوضع في هذه الصيغة : « كل منا - عامة - يضع شخصه وكل ما له من قوة أو نفوذ أو مال تحت الاشراف الأعلى للإرادة العامة ، ويعتبر كل عضو جزءا لا يتجزأ من المجموع » .. وبهذا تنشأ هيئة أدبية وجماعية تتألف من كافة أعضاء المجتمع ، وتستمد من هذا الوضع وحدتها ، وحقها ، وسلطانها ، وحياتها ، وارادتها .. هذه هي الجمهورية ، أو الدولة .. وأعضاؤها هم الشعب ،

وهم مواطنون وشركاء في السيادة وفي سلطة السيادة ، كما اتهم - في الوقت ذاته - رعايا ، يخضعون لقوانين الدولة ..

ولم يكن للحكومة - في حداثة نشأتها - شكل منظم ثابت ..

لو كان نقص التجربة والفلسفة يقصر نظر الناس على علاج حائض حاضرمهم ، دون أن يتجاوزوا نطاق الحاضر الى المستقبل ..

وقد ظلت الاوضاع السياسية غير مكتملة - رغم محاولات حكماء من المشرعين - لان هذه الاوضاع كانت في الواقع من وحى الصدفة أكثر من أى شئ آخر ، ومع أن مرور الزمن كشف مواطن الضعف فيها وبين سبل العلاج ، الا أن الاخطاء الأصلية ظلت بدون اصلاح .. بل انها ظلت ترقع باستمرار ، في حين ان المهمة الأولى كانت تتطلب تنقيتها من كل الشوائب الماضية ، وإزالة أنقاض الماضي اذا أريد أن يكون الصرح ثابت الاركان ..

ذلك لان المجتمع كان يتألف في البداية من مجرد بضعة اتفاقات عامة اصطلح عليها الاعضاء والتزموا بمراعاتها ، وضمنت الهيئة كلها السلامة لكل فرد في سبيل تنفيذ هذه الاتفاقات .. لذلك لم يكن ثمة ما يكشف أى ضعف في مثل هذا الوضع سوى التجربة ..

فحيثما كان الجمهور هو الشاهد والقاضي ، كان من اليسير التهرب من القوانين بعدة طرق ، ولم يكن ثمة بد من أن تتضاعف الاضطرابات والتفجرات باستمرار ، حتى تولدت الضرورة التي تدعو الى ايكال مسئولية السلطة العامة - أو سلطان الشعب - على خطورتها ، الى بعض الأشخاص المعيّنين ، ومسئولية فرض الطاعة الى مأمورين منفذين للقوانين والاحكام ..

فالواقع أن الحكام ومنفذى القوانين لم يكن لهم وجود قبل قيام القوانين ذاتها ..

الهدف من الحكومات كان الحماية لا السيطرة

● وليس من المعقول أن نفترض أن الناس ألغوا بأنفسهم بين ذراعى سيد مطلق في البداية ، دون ما قيد أو تحفظ ..

فهم في الواقع لم يختاروا لأنفسهم رؤساء - أو حكاما - الا

ليقوا أنفسهم الجور ، وليحموا حياتهم وحررياتهم وممتلكاتهم . . . وما كان من حسن الإدراك في شيء أن يدأوا بأن يخلعوا على رئيس كافة الأمور التي أرادوا أن يستعينوا به على صيانتها ورعايتها ، إذ ما الذي كان يستطيع أن يقدمه في مقابل مثل هذا الحق العظيم . . . ومن ثم فلا عرا ، إطلاقا في أن الأساس الأصلي والأول لكل الحقوق السياسية هو أن الناس ما أقاموا الرؤساء بينهم الا ليكونوا لهم حماة ، وليسوا سادة مسيطرين !

ان الحصان البري - الذي لم يهذب - يرفع رأسه ، ويثبت حوافره في الأرض ، ويجفل لمراى السرج واللجام ، في حين أن الحصان الذي درب وروض ، يتقبل في صبر لهيب السوط ووخز المهماز . . . كذلك الانسان في بداوته لا يرضى بأن يذل عنقه لما يفرضه عليه الانسان المتحضر من ريقة دون ما تذر ، فهو يؤثر الحرية مع أقصى المتاعب ، على العبودية مع الأمان والسلام . . . لذلك فانتى حين أرى الحيوانات التي ولدت حرة تضرب قضبان أقفاصها برؤوسها برما بالأسر . . . وحين أرى جموع العراة من الهمجيين ينبذون المتع الاوربية ، ويتعرضون للجوع والنار والسيوف والموت لصون استقلالهم ، لا يسعنى الا أن أشعر بخطأ الساسة والفلاسفة الذين يعززون الى الانساز استعدادا طبيعيا لارتضاء الاستعباد !

سلطة الأب . . وسلطة الحاكم

♦ أما ما يستند اليه بعض الكتاب من أن سلطة الأب على الأسرة هي الأصل الذي أخذ عنه نظام الحكم المطلق ، فليس أقرب لدحضه من أن نذكر أن ليس على الأرض ما هو أبعد عن روح الاستبداد الشرسة ، من تلك السلطة الرفيعة التي ترعى صالح من يطيعها أكثر مما ترعى صالح من يمارسها . . . فان قانون الطبيعة يقضى على الأب بأن لا يفرض على الابن سيادته الا حيثما تستدعي ذلك مساعدته . . . وان الأب والابن اذا

• ساويا ، استقل الأخير عن الأول ، فلا يعود يدين له بغير الاحترام ، لا الخنوع . ومن ثم فبدلاً من أن نقول ان المجتمع يحضر قد اقتبس عن سلطان رب الأسرة ، يخلق بنا أن نقول من هذا الأخير انما أخذ قوته الرئيسية عن الأول . • فما كان لأب أن يحظى بالابوة ما لم يستقر ويبقى حوله أبناؤه وبناته . • والخيرات التي يمتلكها الأب هي الروابط التي تستبقى تبعية أبنائه له واعتمادهم عليه ، وفي وسعه أن لا ينعم على أحد منهم غبط منها الا اذا استحقه بما يبديه من احتفال بإرادته . • أما زعماً الحاكم المستبد ، فأنهم وما يمتلكون ملك له - في نظره هي الأقل - ومن ثم فهم مضطرون الى أن لا ينالوا ، اذا ما أنعم عليهم ، سوى ما يحلو له أن يهبهم من حقوقهم وممتلكاتهم . •

لذلك لا نكاد نجد أي مبرر يدعو الى الظن بأن الناس أقاموا النظام والظفر طائعين . • أو أنهم افروا عقدا يقع فيه كل الغرم على أحد الطرفين ، دون أن يربط الطرف الآخر بشئ . • ومن ثم لا ينبغي القول بأن السلطان لا يخضع لقوانين دولته ، بل العكس هو الصحيح . • وليس ثمة انسان يبيع حريته مقابل الخضوع لسلطة مطلقة تفعل به ما يحلو لها . • إذ أن ذلك معناه انه يبيع حياته ، وهي ليست ملكا له ، بل هي أمانة أودعه اياها الخالق . • ثم اننا حين ننزل عن حريتنا ، انما نهبط بانفسنا الى درك الانحطاط ، وليس بين الخيرات الدنيوية ما يمكن أن يعوضنا عنها . • فضلا عن أن في ارتضاء العبودية خروجاً على الطبيعة وخرقا لها ، فلا بد من تغيير الطبيعة ان شئنا أن نقر مثل هذا الوضع . • والمشرعون الذين وجدوا الجراة على الحكم بأن ابن العبد يولد عبداً ، انما قضوا على انسان بأن يولد في الحياة محروما من حقوق الانسان !

لذلك أرى من المؤكد أن الحكومة لم تبدأ كقوة ذات سلطان استبدادي ، ولا كانت نكسة ترجع بالانسانية الى قانون الحكم

للاقوى ، وهو ما ابتكرت الحكومة لعلاجها .. واخلص من هذا الى اعتبار الوضع السياسى بمثابة عقد بين الناس ورؤسائهم الذين يختارونهم .. عقد يلتزم بمقتضاه كل من الطرفين بمراعاة القوانين التى يتضمنها ، والتى تؤلف الروابط المثبتة لاتحادهم .. فيركز القوم - مراعاة لعلاقاتهم الاجتماعية - كل اراداتهم فى واحد. وتصبح المواد التى تعبر عنها هذه الارادة الموحدة ، قوانين اصيلة تلزم كل أبناء الدولة دون استثناء ، كما تنظم احدى هذه المواد اختيار وسلطة الاداريين - او الوزراء - الذين يعينون للاشراف على تنفيذ بقيتها . وتمتد هذه السلطة بحيث تشمل كل ما يصون القوانين الاساسية - او الدستور - دون أن تمسها بأى تغيير . وهى مصحوبة بمراتب تكريمية وامتيازات تكفل للقوانين ومنفذها الاحترام . كما يؤثر الوزراء بامتيازات تنبهم عما تتطلبه الادارة الصالحة من جهد وعناية . ويلتزم الادارى من ناحيته بأن لا يستخدم السلطة الموكولة اليه الا طبقا لما رعى اليه اولئك الذين اختاروه ، وبأن يكفل لهم الامن والاحتفاظ بما يمتلكون ، على أن يؤثر الصالح العام على صالحه الخاص فى كل مناسبة ..

قدسية القوانين ، لا القائمين على تنفيذها !

♦ ولا بد أن مثل هذا الوضع بدا أبهى ما يكون روعة قبل أن تكشف التجربة عن المساوىء التى لم يكن ثمة مفر منها .. إذ كان لأولئك الذين أنيط بهم رعايته مصلحة كبرى فى بقائه .. وكان الاضطلاع بالادارة التنفيذية وما يتصل بها من حقوق لا يقوم الا على القوانين الاصلية ذاتها ، ومن ثم كانت شرعية مناصب القائمين بها تزول اذا ما زالت تلك القوانين ، فلا يعوم الناس ملزمين بطاعتهم .. فان القوانين - لا القائمين على تنفيذها - هى الدعائم الاساسية للمجتمع والدولة .. وهى اللوازم الاصلية للعقد الذى نزل الافراد بمقتضاه عن حريتهم الطبيعية ..

ويجب أن نفرق في النظام السياسي بين سلطتين :
 تشريعية - وهي الإرادة التي تقرر أي عمل أو قانون -
 وتنفيذية ، وهي القوة التي تتولى تنفيذه . . . ذلك لأن القوة
 العامة - قوة الشعب - تحتاج إلى وكيل يطبقها تبعاً للإرادة
 العامة ، وهذا هو دور الحكومة ، فهي شيء غير الحاكم أو
 السلطان . . . هي وسيط بين الرعايا وبين السلطان في
 صلاتهما المتبادلة ، تنفذ القوانين وتكفل الحرية الاجتماعية
 والسياسية . . . وكلما قل عدد أعضائها ، زادت قوتها . . . ذلك
 لأن لعضو الحكومة - الوزير - ثلاث إرادات : إرادة خاصة -
 بوصفه عضواً في المجتمع - وإرادته كواحد من منفذ القانون،
 وإرادته كعضو في الهيئة الحاكمة صاحبة السلطان ، وهذه
 الإرادة الأخيرة هي أضعف الإرادات . . .

وعلى هذا ، فإن الحكم إذا انحصر في فرد واحد كان معنى
 ذلك أن الإرادتين القويتين - إرادته الشخصية وإرادته كمنفذ
 للقوانين - اجتمعتا في إنسان واحد ، فيكون الحكم قوياً . . .
 وإذا انحصر الحكم في أيدي أفراد قليلين ، تركزت الإرادتان
 العليان في فئة قليلة . . . أما إذا كان الحكم في أيدي المواطنين
 جميعاً ، فإن الإرادة الثانية تتلاشى ، بينما تشتت الأولى على
 نطاق واسع ، فيكون الحكم ضعيفاً . . .

ومن ناحية أخرى ، فإن الهيئة الحاكمة تكون أكثر استعداداً
 لأن تنمشي مع الإرادة العامة إذا هي تألفت من عدد كبير من
 الحكام . . . وتكون مهمة المشرع هنا هي أن يعمل على حفظ
 التوازن بحيث لا تفقد الحكومة قوتها ، وهي في الوقت ذاته
 تدين للسلطان بالطاعة في حدودها الصحيحة . . .

نظم الحكومات المختلفة

◆ وتدين نظم الحكم المختلفة بقيامها إلى تباين درجات
 عدم المساواة بين الأفراد ، في زمن وضع أسسها . . . فعندما

كان يوجد بين القوم رجل أبرز من سواه في القوة ، والفضيلة ، والثروة ، والنفوذ الشخصي ، كان هذا الشخص ينتخب ليكون الحاكم الاوحد الذي يستمد الباقيون سلطتهم منه . . وهذا هو النظام الملكي

أما في حالة وجود عدد من الافراد المتساوين في الكفاءة ، والبارزين عن عداهم ، فكان القوم ينتخبونهم مجتمعين ، وبذلك ينحصر الحكم في أيدي أقلية . . وهذا هو النظام الارستقراطي . .

أما في المجتمعات التي لم ينحرف أعضاؤها كثيرا عن الوضع الطبيعي ، فلم تقم بينها فوارق كبيرة في الثروات أو المواهب ، فكان الحكم في أيدي الشعب بأسره ، أو الشطر الأكبر منه . . وهذا هو النظام الديمقراطي . . وقد يقال انه أصلح النظم جميعا ، لان صانعي القوانين في ظل هذا النظام هم منفذوها ، فهم أقدر الناس على تأويلها وتطبيقها ، بيد انه ليس من الصواب في شيء أن يتولى صانعو القوانين تنفيذها ، ولا أن ينصرف الشعب باهتمامه عن المسائل العامة الى أمور معينة ، اذ ليس هناك ما هو أخطر من تأثير المصالح الخاصة على الشؤون العامة ، ومن المناقض للطبيعة أن يكون الحاكمون أكثر عددا من المحكومين . . ولن يقوى شعب على حكم نفسه حكما ديموقراطيا صحيحا الا اذا كان مؤلفا من آلهة .

وللحكم الارستقراطي ثلاثة أشكال : فهو اما طبيعي ، أو انتخابي ، أو وراثي ، والاول لا يمارس الا في المجتمعات البدائية الساذجة . . أما الثالث فهو أسوأ نظم الحكم جميعا . . في حين أن الثاني هو أفضل الثلاثة ، اذ أن الانتخاب يمكن من اختيار الحكيم ، النزيب ، مما يضمن سلامة الحكم .

وأول نقائص الحكم الملكي ، هو أن مصلحة العاهل تقتضي أن يبقى الشعب في حالة ضعف وفقر ، حتى يظل أفراد عاجزين

عن مقاومة سلطانه • كما ان الملكية تمكن الاقارب والانتهازيين من ان يلوا مناصب الشرف ، عن طريق دسائس البلاط ومكائد الخفية •

اما الملكية الانتخابية ، فيعيبها ان موت الملك يصحبه اضطراب وفوضى •• في حين ان الملكية الوراثية تترك شخصية نك وأخلاقه في يد الصدق والحظ ••

تطور الظلم السياسي

♦ وكان جميع رجال الحكم يختارون في البداية - لانتخاب ، فاذا طرح الثراء جانباً ، فان الانتخاب كان يستند الى الجدارة والسن •• بيد ان الاقبال على اختيار الكهول كان يستتبع تكرار عمليات الانتخاب بسرعة - اذ لا يلبث الكهل ان يموت ، فتتجدد الحاجة الى اختيار حاكم - حتى غدت هذه الانتخابات مصدر قلق واضطرابات ودسائس ومؤامرات وانقلابات ، مما أفضى الى حروب أهلية كاد الناس يعودون بفضلها الى همجيتهم الاولى ••

وانتهز بعض الحكام هذه الظروف ليثبتوا الولاية والحكم في أسراتهم • وفي الوقت ذاته كان الناس قد ألفوا ان يكلوا حقوقهم الى الدولة واستمروا الراحة ، فارتضوا ازدياد ربقة الحكم في سبيل استمرار الطمأنينة •• وهكذا أصبحت ولاية الحكم وراثية ، يعتبرها الحكام من ممتلكات الاسرة ، ويعتبرون المجتمع ضيعة لهم ، وأفراد المجتمع عبيداً أو ماشية •• وأخذوا يشبهون أنفسهم بالآلهة ، وينتحلون القاب الإمبراطرة !

هكذا كان تطور عدم المساواة •• بدأ باقرار القوانين وحق التملك ، ثم تبعه انشاء الولاية والحكم ، وتلاه تحويل السلطة المشروعة الى سلطة فردية استبدادية •• وفي المرحلة الاولى تم اقرار الفوارق بين الناس ، فكانت للفئة الغلبة على الفقراء •• وفي الثانية أصبح التفرق يتمثل في الاعتراف بتحكم

القوى في الضعفاء .. أما في الثالثة فانهى التفريق الى وجود سيد وعبيد ! .. وكانت هذه أقصى درجات عدم المساواة ، ما لم يقض على نظام الحكم بثورات جديدة ، أو يرد الى الطريق المشروع ..

ولو انعمنا النظر في الموضوع ، لوجدنا انه ما لم تكن ثمة سلطة عليا قادرة على ضمان وفاء الطرفين المتعاقدين بالتزاماتهما - في العقد الاجتماعي - وحملهما على اداء تعهداتهما المتبادلة ، فلا بد ان يصبح كل من الطرفين حكما يقضى في الامر من وجهة نظره ، ويستبيح ذلما حق فسخ العقد بمجرد ان يتبين ان الآخر قد اخل بنصوصه ، او ان هذه النصوص لم تعد تلائمه .. وهنا يجدر قيام حق الاعتزال والنزول عن السلطان ، ذلك لانه اذا لم يكن للحاكم القابض على السلطان كله ، والمستبيح لنفسه خير ما في العقد من ميزات ، حق النزول عن سلطانه ، فان للناس - الذين يعانون نتائج اخطائه - كل الحق في ان ينتفضوا على تبعيتهم له .. وتؤكد المنازعات والاضطرابات التي نشبت نتيجة لذلك مدى ما يعوز الحكومات البشرية من قواعد أكثر صلابة وتوطنا ..

ومن شأن الفوارق السياسية ان تستتبع فوارق مدنية اجتماعية ، فاذا ازدادت المساواة بين الحكام والشعب نموا ، انعكست على علاقات الافراد بعضهم ببعض .. والحاكم لا يملك ان يستغل أية سلطة غير مشروعة ما لم يؤثر على الاشخاص الذين سيخاطبونه هذه السلطة بامتيازات تفرق بينهم وبين بقية الناس .. كما ان الافراد لا يتقبلون الظلم الا بقدر ما يدفعهم في الحياة الطموح الاعمى ، اذ ليس من السهولة في شيء ان تحاول اخضاع رجل لم يبتل بطمع يملكه ويسيطر عليه ، وعلى هذا فان عدم المساواة يتفشى بين ذوى العقول التي تدفعها المطامع الهوجاء الى المجازفة ، والى الاستهانة بما قد

تعرض له في سبيل مطامعها من تقبل للربقة ورضى بالخنوع
 .. وكان من جراء ذلك أن مر بالناس عهد كان مجرد انعام
 الحاكم فيه على الفرد بقلب كافيا لان يرفعه في عيني نفسه
 ويعيون الناس ، فتعميه المظاهر عن حقيقة ما تردى فيه !

الثراء هو منبع الانحراف والفساد

♦ والخلاصة أن عدم المساواة أصبح أمرا لا محيص عنه
 بين الاشخاص ، حتى بدون تدخل الهيئة الحاكمة ، فان
 مجرد اتحادهم في مجتمع واحد أوحى اليهم بالمقارنة بين كل
 منهم وسواه .. والفوارق على أنواع : أبرزها الثراء ، والمرتبة
 والمكانة ، والنفوذ ، والمواهب الشخصية .. ولقد بدأت
 الفوارق بهذه الأخيرة ، ثم انحطت حتى بلغت الاولى ..
 اذ بالثراء يستطيع الفرد أن يبتاع أية امتيازات أو فوارق
 أخرى . ومن هنا نرى كيف انحرف الناس عن قوانينهم
 الاصلية ، أو دستورهم الاول ، وانحدروا الى اقصى درجات
 الفساد .. وفي وسعى أن أبين بأسسهاب ، كيف أن حب
 الشهرة والظهور ، هو مبعث
 المنافسة ، والنجاح ، والفشل ،
 بل هو مبعث كل ما نمتلك من
 فضائل ورذائل ، ومن معرفة
 وخطأ ..



ولو مضينا قدما في الحديث
 عن عدم المساواة . لوجدناه
 بسوقنا الى بحث فوائد ومساوىء
 كل نوع من الحكومات ، لما لها
 من علاقة بالانسان في الوضع
 الطبيعي .. والى بحث جميع

النواحي المختلفة التي ظهر فيها عدم المساواة ، أو التي قد يظهر فيها في المستقبل ، تبعا لطبيعة الحكومات العديدة المتباينة وما قد يدخله عليها الزمن من تحويرات وتغييرات .. واذ ذاك نرى أن الجموع انما تتلقى الظلم من بين صفوفها ، نتيجة للاحتياطات التي تتخذها لتحمي نفسها من الطغيان الاجنبى .. ونرى أن الظلم يشتد باستمرار ، دون أن يتهدى للمظلوم أن يدرك الحد الذي ينبغي أن يقف عنده ، أو الوسائل المشروعة التي تبقت له كي يوقفه ويكبح جماحه ! .. ونرى كيف ان الاساليب التي يلجأ اليها الحاكم الظالم لا تلبث أن تصرف الناس عن أعمالهم ، وأن تحول الابطال المدافعين عن البلاد الى أعداء لها ، وأن تضطربهم الى أن يشهروا سلاحهم في وجوه اخوتهم في الوطن .. وفي غمرة هذه الفوضى ، يبتلع الاستبداد كل ما تبقى سليما ، ويوطد دعائم صرحه على أنقاض الامة .. وينقلب الحاكم طاغية .. وهذه آخر درجات عدم المساواة .. بل هي النقطة التي تكمل الدائرة ، ونردنا الى حيث بدأنا ، اذ يرجع بمقتضاها الاشخاص - كأفراد - الى المساواة الاولى ، لانهم غدوا سواسية في العبودية ، وأصبحوا ولا قانون لهم سوى ارادة حاكمهم ، ولا سلطان على هذا الحاكم سوى نزواته ، وقد تلاشت كل بواعت الخير وحوافزه .. وهنا تكون العودة من جديد الى قانون الغلبة للأقوى ، والى الوضع الطبيعي وقد تجرد من نقائه وشاعته في أرجائه عوazel الفساد ! وبهذا يصبح العقد الاجتماعي - الذي قامت بمقتضاه الهيئة الحاكمة - مفسوخا ، اذ أن المستبد لا يستمد بقاء سلطانه الا من بقائه أقوى من سواه .. ومن ثم فان انقضاء أو القضاء عليه يكون عملا مشروعا .. فان الغلبة للأقوى !

وأهم ما أنتهى اليه بعد هذا الاسهاب في الحديث عن عدم المساواة وبيان ما تؤدي اليه من عواقب ، هو أن الارادة العامة وحدها هي القادرة على توجيه قوى الدولة نحو الهدف الذي

قام عليه وضعها ، ألا وهو الصالح العام . ومن ثم فإن السيادة
 لـ السلطان ، معناه ممارسة الارادة العامة ، وبالتالي فهو
 لا يعمل بوحى من ارادته . . ولهذا السبب فإن السيادة - أو
 السلطان - لا يقبل التحويل ، ولا يقبل التجزئة . . لان
 الارادة اما أن تكون عامة شاملة - ومن ثم تكون رغبة من
 الشعب وتصبح قانونا - واما أن لا تكون عامة ، بل مجرد رغبة
 من شخص أو أشخاص معينين فيخرج تمردهم بها عن نطاق
 السيادة وحدود الحكم . . إذ أن القانون إنما هو تعبير عن
 ارادة عامة ، وليس للهيئة الحاكمة - أو السلطان - أن تسن
 تشريعا يقتصر على جزء ممن يؤلفون الدولة ، لان هذا معناه
 أن الارادة العامة تدخل فى علاقة خاصة مع قوم معينين ،
 وهذا ما يناقض طبيعتها . .

الحرية والمساواة هما أهم الاهداف

♦ **ومن ناحية أخرى** فإن المشرع الحكيم لا يبدأ بكتابة
 قوانين تبدو صالحة فى أسلوبها وكلماتها ، وإنما هو يتلفت
 حوله أولا ليستبين ما اذا كان الناس قادرين على تقبلها
 والتزامها . . ويجب أن يضع نصب عينيه اعتبارات كثيرة :
 منها موقع البلاد ، وطبيعة أرضها ، وكثافة سكانها ، وتاريخها
 القومى ، وميول أهلها وحرفهم . . الخ
 ومن الاعتبارات الهامة ، مساحة الدولة . . فهناك حدود
 لكل دولة ، اذا تجاوزتها تعذر حكمها حكما صالحا ، واذا قلت
 عنها كانت من الصغر بحيث يتعذر عليها أن تعمل نفسها
 وتصون كيانها . . ولكل هيئة سياسية حد أقصى للقوة
 لا ينبغي أن تتجاوزه والا تعثرت وسقطت . . وكلما اتسع
 نطاق المجتمع ، تفككت عرى الرابطة التى تربطه . .
**والواقع أن القوة أو الاتساع ليسا أهم الاهداف ، بل ان
 أهمها جميعا هما : الحرية والمساواة ، وهما الغاية التى يجب
 أن يتجه اليها كل نظام تشريعى . .**

ولما كانت الهيئة الحاكمة لا تعمل بغير القوانين ، وكانت القوانين تحتاج الإرادة العامة ، فإن الهيئة الحاكمة لا تستطيع أن تعمل إلا إذا اجتمع الناس وعبروا عن إرادتهم . ومن ثم كان لزاما أن تعقد في فترات محددة ثابتة ، اجتماعات للشعب لا سبيل إلى الغائها أو أرجاء اجتماعها . . .

الشعب الانجليزي ليس حرا !

♦ وقد أفضى هذا إلى ابتكار انتخاب النواب أو المندوبين الممثلين للشعب في الجمعيات الوطنية . ولكن السيادة لا يمكن تمثيلها بمندوبين لأنها تتمثل في الإرادة العامة ، والإرادة العامة لا يمكن أن يعبر عنها التمثيل أو المندوبون ، على أنها . ومن هنا نرى أن الشعب الانجليزي مغدوع فيما يعتقد من أنه حر لأنه يتمتع بنظام برلماني . والواقع أنه لا يتمتع بالحرية إلا في فترة انتخاب أعضاء البرلمان فحسب ، وبمجرد أن تتم عملية الانتخاب ، يترد إلى نوع من العبودية .

غير أن من النتائج المنطقية المترتبة على العقد الاجتماعي . أن الغلبة للأغلبية في جمعيات الشعب ، أي المجالس النيابية . . والقانون الوحيد الذي يتطلب إجماعا تاما من الشعب كله هو العقد الاجتماعي . . ولكن ، كيف يكون الإنسان حرا ، وهو يخضع في الوقت ذاته لقوانين لم يوافق عليها . . ؟ وأجيب على ذلك بأنه إذا ما عرض قانون على الجمعية الشعبية ، فإن المسألة لا تتمثل فيما إذا كان المواطنون يقرونه أو لا يقرونه ، وإنما هي تتمثل في : هل يتفق هذا القانون مع الإرادة العامة أو لا يتفق . . ؟ فإذا أقرته الأغلبية في الجمعية . كان هذا برهانا للأقلية على أنها أخطأت إذ حسبت أنها تتمثل الإرادة العامة للشعب ، وبمسئورته يعتبر أفراد الأقلية مساهمين - كأعضاء في المجتمع - في وضعه ، مادام معبرا عن الإرادة العامة ، وبالتالي يلتزموا بالخضوع له . .

أخلص من كل هذا العرض الى أنه لا يكاد يوجد في الوضع الطبيعي - الذي فطر عليه الانسان - شئ من عدم المساواة ، وانما نشأ كل ما يسود المجتمع الآن من عدم المساواة ، نتيجة اشتداد ونمو مواهبنا ، ونتيجة تقدم العقل البشري .. ثم توطد واكتسب صفة الدوام وشرعية وجوده باقرار حق التملك ، وباصدار القوانين ..

سكك حديد جمهورية مصر

تبادل النقل بين محطات سكك حديد جمهورية مصر
وسكك حديد السودان

يشرف مدير عام مصلحة سكك حديد جمهورية مصر باعلان الجمهور بأنه قد تقرر تقدير أجور نقل جميع البضائع المصدرة الى محطات سكك حديد السودان بذات الاجور المعمول بها في النقل معليا بدخل الجمهورية المصرية .

اعلان

تقبل المطاءات بمكتب السيد مدير ادارة الميزانية والمقاول والمشتريات بوزارة الداخلية لقاية ظهر يوم الاربعاء ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٥٤ عن توريد ١٠٢ طن قش ارز لازمة لحيوانات البوليس عن سنة ٥٤ - ١٩٥٥ ويمكن الحصول على الشروط من المكتب عالياه مقابل ٢٠٠ مليم يضاف اليه ٢٠ مليميا اجرة البريد وتقدم الطلبيات على ورقة تمفة من فئة ٥٠ مليميا

٨٦١١

اعلان

تقبل المطاءات بمجلس المحلة الكبرى البلدى حتى ظهر يوم الاربعاء ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٥٤ عن توريد ١٥ عربة بكليش ١٢ عربة قمامة مفبرد وتطلب الشروط والمواصفات والرسومات من المجلس على ورقة تمفة فئة خمسين مليميا نظير دفع مبلغ جنيه وخمسمائة مليم للنسخة الواحدة بخلاف ستين مليميا اجرة البريد وكل عطاء لا يرفق به تأمين ابتدائي قدره ٢ في المائة لا يلتفت اليه .

٨٥٩٣

عزيزي القاري ...

قدمت لك في هذا الباب في الأعداد
الماضية المسرحيات العالية الآتية :

- ✱ خطابا الحب : لاوسكار وايله
 - ✱ الحب الآثم : تولستوى
 - ✱ نزاعة الحكم : جوجول
 - ✱ سلاح المرأة : اريستوفان
 - ✱ فولبون : بن جونسون
 - ✱ جيوكندا : دانونزيو
 - ✱ كلام الناس : جوزيه اشيجاراي
 - ✱ مدرسة الفضائح : شيريدان
 - ✱ سيرانو دي برجراك : روستان
 - ✱ لعبة الحب والموت : رومان رولان
 - ✱ مروحة اللبدي وندرمير : وايله
 - ✱ فاوست : جيته
 - ✱ اوديب الملك : سوفوكلي
 - ✱ في سبيل الحب : جون درايدن
 - ✱ وليم تل : شيلتر
 - ✱ الأم : مكسيم جوركي
 - ✱ الملك يلهو : فيكتور هوجو
 - ✱ الذبيحة : اندريه اوبيه
 - ✱ الجنس الآلى : كاريل كافيك
 - ✱ الابن الاكبر : جانزودني
 - ✱ هرثاني : فيكتور هوجو
 - ✱ ترويض النمرة : شكسبير
 - ✱ الحياة نفاق : لويجي بيرونيللو
 - ✱ الحلال الحب : ستيف باسير
 - ✱ المتعلق (طرفوف) : موليير
- واليوم نقدم لك فيها بل هذه
المسرحية الحديثة التي تمثل على مسارح
باريس منذ شهور بنجاح كبير ..

عندما ترفع
الستار ..



روائع
المسرح
العالمي
(أنتيبل-والفنان)



الليلة

قصة غشيلية كبرى للروائي الفرنسي المعاصر "تيري مولييه"



عرض وتلخيص : الاستاذ انور لوقا

عزيزى القارىء

♦ قدمت لك في المجلدين ٢٢ و ٢٣ من (كتابى) خلاصة كتاب (آلهة ومقابر وعلماء) ، ثم مسرحية (لعن الريح) ، اللتين تولى تلخيصهما الاديب الاستاذ انور لوقا ، الحاصل على ليسانس الآداب من جامعة القاهرة منذ اربع سنوات ، والذي يكمل الآن دراسته بجامعة السربون بباريس ليحصل منها على دكتوراه الدولة .. وقد التفتت به اخيرا فى باريس ، فوجدته منهكما فى جمع مادة كتاب شائق وهام عن « خفايا اسرة محمد على » ، استقاه من مذكرات مستغفية للمستشرق الفرنسى « دالين » الذى امضى من حياته ١٧ عاما فى مصر ، عمل خلالها فى خدمة كل من : محمد على ، وابراهيم ، وعباس . ثم عاد الى مصر فى عهد سعيد واسماعيل ليكمل دراسته للمجتمع المصرى فى عهديهما .. وخلال ذلك استطاع ان يلقب على الكثير من خفاياهم واسرارهم ومظالمهم ، فسجل فى مذكراته الصريحة هذه اخطر المعلومات التى تناقض وتنقض فلاذ المديح التى صاغها لاولئك الحكام مؤرخون اشتروهم بالمال ! ..

وقد اختلس الاستاذ انور لوقا بعض الوقت الذى يعكف فيه على اعداد كتابه المذكور ، حتى يقدم لقراء كتابى هذه المسرحية الحديثة التى تمثل على مسرح باريس منذ شهور بنجاح كبير :

مسرحية مشيرة ومؤلف شاب

♦ اذا كان ابلغ الكلام هو ما يناسب مقتضى الحال ، فان ابلغ مسرحية تقدمها لنا باريس اليوم هى مسرحية « تيبيرى مونيه » الاخيرة : (بيت الليل) * فموضوع هذه القصة هو الموضوع الذى يسيطر على العالم بأسره .. هذا القلق الذى يملأ صفحات الجرائد صباحا ومساء ، ويصطدم به فكرك كلما نظرت فى حياتك وفى مشاكلك المادية والمعنوية : فاقصداك وما تملغه

من الرخاء أو القلة ، وحررتك وما تجد من ضيق أو تفريج ، وراحتك وما تحس به من أمن أو اضطراب ، وعواطفك التي تطفئ على مصالحك ، أو مصالحك التي تطفئ على عواطفك ، ووضعك في منتصف القرن العشرين بين الحق والواجب ، وما أصبحت عليه علاقتك بالمجتمع وعلاقتك بالفرد ، كل ذلك مرتبط بانثار الماضي الذي لم يكد ينقضى ، وعلائم المستقبل الذي يوشك أن يحل . وهذا ما تتناوله قصة « بيت الليل » . هي اذن قصة الفرد والجماعة ، وملحمة العقل والعاطفة ، كما يحددها موقف الانسانية في العصر الحاضر .

هي قصة المرأة التي تخون زوجها حرصا على حياته ، والمواطن الصالح الذي يخاصم المواطن الصالح . هي قصة المادة التي تنكر العاطفة ، والحياة التي تباي أن تجسد في فوالب المادة .

وايست طرافة الموضوع وحدها أو مناسبتها لمقتضى الحال هي التي تثير إعجابنا بهذه المسرحية . فهي بلا شك مسرحية قوية جريئة تعبّر عن أزمة الضمير الانساني الراهنة . ولكنها فوق ذلك - من ناحية الصياغة الفنية - اثر متقن ممتاز ، قد ارتفع بها مؤلفها الى درجات النقاء والصفاء والتركيز التي تميز في المسرح الفرنسي الكلاسيكي ، وبخاصة مسرح «راسين» فالمؤلف - وهو في الخامسة والأربعين من عمره - اديب واسع الثقافة ، عميق الفكر ، مرهف الذوق . تخرج عام ١٩٣١ في مدرسة المعلمين العليا ، تلك التي أنجبت لفرنسا معظم أدبائها في الأجيال الأخيرة . وسرعان ما أدار ظهره للتعليم وللجامعة ، وفرغ للتأليف والنقد الادبي والمسرحي ، فقدم كتابا رائعا عن راسين ، واقتبس للتمثيل الحديث بضع مسرحيات من الأدب القديم ، وما زال يحرق الصفحة الأدبية بانتظام في جريدة حية فنية هي صحيفة COMBAT وقد أخذ نجمة الآن يتألق في سماء المسرح الفرنسي بجداراة .

بين تييري مونيه ورأسين

♦ فهم تييري مونيه عبقرية رأسين ، واستكنه كيف استطاع الكاتب الكبير أن يحقق المثل الأعلى للمأساة التي لم يكن بد من أن تجري حوادثها في يوم واحد من أربع وعشرين ساعة لا أكثر ، وفي حدود منظر واحد لا يتغير ، وأن تعرض موضوعا واحدا محكم العقدة واضح المدار . وقد أشاد برشاقة رأسين في حمل تلك القيود البلاغية العتيقة وتضييقها على نفسه ، حتى نقى فن الانشاء المسرحي من شوائب الملابس الكثيرة الغريبة ، وسخف المفاجآت غير المعقولة ، وفوضى الحركات التمثيلية التي تطرأ من الخارج على الأشخاص والمواقف . ولمس الناقد الشاب أن رأسين حقق هذا المثل الأعلى للمأساة ، لأنه استجاب قبل كل شيء لسجيته الصادقة المرهفة التي استحوز عليها نقاء الطبيعة وبساطة الحقيقة ، فكان أن اتخذ من العواطف وتطورها في القلب مواضع مسرحياته ، وصور لنا النفس الإنسانية ازاء مصيرها عارية ، مجردة من ثياب الرياء والصنعة والتكلف . .

وكان القدماء يجدون موضوع مأسيتهم بوجه عام في اصطدام ارادة الانسان بارادة القدر . وقد نقل « تييري مونيه » هذا الصراع من السماء الى الارض ، أو مما وراء الطبيعة الى الواقع ، ومن العصور الغابرة الى العصر الحديث ، فعرض علينا في هذه الرواية نزاع الفرد والجماعة ، وصراع النفس التي تنشد الحرية والسعادة ضد المذاهب التي تريد إلغاء هذه الحرية وهذه السعادة في سبيل حرية الإنسانية جمعاء ، وسعادة الإنسانية جمعاء . . ولكنه صرح بأنه لا يكتب في السياسة ولا يحب أن يخوض غمارها ، وإنما اختار بعض أبطاله من الشيوعيين وبعضهم الآخر من غير الشيوعيين لأن في تعارض هؤلاء وأولئك مادة رائعة للكاتب المسرحي . فهناك أزمة وانقسام والتحمام ، والمأساة المسرحية لا تعرض الا أزمة

وانقساماً والتحاماً - وأنه ليركز هذه الأزمة في نفر قليل ، وفي زمن قصير لا يتجاوز الساعات الثلاث التي يستغرقها التمثيل - وأنه ليحاول أن ينأى بها عن الجدل العقلي - فالمناقشات الفلسفية والمنطقية تثير ملل النظارة وتقتل الحياة الجارية على خشبة المسرح - وهو يفلح في أن يجعل العاطفة هي المسيطرة على أشخاص قصته من رجال ونساء - وكما كان راسدين يتخذ موضوع مأساته من إحدى العواطف الكبيرة - كالحب أو الوفاء مثلاً - نلتهم هذا البطل أو تلك البطلة ، فان تييرى مونييه يتخذ موضوع « بيت الليل » من الشفقة - وبألها من عاطفة عميقة مستحكمة عاتية !

ليس في هذه القصة المتأززة اذن - وان أثارت سخط الشيوعيين - دعاية لأى مذهب سياسى ، فهي لا ترمى الى اثبات فكرة أو رأى ، ولا تميل مع أهل اليمين ولا مع أهل اليسار ، وانما تحاول أن تنفذ الى أعماق النفس الانسانية في مأساتها الحالية ، كما صنع القدماء ، وبالأخص « راسين »

- ١ -

♦ نحن فى داخل بيت واقع بين حدود دولتين من دول أوروبا الوسطى ، فمن الشرق حدود جمهورية شعبية خاضعة لأوامر الحزب الأعلى ونواحيه ، ومن الغرب حدود جمهورية حرة - ويبدو على أثاث القاعة وجدرانها آثار التلف الذى لحقته الحرب بالمكان منذ وقت غير بعيد : كراسى بعضها سليم وبعضها مبقور ، ومائدة هى لوح من خشب فوق حاملين ، وصفائح « بنزين » فى ركن من الأركان ، وساعة عتيقة ثمينة قائمة بجوار أحد الجدران يشير عقرباها الى الساعة التاسعة عند ارتفاع الستارة ، وتدور دورانها الطبيعى ، أى أنها ساعة مضبوطة تقرأ عليها الوقت الحقيقى . فان أحداث الرواية تجرى أثناء الساعات الثلاث التى تستغرقها مشاهدتنا للتمثيل ، وتنقضى عندما ينتصف الليل .

ونرى فى بيت الليل هذا امرأة ورجلا وفتاة . وقد جلس الرجل والمرأة - وهما من نزلاء البيت العائرين - يلعبان الشطرنج ، ووقفت الفتاة - وهى ابنة البيت - لا تعمل شيئا بل تنتظر وتصيح السمع . .

أما المرأة فقد جاوزت سن الشباب ، هلوع ، ثائرة ، نعام أنها « كونة » من أشرف الحدود للالتجاء الى الغرب ، بعد أن نكل الفلاحون بزوجها « انكونت » الذى كان سيدهم الجبار ، وثاروا منه بأن خلعوا عليه جلد خنزير برى وأطلقوا عليه كلابا ضارية فمزقته اربا اربا ! وأما هذا الرجل الذى تلاعبه - ويدعى أدلر - فيصفرها سنا ولكنه يكبرها رصانة وجدا ، قليل الكلام ، لا يكشف اللثام عن شخصيته ، ولا يكاد يرحب بتوددها اليه وأقبالها عليه ، أقبال المرأة التى انصرف عنها الجميع ، على رجل قد يشفى نفسها مما تجد !

لكن الرجل قلق لتغيب رب البيت « كلوسوفسكى » الذى خرج تحت جناح الظلام والضباب للقاء بعض اللاجئين من الشرق وأعانتهم على عبور الحدود ، ونحن نشاطرهم هذا القلق اذ نسمع طلقات نارية ونباح كلاب خارج الدار ، واذ نسمع أقوال الفتاة « ليديا » - وهى التى اعتادت كل ليلة قدوم نزلاء يفلتون فى عناء من رجال الحدود الشرقية - تشرح لأدلر ماذا يعنى إطلاق الرصاص وماذا يعنى نباح الكلاب ! وما هى ذى تهرع الى المصباح فتطفئه ، فقد استنتجت ان اللاجئين قد اقتربوا من البيت ، وخير لهم ألا يسطع عليهم نور الدار فيظهرهم لرجال الحدود الذين يرمونهم بالرصاص من بعيد ، ويعلو فى الخارج صوت « كلوسوفسكى » كالمستغيث داعيا « ليديا » الى التعجيل بفتح الباب . وفى الظلام يسرع اللاجئون ومضيفهم بالدخول . ثم يضاء النور فنرى القادمين وعليهم علائم الاضطراب والفزع ، لاهتين هروعين ، يستردون علائم الاضطراب والفزع ، يلهثون هرتاعين . .

ويسألهم كلوسوفسكى هل سلموا جميعا من طلقات الرصاص؟ فيجيبه أحدهم - « هاجن » - بأنهم قد نجوا جميعا ، ولكن رفيقه ضل الطريق . بيد أن كلوسوفسكى يصب خمرا ويشرب غير عابىء بشيء . وتخرج ليديا للبحث عن الفتى الضال . وما أرخص الحياة على الحدود ! لن يكون ذلك الفتى المفقود آخر لاجئ يهلك ولا أول لاجئ ينجو . ففى كل ليلة ، ولا سيما فى الليالى الحالكة ، يزحف على بطونهم عبر الاسلاك الشائكة مئات من أهل تلك المناطق الشاسعة الممتدة من شواطئ البلطيق الى جبال بوهيميا ، لاجئون من جميع الطبقات ، ضباط من الجيش القديم ، وأشراف وأغنياء ، وسجناء أفلحوا فى الفرار من معتقلاتهم ، وعمال ، وفلاحون طردوا من أراضيهم ، أولئك الذين يهربون من الجوع وأولئك الذين يهربون من الخوف . . . وكثيرا ما تكون بينهم عائلات مؤلفة من خمسة أفراد أو ستة ، قد لا يصل منهم الى هذا البيت الا اثنان أو ثلاثة ! ألم تبلغ الدار ذات ليلة امرأة تحمل على كتفها طفلها وقد كهمت فاه بهلغتها لتكتم صياحا خليقا بأن يفشى أمرها ، وحين كشفت وجهه وجدت انها اسرفت فى تكميته وأنه قد فارق الحياة منذ ساعات طوال ؟!

وتدخل ليديا مقتادة « كراوس » ممسكة بيده . وانها لتنظر اليه برهة قبل أن تترك يده ، ثم تنظر اليه نظرة أطول ، فهى لم تر وجهه فى الظلام المطبق خارج الدار . وتدعوه الى الجلوس بجوار المدفأة ، ثم تسأله هل يرغب فى تناول شراب ما ، فيحسده رفيقه « هاجن » على هذه العناية التى لم يلقها سواء . وتحسد « الكونتة » تلك الفتاة الرقيقة على صيدها الثمين ، سائلة اياها فى خبث هل تصيب فتى وسيما كهذا كل ليلة ، فتستدير « ليديا » وتخرج كالغزال النافر .

ويقص كلوسوفسكى قصتها ، فهى ليست ابنته ، وانما هى صبية جرفها الى ذلك المكان سبيل من اللاجئين فى نهاية الحرب

عام ١٩٤٥ . وكانت تلك الدار قد فقدت أهلها ، وكان هو قد فقد داره ، فالتقط الصبية المتخلفة من جمهور الهاربين ، كما التقط صفائح البنزين والساعة ، وأثت البيت بها جميعا . وكانت ليديا اذ ذاك في نحو العاشرة من عمرها . لم تقبل له قط ماذا رأت قبل أن تلقىها الأحداث الى الحدود . لعلها رأت قريتها تحترق ، وأهلها يتلفون في نار ذات لهيب . . ولا بد أنها رأت أشلا، متناثرة في كل مكان ، وجنودا بواسل ينتهكون أمها ، وينتهكون عذاري القرية ولا حول لهم ولا قوة !

على أن مصير هذه الشرذمة الحالية من اللاجئين مصير غامض مجهول . فلئن كانوا قد اجتازوا الحدود الشرقية فانهم لم ينتهوا بعد الى أرض الجمهورية الغربية . والجمهورية الغربية قد أغلقت حدودها في وجه الجميع منذ ثمان وأربعين ساعة ، ظنا منها أن جارتها الشرقية قد دسمت إليها عددا من الجواسيس ، أو عجزا منها عن ايواء هذه الحشود الجاررة من الناس . على هذه الشرذمة اذن أن تفضى الليلة في هذا البيت ، وان غدا لناظره قريب . .

ويصعد بهم كلوسوفسكى ليرشدهم الى غرفهم ، ولكن «فرانز ورنر» و «كاترين» - ولا نعلم من أمر هذين اللاجئين شيئا بعد - يبقيان ليتحدثا فيما بينهما حديثا خاصا يكتبانه عن الآخرين . لم تكن كاترين تعلم الى أين سيمضي بها فرانز، فقد سالها منذ بضعة ايام ان تأتي معه دون أن يستطيع مفاتيحتها بسبب رحيله ولا بوجهته . ولقد وثقت به ثقة عمياء لأنها تحبه ، وان كانت تعاتبه في رفق على ما ساوره من قلق ومن شك في اخلاصها، اذ خطر له أنها قد تكون من جواسيس الحزب عليه ، غير انه يؤكد لها حبه بما فعل وما يفعل . فهو يريد ان ينتشلها من عالم القدر والنسيمة والريبة ، من عالم يحذر فيه الزوج زوجته والأخ أخاه ، من عالم يتهم فيه الولد

آباء بالخيانة على رؤوس الأشهاد ويدعو المحكمة الى اعدامه !
 .. من عالم يشترى فيه المرء حياته - بل أياما معدودة من
 حياته - نظير هوانه وتحقير نفسه - ها هما يديران ظهرهما
 لذلك العيش الرهيب ويقبلان على الطمأنينة والقـــرار
 والسعادة ..

وتكن كاترين تشعر بانها افتقرت ذنبا ، وبانها تختلس
 السعادة اختلاسا . فان للسعادة ثمنا لم تدفعه هي . ذلك
 انها انتزعت فرانز من أحضان زوجته « ليز » ، لكنها تغشى
 أن يظل محتفظا بشيء من عاطفته الأولى .. فان المرء لا يدير
 ظهره لماضيه كما يديره لحدود بلد من البلاد ! وان ذكرى تلك
 الزوجة لخليقة بأن تلاحقهما وتفسد عليهما أصفي الأيام
 المقبلة . وهنا يعترف فرانز بأنه قد أمسى خالص النية مرتاح
 الضمير ، فقد عرض على امرأته أن ترحل معه - وان كان
 ذلك تهورا منه - أفليس بين الزوج وزوجته، مهما كانت
 الظروف ، واشجة عميقة من الالفة والتضامن والبؤس المشترك
 تجمعهما دائما كما تجمع السجينين المكبلين سلسلة واحدة
 يجرانها معا في كل خطوة نحو الموت ؟ بيد أن « ليز » امرأة
 ضئيلة الفكر ، ضيقة الأفق ، لا تقدر كبار الأمور ، ومن
 طبيعتها أن تزحف لا أن تطير . بذلت كل جهدها وعنادها
 لتعيد الوفاق بينه وبين رجال الحزب ، لا عن اقتناع منها
 بأن رجال الحزب على حق ، بل تلافيا للأخطار التي يترسّض
 لها زوجها الوزير ، وتجنبيا للعقوبات التي لا بد أن تقوم في
 سبيله اذا هو جهر برأيه وأظهر استقلاله . ولو أنه أطاعها
 لظل قويا في مركزه السياسي ، جبان النفس مستعبدا ذليلا في
 واقع الأمر . وكان للاحاحا عليه وحرصها على السلامة
 وتشبيها بالباطل أثر الداء العدوى ، فقد كان يدوى في خاطره
 أحيانا صدى ما تلقنه ، ولم يكن له بد من الفرار لتوقى تلك
 العدوى . فتسأله كاترين :

— أفلم تحبها قط ؟

— أين يبدأ الحب وأين ينتهى ؟ ان الأمور ليست بهذه البساطة ، حتى بالنسبة لجسمين يتحدان • ومن ذا الذى يستطيع أن يشرح جميع ما يشور فى ضمة جسمين من الضيق ازاء الوحدة وازاء الموت •• من الهزل ، ومن البغض •• من الحنان ومن الالهانة •• من الرحمة ومن الوجد ؟

— اذن فقد كانت جزءا منك • ألا ترى أننى فى حاجة الى أن أحس بأنها عدو ، وأن أتوقع من ناحيتها الخطر علينا ، ولا سيما الآن ؟

فياخذها بين ذراعيه ، ويحاول أن ينسيا الزوجة المهجورة وأن يذكرها غرامهما • ويفمرهما البشر اذ يفكران فى أنهما مقبلان فى غدهما على أوروبا ، فان الدنيا الآن لهما ، من ألمانيا التى نضرت بمدنها الجديدة كالغابة استعادت خضرتها بعد حريق ، الى باريس التى تمد قصورها الزاخرة تحت سماء الاخاء الانسانى ، الى انجلترا التى تبرز صخور شطآنها من الضباب كذهب تاج يطفو على صفحة البحر ، الى ايطاليا الفنية — رغم فقرها — بثور الشمس وبهرج المرمر وأغاني الفرح ••

ويفبقان من حلمهما اللذيذ على صوت امرأة تستغيث فى خارج الدار ، صوت سمعته « الكونتة » أولا ، ثم سمعه رب البيت فهبط يستطلع الأمر تصحبه ليديا • ويكره العاشقان أن يزدحم القوم من حولهما فيقطعوا عليهما نجواهما • ويصعدان اذن الى غرفتهما • ولا يلبث كلوسوفسكى وليديا حتى يعسودا من الخارج ومعهما امرأة فى حالة اعياء شديد ، لا تكاد تملك القدرة على الكلام • فيقدمان لها قدحا من الخمر تحسوه جرعة جرعة ويعود اليها صوابها • عجيب أمر هذه المرأة ! فانها عجيبة تريد أن تواصل طريقها فى الحال لتبلغ بيت كلوسوفسكى ! ويندهش الجميع اذ يرون من حديثها أنها قد عبرت الحدود

الشرقية بسهولة اعجازية . وانها لم تدرك بعد انها انتهت فعلا
الى بيت كلوسوفسكى ، وان كلوسوفسكى هو هذا بعينه الذى
يخاطبها . اذ ذاك تساله هل اتى لديه الليلة رجل ؟ فيجيبها
ساخرا : بل رجال كثيرون ! ولكنها تبحث عن رجل واحد ،
رجل أسمر ، طويل القامة ، تصحبه فتاة . انها تريد أن تراه ،
وان تراه بمفرده . فيصعد رب الدار ليدعوه . وتنصرف
الكونتة مع أدلر ليستأنفا مباراة الشطرنج . ويقترب الرفيقان
. هاجن . و . كراوس . ويحتلان صدر المسرح .

ويتضح لنا من حوار الرفيقيين انهما من أعضاء الحزب فى
الدولة الشرقية ، وأنهما أقبلا للقيام بمهمة خاصة - وان كانا
لا يعرفان ماذا سيؤديان على وجه التحديد ! - على أن لكل منهما
شخصيته وصفاته . فهاجن رجل يشعر بالحياة من حوله ،
ويتكلم ، ويبتسم ، ويعلق على كل شيء تعليقات انسانية
صريحة . أما كراوس ففتى ساكن صارم ، لا يتكلم كثيرا ،
لأنه لا يفكر كثيرا ، ولا يرى فى الحياة الا طريقا واحدا
مرسوما هو طريق الحزب الأعلى . يستبشر هاجن فى شيء من
السخرية بأن رحلتها الشاقة لا تخلو من ترفيه ، فها هي
ذى امرأة نالته تطف الى البيت . وهو وان كان يعرف شخصيتها
الا انه لا ينظر فيها لغير « المرأة » . على حين لا يرى فيها
كراوس - وهو يجهل شخصيتها - الا واحدة من الطبقة
« البورجوازية » تبدو عليها النفاة ، ولا يأسف على أن تلوذ
هى وامثالها بجمهورية الغرب ، اذ ينبغي أن يتخلص الشرق
من تلك الطبقة على كل حال . ومعرفة هاجن بها معرفة جيدة ،
فقد سبق له أن راقصها مرتين أو ثلاثا بل وطارحها الغرام ،
تنفيلا لأوامر صدرت اليه . فيسأله كراوس :

- من تكون ؟

- لا أعنا فيها . انى متأكد من انك تفضل ليديا .

- ليديا ؟

— ليديا التي هدتك سواء السبيل في الظلام والضباب والخطر

— ألا تظن أننا نستطيع أن نتحدث في جد الأمور ؟ أتري أن نظل محاصرين في هذا المكان ؟

— وما العمل ؟ إذا نحن حاولنا أن نتسلل خلال الحدود الغربية تعرضنا لخطر الاعتقال وانكشفت حقيقتنا . اليس من الخير أن ننتظر وأن نخفى عن العيون ما استطعنا ؟ هل لديك تعليمات عن المهمة ؟

— كلا . اسم وعنوان فقط . وهناك سيقولون لي ماذا أفعل . وأنا منلك ليست لدي معلومات أكثر

— هذا أفضل . فنحن متى صرنا بين أهل الغرب أصبحنا على أرض العدو ، وخيرا فعل رؤساؤنا إذ حمونا من أنفسنا بكتمان سر المهمة عنا !

— نعم ، لا ثقة الآن في أهل الثقة

— وانهم على حق ، فالقاعدة هي ألا تثق في شخص قط . انك تعتقد انك موضع للثقة ، واني اعتقد اننى موضع للثقة ، ولكن قد يحدث أن نتورط كلانا في الخطأ !

— أنا أحب على الأقل أن يستخدموني حسب اختصاصي

— حسب اختصاصك أم حسب ذوقك ؟ ان الجبهوية الشعبية لا تسألنا أن نصنع ما نحب ، بل أن نصنع ما يجب !

— ألا تعتقد أن المرء يجيد ما يصنع إذا هو صنع ما يحب ؟

— ينبغي أن يصنع المرء أيضا ما لا يحب ، وأن يجيده نفس الإجابة !

— أهذه هي أول مهمة تنهض بها في الغرب ؟

فلا يجيب كراوس ، بل يتجه الى النافذة ، ويحاول أن يغير مجرى الحديث . الا أن حاجن يذكر ما اجتازا من هول عند عبورهما الحدود الشرقية ، ويبدى دهشته من أن الحزب له نبى ، رجال الحدود لكي يفسحوا لهما الطريق ، بدلا من اطلاق

الكلاب عليهما وإطلاق الرصاص .. ولكن كراوس يرى في ذلك حكمة التمويه على أصحاب الحدود الغربية . ثم يدعو هاجن صاحبه الى الشراب فيرفض :

- انى لا اشرب قط ، ما لم أتلق أمرا بالشرب

- ولا فى مناسبة غير اعتيادية ؟

- ليس فى حياتى مناسبات غير اعتيادية

- سيأتى يوم مماتك !

- يوم مماتى يوم عادى

- ليكن . أما أنا فأشرب ، أشرب نخب ليديا ..

- ما دام ذلك يلهيك

- ... ونخب الرجل الخطير الذى يشرفنا بالنزول معنا

الليلة فى هذا البيت المتواضع .

- أى رجل خطير ؟

- زوج الباكية الحسناء : « فرانز ورنر » !

- فرانز ورنر ؟ رئيس جماعة « الاشتراكيين الاحرار »

وزبير الدولة ؟ .. انك تهزأ بى !

- لقد كسبت الرهان . فقد راهنت نفسى على أننى سأخرج

كراوس من سكونه وأراه مضطربا

- فرانز ورنر .. هارب الى الخارج ؟

- فيما يبدو ..

- أما استطعت أن تنبئنى من قبل ؟

- أمامنا متسع من الوقت ، فإن الحدود الغربية مغلقة

دوننا جميعا ..

- ينبغي يا هاجن ألا يعبر فرانز ورنر الى الخارج !

- ٢ -

♦ ما أقسى لقاء المرأة المهجورة بزوجها الهاجر ! وأيهما

الذى يقسو على الآخر ؟ لكل منهما نفسه ومشاعره وموقفه ..

فكلاهما عادل في جوره ، جائر في عدله ! هذه « ليز » متولاهة
ملتاعة ، تنفت وجدها . تقول لفرانز انها اقتضحت الأحوال
لثلق به . وان اجترعها كأس الموت لأهون عليها من الرضا
بفراقه ! .. لكن «فرانز» لا يلين لها ، وهو الذى لم يستطع
طوال حياته الزوجية أن يميز حديثها الصادق من حديثها
الكاذب ! فتقسم له انها تقول الحق ، وتستغفره وتستعطفه ..
ثم تسأله من تكون تلك المرأة التى اصطحبها فى فراشه ؟ وتجييب
نفسها بانها لن تكون سوى سكرتيرته فى الوزارة ، عشيقته
كاثرين ! وبماذا عساهما تمتاز عليها ، هذه الكاثرين ؟ أتمتاز
عليها بالصبا والجمال ؟ ربما كانت أرق خلقا ، والطف طبعاً ،
وأثبت جاشاً . ولا بد أنها من النساء البارعات فى فن اجتذاب
الرجال وتسييرهم وراءها .. ما الذى أعجبك فيها ولم أقدمه
إليك ؟

وتتدفق عبارات المرأة المكلمة كأنها تهذى ، وزوجها صامت
يسمع ولا يقول لها شيئاً .. حتى تستدرك قائلة :
— كلا ، بل كل ما هنالك هو أنها أشد منى ثقة بنفسها ،
تستطيع أن تخفى جزعها ، وأن تكتم لها . قل لى ماذا أعجبك
فيها ؟ فانى لأستطيع أن أصبح جديرة بك يا فرانز لو أنك
رغبت فى معاونتى على ذلك قليلاً . سأقرأ كتبك . اننى منذ
وقت طويل أريد أن أقرأها . ولسوف تشرح لى الصعب منها
.. انى .. انى سأحاول أن أشبهها !

فيستنكر زوجها منها أنها تمثل أمامه دور المرأة المهجورة ، مع
انها هى التى انصرفت عن حبه منذ أعوام ، وجهرت له بذلك ،
وتصادت فى حماقتها فخانت عهده وارتمت فى أحضان غيره من
الرجال ، وحالفت خصومه ، وأرغمته على الحد من حريته
واستقلاله . أما هى فتعتذر عما سبق من التماسها لرجل
سواء بهاجنتها إذ ذاك الى من يجعلها تحس بالحياة ، بينما كانت
شواغله هى تستأثر به من دونها .. وتعتذر له عن معارضتها

لأرائه بالخوف الذى كان يدفعها الى استرضاء ذوى السطوة والباس الشديد فى الدولة . ثم تخبره بأنها قد مهدت الأمور لانضمامه رسميا الى الحزب ، وما عليه الا أن يعود الى الوطن ، فيجيبها فى حزم :

- عينا تحاولين . لقد رحلت لأنه لا يوجد فى الشرق مكان لى ولا للآراء التى أذاع عنها وأريد الدفاع عنها .

- آراؤك ! آه .. أتصرف أنت ما هى آراؤك ؟ ومن أين استقيتها ؟ هل هى خير من آراء الآخرين ؟ انى أقر أن يترك المرء كل شئ فى سبيل مبادئه اذا لم يكن صاحب اسرة وصاحب بيت وصاحب مال ، اذا كان مجرد طالب او عامل ، اذا لم يكن له فى دنياه شئ . ! أما أنت ! .. انى على كل حال عائلة بأرائك ، فأراؤك هى تلك المرأة !

وينفجر سخط المرأة التى لا تفكر الا بعاطفتها . ولو أن زوجها كان راحلا بمفرده لهان عليها الأمر . فهى لا تستطيع أن تحتمل وصالة لامرأة سواها ، وترفض أن تصود أدراسها خشية أن يثار منه قادة الحزب فى شخصها ! وهنا يعرض عليها فرانز أن تصحبه الى الغرب ، ويعرض عليها ذلك اصالة عن نفسه ونيابة عن كاترين التى ستصبح زوجته . فتشور ليز فى وجهه ، وتلجأ الى استخدام سلاحها الأخير ، سلاح التهديد والوعيد ، وتنبئه بأنها أبلغت أمره فى خطاب عاجل أرسلته الى صديق لها من رجال الحزب ، وأنه سيصبح تحت طائلة بوليس الدولة منذ أن يتسلم الرجل هذه الرسالة فى بريد الصباح . اذن ليس له من مفسر ما دامت الحدود الغربية مغلقة دون الجميع ، ليس أمامه الا سواد الليل يتخذ فيه قراره بالعودة ، اذا كان يفضل العودة وزيرا على العودة معتقلا ! اذ ذاك يتخلى الزوج عن زوجته .. ينبذها ويطردها عنه ، فتتوارى .. وينادى كاترين فيخبرها بما حدث ، ويقضى اليها بأنه تأكد من أن كلوسوفسكى لديه تعليمات خاصة بشأن

مرورها بمجرد أن يبرز له بطاقة معينة . وتبدو ليديا ،
فيسألها في الحال أن تدعو رب البيت .
ويحضر كلوسوفسكى . ويطلعه فرانز على البطاقة ، فيخرج
وريقة من جيبه ويقرأها ثم يقول :

— ستكون التعليمات الخاصة بكما بين يدي الضابط الذي
يتسلم حراسة مركز الحدود الغربية في الساعة الحادية
عشرة . لا جمر ك ولا معسكر ، بل الفنادق في انتظاركما .
انى واثق من أنكما لا تفضلان الاستمتاع بضيافتى أطول مما
ينبغي ، موعدي معكما هنا في الساعة الحادية عشرة إلا الربع
لا أخرج بكما إلى الحدود . واحرصا على ألا يعلم بالامر أحد من
النزلاء !

ويخرجون من القاعة بينما تدخل الكونتيسة ، وقد فرغت من
مباراة الشطرنج ، تسأل ليديا أن تسقيها كأسا من شراب
قوى . وتشرب ، وهى تسدى إلى الفتاة الرقيقة نصيحة امرأة
مجربة : ان « كراوس » فتى وسيم لا ينبغي أن تدعه « ليديا »
يفلت من يديها . عليها أن تسعى إليه ، وأن تدهاء بالتجبة ،
وأن تخاطبه بعبارات الاطراء . فان الحياء والتحشم مما يضيع
أثمن الفرص . وليس أفضل من أسلوب امبراطورة روسيا
الشهيرة « كاترين » ، تلك التى كانت كلما أعجبها فارس جميل
استوقفته وقالت له « ترجل عن حصانك وتعال معي » . . .
ولكن ليديا تشك في أن كراوس هو فتى أحلامها الذى تنتظره ،
لان ذلك الذى تنتظره سوف يقف ويتسرجل عن حصانه
بجوارها دون أن توميء اليه ، بل ولن يكون فتاهها من أصحاب
الحياء ، ولنسوف يقف أمامها من تلقاء نفسه ! على أن الكونتيسة
تلقي إليها حكمة الواقع الخبيث :

— ليس الفتى الذى تنتظره هو الذى يتوقف ويسعى اليها ،
وانما هو الذى يمر بنا دون أن نرمقه بنظرة . وأما ذلك الذى
يتوقف فهو دائما فتى آخر غير الذى تنتظره . . .

وتلمح كراوس مقبلا ، فتترك « ليديا » وحدها معه كي تطبق ما نصحتها به ! .. لكن كراوس يجبل بصره في القاعة ثم يعبرها خارجا ، فتدفع ليديا نفسها ذقعا لتخاطبه ، سائلة اياه هل يبحث عن شخص معين ؟ فيجيبها بالاجاب .. لكن هذا الشخص الذي يلتمسه ليس شخصا كما كانت تمنى ، بل هو السيد كلوسوفسكى ، فتتطوع لخدمته في البحث عن صاحب البيت ، دون أن تتحرك من مكانها ، فانها في الواقع راغبة في البقاء حيث هي - أى حيث هو ! .. ويرى الفتى منها ذلك فيعلا فراغ الوقت بشكرها على هدايته السبيل في الظلام حين ضل في بداية الليلة . ثم يسود الصمت ، ويهم كراوس بالخروج ، فتسأله ليديا ما اسمه ، لانها تحب أن تعلم من يكون ..

- وماذا عسى المرء أن يعلم عن شخص اذا عرف اسمه ؟
- منذ وقت قصير ، في الظلام ، كنت أقودك ممسكة بيدك .
وماذا عسى المرء أن يعلم عن شخص اذا أمسك بيده ؟ ومع ذلك ، فالمرء يجد الرضا أحيانا اذا أمسك يدا في يده . وقد يكون الاسم كاليد ، يد هذا الشخص في غيابه ..
رقة وطيبة وثقة غريبة ، يقابلها الجفاف والحدرد والمكر !
هذه الفتاة تريد أن تفضي بذات نفسها ، فيستغل الفتى اقبالها عليه ، ويقف منها في لحظة على سر انفتاح الحدود الغربية لفرانز وكاترين بعد ربع ساعة ! واذا ذاك ينصرف عنها ويسرع الى الاجتماع برفيقة ليتداولا ويحسما الموقف
وبعد نقاش عسير يقرر الرفيقان أن يمضي كراوس لاختطاف البوليس الشرقى ، على حين يمكث هاجن في بيت الليسل ليستبقى الوزير ريثما يحضر من يعتقله !

ويظهر كلوسوفسكى ، فيطرى هاجن أمانته ونزاعته ووفاء الوعد ، ملمحا الى الموعد الوشيك الذي ضربه لرجل وامرأة

من النزلاء سوف يصحبهما بعد دقائق ليجتازا الحدود الغربية .
ثم يدعوه الى المقامرة في مباراة قصيرة لا تستغرق ثلاث دقائق ،
مغريا اياه بكسب مبلغ ضخم من المال . فيجيب كلوسوفسكى
دعوته ويتبادل الرجلان القاء الزهر ، والقاء الكلام . ويدور
حوارهما موازيا للعبهما ، سريعا مقتضيا محكما . كل رمية
تشير اشارة مباشرة الى درجة من أطوار الربح والخسارة
اذا نظرنا الى هذين الفريقين ، وترمز من ناحية أخرى الى
موقف من المواقف بين النجاة والهلاك اذا فكرنا فى مصير
العاشقين الهاربين ! ويضرب هاجن على جميع الاوتار ، فيوحى
الى كلوسوفسكى فى أثناء اللعب بأنه انما يؤدى خيرا ومعروفا
ويحمى رابطة الزواج المقدسة لو هو منع ذلك الزوج من الفرار ،
ثم يمنحه فى النهاية مال الرهان مدحا رغم نتيجة المباراة .
 ويفهم كلوسوفسكى ان ذلك المبلغ - من يد غريم جواد اتقن
الغش فى القمار - ثمن لتمهله المنشود مدة عشرين دقيقة ،
ويخرج صاحب الدار راضيا ليتوارى طوال الدقائق العشرين
التالية ، بعد أن يرسل ليز الى هاجن وفقا لطلبه .

وتسعد ليز بهذا اللقاء المفاجئ ، وتظن أن هاجن لم يأت
الى ذلك المكان الا لانقاذها ، وأنه يخلص لها الحب . ويوحى
اليها هاجن ، وهو يحصى الدقائق امامها ، بأن البوليس يتعقبه
هو أيضا ، ولكن النجاة مكتوبة لهما معا اذا هي أفلحت فى
تعطيل فرائز وكاترين وسبقتهما فى صحبتته الى الحدود
الغربية لاجتيازها بدلا منهما ، فان رجل الحدود لا يعلم من
يكون العابران وانما عليه أن يفسح الطريق لرجل وامرأة
معا . ويلقنها الدور الذى يجب أن تمثله فى الحال : فعند
نزول فرائز وكاترين - أى بعد نصف دقيقة - تتعرض لهما
شاكبة ، باكية ، لاعنة ، متشبثة بزوجها ، فيتدخل اذ ذاك
هاجن ليصلح ما بينهما وينصح الرجل باعطاء مهلة لزوجته ،
وعلى التو يلحق بها ويرحلان . . .

- ٣ -

• وهكذا يدور المشهد الثالث . ونحن ليز النطال والتضرع والانتحاب الى درجة تشككتنا في كذبها وتبر عطف غريبتها كاترين عليها . ثم ينفسرد هاجن بفرايز ، بينما تخرج ليز من أحد الأبواب ، وتخرج كاترين من باب آخر باحثة من كلوسولكى .

ويدير الرجلان بينهما حوارا زاخرا بالمعاني . تتلطم فيه الفكرة بالفكرة ، ويعدم فيه العقل الشعور ، وتسمع خلاله صوت الضمير الإنساني وانعسا رغم هذا الاضطراب وهذا التنازع المحدث . ولقد يعيب النائد على المؤلف طائفته لهذا المشهد ، فقد بلغت الرواية لحظاتها الحاسمة ، وهي لحظات قصيرة عميقة متويزة لا تحمل الإبطاء ولا تحمل الجفيل في القضايا الاجتماعية والأخلاقية والفلسفية . ولكن المؤلف يريد في هذه اللحظات الهامة الخطيرة أن يصب غلامه موضوعه وأن يسجل رأيه . أو بالأحرى آراء هذين الرجلين المتصارعين - وكل منهما يمثل إحدى الكتلتين اللتين يتقسم اليهما عالمنا اليوم - وأما من ناحية الصياغة المسرحية فلا نبار على المؤلف . ومن حق المؤلف أن يطالب فيه ، لأننا نعلم أن هاجن يرمى الى تفسيح الوقت وتفويت الفرصة على فرايز !

يدافع هاجن عن ليز ، ويبين لفرايز أن من واجب الزوج ألا يتدخل في زوجته .. فيرتاب الأخير في أمر العلاقة القائمة بين امرأته وبين هذا الرجل . ولكن هاجن ينفي الرية :

- كلا ! لم تكن خليلتي ، وإن كنت قد غابلتها مرارا . ذلك أنك كنت منصرفا عنها ، وهيئات أن تتحمل المرأة الوحيدة عبء وجودها . لقد جديتي نحوها ، ما وجدت فيها من الحاجة الى معطى . إن النساء لا يعجبن الرجال بقدر ما يعجبن الشعور بأنهن شيء مذكور لدى الرجال . والرجال لا يحبون النساء بقدر ما يحبون الشعور بالسيطرة على النساء ... متى لم زواجك بها ؟

- منذ عشر سنين .

- إذا عاش المرء عشر سنين بجانب امرأة ، كان هو المستور عما تزول اليه !

- لا يا سيد هاجن ! كل مسئول عن نفسه . كل حبيب جلدته في السمعة وفي اليأس وفي الموت . بل وفي الحب أيضا ، حيث يحاول أن يتضامنا . ماذا حساني أقول من أجل ليز ؟

— أن تظل معها ، أن تقلد بجانبها في الحنة . لقد وثقت بك زوجتك .
وأتت تلقى عليها وزر فمئتها كما يعلق امرؤ في رقبة الطحيرة حجرا ثقيلا
ويقلد بها في البحر . هل الإنسان بأكمله مجرد قمل صغير منه ! ألا تجد
في ليز أيضا تلك المرأة التي سكنت إليها ، وتأبطت ذراعك في نزعهاك .
ومددت إليها يدك أثناء النزعة في الريف لتعينها على عبور مجرى جارف ؟
ألا تجد في ليز تلك المرأة التي حملت بك في غيابك عنها وسعدت بك بعض
الليالي في وجودك معها ، تلك المرأة التي كان النوم يحيل وجهها بجوارك
إلى وجه طفلة بريئة . أن هذه الطفلة هي التي تريد أنت القاءها في البحر !
— بأي حق يؤاخذني رجل من رجال الثورة على عدم أكثرائي بامرأة ضمن
ملايين من النساء ؟ حدثني عما يمنيك . حدثني عن الشعوب ، ما يمنهم لا
تتكلمون إلا باسم الشعوب . حدثني عن هذا العالم الجديد الذي تشيدونه
بالعنف والأمل ودم الضحايا ، ولا تحدثني عن ليسز . وما قيمة امرأة
لديكم ؟ ما قيمة ألف بل مائة ألف من البشر ؟ هل تذكر معسكرات الأشغال
الشاقة ، تزجون فيها بمن تسوهم المعارضين والخونة والقاترين ؟ هل تذكر
نقى القوم من أرضهم حتى أغرت أقاليم كاملة ؟ هل تذكر الإرهاب الذي
يدفع آلاف من الرجال والنساء إلى عبور الحدود ، رغم تهديد أبراج
المراقبة والألوار الكثيفة والمدافع الرشاشة وكلاب الصيد التي دربتوها
على قنص الإنسان ؟ انكم تدافعون عن الإنسانية ضد الناس . وإذا كان
ميدؤك قتل الخصوم والمنسوبة فيهم ، أيا كان عددهم ، وإلى أجل غير مسمى،
فكيف تسألني أن أدأ عن واحدة من البشر شبها من الألم ؟ ألا ترى يا سيد
هاجن أنك كمن يدمو الها ولا يؤمن به ؟

— أخطأت فهمنا يا سيد « ورنر » . أننا نقتل لأننا متكلمون من أننا على
حق . ولستنا مؤمنين ، فالؤمن لا يستطيع أن يفعل شيئا أكثر من أنه يؤمن.
لقد كشفنا المعنى الذي يستطيع الإنسان أن يصوغ الدنيا فيه ، وأننا
لنتمكن من أننا كاشفناه . لستنا نؤمن إيمانا ، بل نثبت ألبانا . وأود أن
أعلم باسم أية حقيقة فاطمة أنت تضحى بليز . أنك تضحى بها في سبيل
سعادتك الشخصية الصغيرة ، أي في سبيل لا شيء ... وأنت شخصا
لم تكن في خطر مباشر ، فلماذا ترحل ؟

— لأنني أصبحت أرى التعاون بين حزبكم وبين الإحزاب الحرة مستحيلا
... لأن عاينكم خلاص الناس ووسيلتكم هوانهم !
— أن الدبابات أثناء الحرب تسحق زهر الحقل الفس ، وأنها لخرابة
وخسارة كذلك الأبدان البشرية . غير أننا لاستطيع في سبيلها شيئا .
عائورة ينبغي أن تصنعها من أجل الناس . وفي الوقت نفسه بالناس
وقد الناس . قتل وقتيل . علينا إرداء الناس إذا أردنا أن نحيهم حيا

ينفعهم . وعلينا أن نهدم ، قلن نهدم العبودية ما لم نهدم سادة العبيد والعبيد الذين يحاربون في صف السادة .

– ومع ذلك فقد انهدمت العبودية منذ نحو عشرين قرناً ، وهدمها حب لم يحمل سلاحاً . ذلك لم يقتل سادة العبيد ، بل قتل العبودية في ضمير السادة !

– صادت إحدى صور العبودية قائمة ، فذلك لأن الحب الذي تحدثت عنه لم يكن كافياً .

– ولكنه كان حياً . انريدون الهدم في سبيل البناء ؟ أولئك ملوك آشور الذين شيدوا المروج والقلاع كانوا يبنون جدراناً يسهلون بها أبواب الصوامع التي يلتون في قبابها سجناءهم أحياء . وكذلك تفعلون بضحاياكم فيما تنشئون من المصانع والمدن الجديدة . انى لا أريد سدودكم ، لا أريد مصانعكم ، لا أريد مدنتكم حيث آلاف من العيون مفتوحة الى الأبد تتطلع الى الأحياء من خلال جدران كثيفة ..

– وعبون ليز ، ياسيد ورنر ؟

– عبون ليز ؟

– لسوف تلاحقك صورها . سوف ترى جثة واقفة ، مفتوحة العينين ، داخل جدران بينك الوثير في فرنسا أو أمريكا . ولعل نظرات تلك الجثة لا تضايقك . ولعلها لاضايق صديقتك كارين ..

– انك محام بارع يا سيد هاجن !

– لكل شيء ثمنه . لا سعادة ولا حرية بلا ضحايا . فهسلاً أتصفنا ، نحن رجال الحزب الذين لا نتقاضى الثمن المرفوم ؟ اننا لا نعمل من أجل أنفسنا . اننا نقتل ، نعم ، نقتل لأن لنا عالماً نريد أن نحياه ، لاننا نريد أن نعطي لتاريخ الناس معنى مقبولا . أما أنت ، فلحسابك الخاص ، ولشغفتك الفردية ، ودون كثير من تأنيب الضمير – فيما يبدو – ستقوم بعد بضعة دقائق بنحر ذبيحتك البشرية . الى اللقضاء يا وزير الدولة ، أتمنى لك رحلة طيبة !

– يا سيد هاجن ، اظن اننى سأفعل ما تسالى .

– ستفعل ؟

– اظن اننى سأفعل ، وقد أجاوب بذلك الصواب . هناك صوت آخر غير هذا الذى نصدوه صوت العقل ، صوت آخر نسمعه في أعماقنا ، هو صوت سوانا . صوت الآخرين ، نجاة غيرنا ونجاتنا ، انتصار غيرنا وربما هزيمتنا . وغريب أن تكون أنت الذى اسمعتنى فى نفسى هذا الصوت ، أنت الذى لا تسمع مثله .

وهنا تدق الساعة دقائقها الإحدى عشر ، وكأنها تؤذن لأروع من حلول ساعة جديدة ، كأنها تعلن حلول المصير الأبدى !

- هل وزنت الأمور يا سيد ورنر ؟

- لو أتى وزنت الأمور لكنت الآن على غير هذه الأرض . لا أريد أن أزن شيئاً ، أنت خاطبتني بالعبارات التي من شأنها أن تجعلني أألم لألم ليز ، وها أنا مشلول لا أتمكن .

- ما زال أمامك الخيار يا سيد ورنر .

ثم ينادى حاجن «كلوسوفسكى» ليصحب ورنر ، فيدخل تتبعه كاترين . وبهم كلوسوفسكى باصطحب فرانز وكاترين إلى الحدود الغربية تنفيذاً للتعليمات الأولى ، فدهشة أن الرجل لا يريد أن يتدخل في زوجته . ويقترح كاترين - وقد أتباعا كلوسوفسكى أن رسالة قد وردت أخيراً من مركز المراقبة الغربية تؤذن بالفتح الحدود للجميع في الساعة الثالثة صباحاً - أن يفتل الساعات الباقية لتتمكن ليز من العبور معها . ترى هل انتصر الاخلاص في قلب الرقيق حاجن ؟ فيها هو ذا - وهو يعلم أن في الانتظار هلاك هذين الماشقين - يلج عليهما بمقادة السكك فوراً . لعله كذلك يكون قد أفضى ضميره من ناحية الحزب الذي واجبه ، ومن ناحية ليز إذ سمها إلى زوجها ، ومن ناحية أخوين له في الإنسانية إذ يعثهما على النجاة !

ولا تكاد كاترين تفيق من دهشتها لنحول حاجن من موقفه حتى نسمع جلبة غريبة في الخارج . ويدخل رجال البوليس الشرقي يتبعهم كراوس ، ويستول الرعب على جميع من في البيت ، إلا أننا نستطيع أن نميز صوت ليز تستغيث بهاجن ، وصوت فرانز يستغفر كاترين !

- ٤ -

♦ يامر كراوس باعتقال الجميع ، دون استثناء كلوسوفسكى وليديا المنهمين بتدبير فرار القوم . ويختل برقيقه حاجن ، فيلاحظ حاجن أن صاحبه منتفح الوجه جريح ، أصابه رصاص حراس الحدود . ويستنكر القرار العاجل الذي اتخذته رجال الدولة ، والذي أب الرقيق كراوس ليضطلع بتنفيذه . القرار القاضي بإعدام جميع أهل البيت رعباً بالرصاص ! نعم ، تلك أضمن وسيلة لكتمان سر التخلص من « ورنر » . ولكن ما ذنب أولئك الذين ألقى بهم سوء الطالع إلى بيت كلوسوفسكى في هذه الليلة ؟

هب انهم منهمون بمحاولة الفرار ، وهب ان كنوسولسكى يعينهم على ذلك ،
فماذا افترلت ليديا حتى تستحق الموت في زهرة صباها ؟ كل جريمتها
انها احبتك ، ووثقت بك ، وباحت لك بسر كان ينبغي ان اكتمه !
- ولكن ما عسى ذلك ان يغير من الامر ؟ ان ليديا نكتاة بريئة . وانها
لحبنى . ولو لم تكن تحبنى ، لرى هل كنت استطيع ان افعلها وانا اكثر
الطمئنا ؟ نعم ، هناك ليديا .. ولكن كم من لتيات مثلها تقين حلقهن لانهن
وفى ضدنا ، او لان سوء الطالع اوفهن في ميدان الرضى حيث لا لميز
التقابل من تعصيب ومن دفع ، فكان ان فتلناهن . لان امانا ثلاثة ارباع
الارض تريد ان نخلصها من العبودية ، لان في ثلاثة ارباع الارض عشرات
اللايين من امثال «ليديا» يمدى كل يوم من المصنع منصات القوى ليستقبلن
اسية مطلقة من الامل ، ويتركن أطفالهن للموت لان امراء لم يعلمن كيف
يعتسبن بهم ، ويرفدن على العلوى في طين آسيا الاصفر . او يقتلن
نفسهن على قارعة الطريق في اوروبا لنسوة السادة الذين جعلوا منهم
عابا ذليلات . اننى ابن يفى من بلدة « سينتين » يا هاجن !
- ومبادؤنا يكاروس ؟ ومعنى جهلنا وواجبنا ، وجميع ما ينبغي ان
نخلصه . وجميع ما ينبغي ان نثار له ، انى احبب بهذا كله كما احبب به
انت .. مثل امراء وحيدة في البيت تادى زوجها ان تسبح النصوص . ولكن
زوجها لا ياتى !

- اذا بقيت ليديا على قيد الحياة تكلمت ، واذا تكلمت ... ؟
- اه كلا ! دع هذا ! دع المنطق ! منطقنا الصلب الذى يفترق كالرصاصة
صدرا انسانيا . انطق اننى لا ارى تلك الرابطة المنطقية ؟ انها لرابطة مفقودة
لا سبيل الى انكارها ودحضها . ومع ذلك فهى رابطة لا وجود لها ولا معنى
لها .. انظر ! لقد انضمت الى الحزب لاننى فصحت بشهد الانسانية منذ
بدا تاريخها تصارع بؤسها السارد المجنون المعسوب العيشين وهو يهوى
بمينا وشمالا بغلس في يده ! وها نحن قد صرنا جميعا ذلك المجنون نفسه .
نضرب على غير هدى ، ونحت الغلس توجد ليديا . ماذا تجدى ثورتنا ؟
وماذا تسدى من نفع اذا اصبح منطقنا باطلا ، ونجسم في صورة ذلك
الوجه الذى بلا عيشين ، وجه الاعشى المتخبط الجامع القصب ، وجه القدر ؟
- اذا كان القتال دائرا ، وكانت هذه الدار مرصدا يصوب منه العدو
النار على خطوطنا ، اكننت نتردد في تغييرها ؟ هل كانت ليديا ان ذاك تخطر
لك على ببال ؟ اننى ارى لليديا كما ترى انت لها ..
- ان ليديا لا تثير رثائى بقدر ما تنهسر غولى .. نرى كيف سنلقى
اليها بالنبا الفاجع !

وبقتاد هاجن رفيقه من كتفيه ويديره نحو الجدار ، في المكان الذي اتخذته ليدبا في الفصل السابق . ويتخيل أن ليدبا وافقة وجها لوجه أمام فتاحها الاثغر ، تنظر اليه في مقت . وأن هذا الفتى ينظر اليها ثم يقول لها انه آسف لانه سيقتلها بعد نهاية قصيرة . . . فيستنكر كراوس من رفيقه هاجن أن يمازحه هذا المزاج البشع . وفي تلك اللحظة تهبط ليدبا الدرج وتقف وراءها صامتة !

هاجن : انك لا تريد أن تقول لها انك ستقتلها . لماذا لا تريد أن تقولوا
أما ذلك ؟

نترددنا ليدبا :

- لماذا لا تريد أن تقول لها ذلك ؟

فيلتفت كراوس مجفلا مضطربا ويقول للفتاة الهائلة امرأة :

- ماذا تفعلين هنا ؟ من أذن لك بالجرء الى هنا ؟

فترواق ليدبا وتعلمتم :

- قالوا لي انك صاحب الامر . . لم اصدق . . كنت اريد . . كنت اريد . .

وتلوذ بالقدار من حيث أقبلت !

- ٥ -

♦ ولكن المؤلف يبيعها الى غرفتها في المشهد التالي ، حيث نراها ونسمع حوارها مع الكونتيسة . ويا له من حوار مؤثر : أحقا هذه هي آخر ليلة في حياتها ؟ يخيل اليها أنها تحلم ، وأنها ترى في حلمها شخصا يدنو منها ليقتلها دون أن تستطيع الهرب ولا الدفاع عن نفسها ، لأنها أسيرة الكرى . . . غير أنها تكفر بحلمها ، وتذكر أن يكون له مكان في الواقع . ثم يخطر لها أنها دمية ، وأنها لو كانت جميلة لاستطاعت أن تشنى الفتى عن قتلها . وذلك خاطر لم يطرأ على بالها قبل تلك الليلة !

- ينبغي أن أعرف : لو قد أتيت لي أن أعيش ، هل كان يهتم بي رجل من الرجال ؟ لا تكذب ليها الكونتيسة ! ما أنا الا فتاة دمية لم يكن لها في حياتها أي أمل . فتاة دمية ما كان يحدث لها أي شيء ، تموت ميتة لا معنى لها بعد حياة قصيرة لا معنى لها . . . أما أنت فقد كنت جميلة أيتها الكونتيسة ،

وأحبك الرجال .. وستكتشفك جميع ذكرياتك في لحظتك الأخيرة ، ولا تموتين وحيدة مثل . أنا ليس لي ذكريات ، ولم يقع لي شيء .. لابد أن أعرف هل كانت حياتي ستتصل على هذا المنوال .. ؟

– انك جميلة يا ليديا .. وانك لصبيبة ...
وتأخذ المرأة رأس الفتاة الشقراء بين يديها فتزيح شعرها الى الوراء قائلة لها :

– أظهري وجهك ولا تختبئي وراء شعرك . انك كالحيوانات الصغيرة النافرة التي تنسلل بحذاء الظلال . لكى تكوني جميلة ينبغي أن تؤمني بأنك جميلة ، ينبغي أن تتقدمي الى النور . واننى لخليقة بأن أصنع منك فى عشر دقائق فتاة من أولئك اللواتى كن يخلبن رجال السفارات فى الحفلة الراقصة التى كانت تقيمها الرئاسة فى فارسوفيا !

– جميلنى أيتها الكونتة ! هلمى ! أسرعى ! فليس لدينا عشر دقائق كاملة . اننى أريد أن أكون جميلة . أريد أن أكون جميلة للمرة الأولى . انك لا تفهميننى . أنا أيضا ، لساعة واحدة خلت ، لم أكن أفهم من الحياة شيئا . كنت أنتظر ، وكنت خائفة . كنت أتهيب الحياة . أما الآن فانى لا أرهب شيئا منها . انها لضافية شفافة حتى قاعها ..

وتلح الفتاة الرقيقة على المرأة المجربة فى أن تجعلها . فتقشرب الكونتة منها ، وتصفف لها شعرها ، وتفتح ثوبها فوق نحرها ليظهر جيدها ، وتلون وجنتيها بمسحة من مسحوقها الاحمر ، ثم تمنحها عقدها اللؤلؤى الثمين . وتمسك ليديا امرأة صغيرة فى يدها ، وتنظر الى صورتها مليا ثم تقول :

– انك جميلة يا ليديا !
وتنفخ على الفور فى مرآتها فتفشى انفاسها الندية صقال الزجاج اللامع ، وتقول لنفسها :

– نفخة واحدة تمحوك • ليس بين الحياة والموت الا هذه النفخة !

ثم تجلو مرآتها وتطيل النظر فيها وتقول :
– وداعا أيها الجميلة ليديا ••

وها هو ذا الشرطى فى معطفه الفضفاض ومشيته النظامية الثقيلة يدخل ويأمرهما بالخروج دون أن ينظر إليهما ، فقد حانت الساعة ! وترى ليديا فى هذا الرجل الجامد – هذا الانسان الذى حولته النظم الاجتماعية الى آلة صماء ، عديمة الشخصية ، تتحرك وتنفذ دون أن تشعر أو تفكر – ترى فيه رجلها الاول منذ أن تجملت ، وتريد أن تلمس أثر جمالها فى عينيه • فتدنو منه وتساله فى سذاجة أن يسمح لها بأن تنظر فى مقلتيه • فيتحشم الشرطى قائلا :
– أيتها الرقيقة !

فتجيبه :

– اننى لست رقيقة • اننى ليديا • هذا الجسم الذى ألمسه من فوق هذا الثوب ، انه ليديا ، انه أنا ••• أنا ، يالها من كلمة عجيبة !

وتظن الكوننة أن الفتاة فقدت صوابها ، فتحنو عليها •• ولكن ليديا تستأنف حديثها هذا الساذج الغرير الحكيم معا ، بأسطة يدها للشرطى :

– هذه اليد ، انها ليديا • أنظر، اننى أننى وأبسط اصبعاء ، واصبعاء آخر واصبعاء ثالثا • وأفتح يدي ، وأضمها • هذه ليديا • انه لشيء عجيب أن أكون • أنا • ، شيء عجيب أن أكون حية ! ويختلط فى حديثها دلال الصبا ، والغزل الذى تتوق اليه ، والفزع من الموت الذى ينتظرها ! تأنس فى هذا الشرطى الذى سيطلق عليها الرصاص عما قليل رجلها الاول والاخير • عاشقها ، فرصتها الوحيدة لان تعرف الحياة والحب • تعرض عليه جيدها وقد أزاحت عنه شعرها سائلة اياه أن يصوب اليه



وصاصة ، دون أن ينفذها بشئ ،
قبل أن يفعل • تعرض عليه
جسدها فى استسلام الذبيحة
البريئة ، وفى الغراء المرأة
القاتلة ، وتخطبه بلغة الغرام :
- يا حبيبى ، هل أنا جميلة ؟
فيجب الشرطى فى لهجته
الصارمة :

- انك جميلة

- اننى جميلة ؟ فهل تحبى ؟
هل تستهينى ؟
- نعم !

فتضحك ثم تقول :

- هل تاخذنى بين ذراعيك اذا تجردت من ثيابى واصبحت
عارية ؟

- نعم

- قبلنى !

فيردد الشرطى ، ثم يقبلها • وتغمض الفتاة عينيها لتتدلق
قبلته ، او لتغيب فى حلمها المفقود ، فها هى ذى اول قبلة على
وجنتها من شفتى رجل ، وان كان هذا الرجل هو الشرطى رقم
٢١٨ ، البالغ من العمر ثمانية واربعين عاما • وتصمت قليلا ثم
تقول له :

- انك ستمضى الى ايام من الحياة وستنسى من الحياة • هلا
اصطحبتنى معك ؟ فانى اريد أن أعيش معك هذه الحياة التى
تشبه الابد

- لا أستطيع ..

- لا تخش شيئا . انى لا أريدك على أن تعصى أوامرك . خذ هذه المرأة الصغيرة . اننى أعطيك ليديا . فقد حبست فيها صورة ليديا . هذا الوميض الذى تمحوه نقخة . ويقضى عليه وميض بندقيتك . هل تحفظها ؟ هل تحفظ الوجه الذى جعلته ؟ فيجيب الشرطى وقد أخذه التأثر :

- الى يوم مماتى

- الى يوم مماتك ؟ أنت أيضا سيجى . يوم تموت فيه ؟ ولكنه يوم بعيد ، ودونك قبله ملايين الايام . انك رجل خالد .. ينبغي أن نمضى الآن .

- ينبغي ..

وتتجه ليديا والكونتة نحو الباب ، بينما يظل الشرطى واقفا فى مكانه كالمشده ينتظر أن يفيق، فتنبه ليديا فى رفق:

- هيا بنا أيها الشرطى . تشجع !

وننتقل الى غرفة أخرى من بيت الليل ، فنجد كاترين وفرانز واقفين متعانقين ، فنيا فى عناقهما ، وغابا عن كل ما حولهما فى نظرة واحدة طويلة متصلة . انهما لا يسمعان صوت ليز تخاطب زوجها ملهوفة مفجوعة مستيثة ، تدعوه اليها ، وتقسم له انها لم تطلب الشرطة ، وانما سمعت الى الفرار معه ، ولا أدل على ذلك من أنهم قرروا اعدامها هى أيضا ! ويتقارب فرانز وكاترين ، ويغمضان أعينهما كأنهما ينتظران شيئا . ولا يلبث فرانز حتى يترنح فتسنده كاترين دون أن تفتح عينيها ، كأنها قد أحست بذلك الخور فى جسمها هى . ثم يدخل كراوس وهاجن والضابط . وتجهد كاترين لحظة فى الاحتفاظ بفرانز متوكئا عليها ، ثم يهويان معا ، متعانقين دائما ، جامدين . لقد تجرعا من السم ما أخرجهما من الدنيا الضيقة : غير أن ليز ترتدى على الجثتين تحاول أن تفصلهما ، وتستسلم

للياس والقنوط اذ ترى نفسها وحيدة منبوذة . فهذا زوجها يموت على مشهد منها دون أن يشاطرها موته ! وتتعطل المرأة المشرقة بالسراب ، تلوذ بهاجن ، وتناشده أن يمسك بها ولا يتخلى عنها ، فانها فى حاجة الى شخص يقف بجوارها عند اعدامها ، وما زال وهما يصور لها أن هاجن معتقل مثلها ينتظره نفس المصير . تلتصق اذن بهاجن ، ويحاول الضابط أن ينتزعها ، فتصيح صيحة رهيبة : « لا ! ! » . واذا برى هاجن تعلقها به ، يذود عنها الضابط ، ويطيّب خاطرهما . ولكن الضابط يريد أن يؤذى واجبه ، فهو مسئول عن المعتقلين . وتفهم ليز من نقاش الرجال حولها ان هاجن هو الذى دبر اعتقالها ، ومع ذلك فهي لا تقوى على أن تتمثل نفسها الشريفة مطرودة من هذا الملاذ الاخير . ويصمت هاجن ازاء هذه المرأة التى تتصور من اللهفة والسخط والاسى ، ثم يقول :

— كفى . هلموا اعتقلونى !

فتعقد الدهشة السنة الجميع ، ولا يقطع الصمت الا شهقات ليز ، ثم يستأنف هاجن حديثه :

— اننى متواطىء مع هذه المرأة . وهانذا متلبس بالقرار معها من الجمهورية الشعبية الى الخارج !

كراوس : هل جننت يا هاجن ؟

هاجن : لقد كذبت عليك حين قلت لك اننى سأحاول استبقاء ورنر وزوجته هنا حتى تعود . فقد كنت أريد أن أبعدك عنى لاتخلص من رقابتك ولاعبر الحدود مع ليز . ولكنك عدت سريعا . أسمعيني ياليز ؟

تمسك ليز عن البكاء وترفع رأسها . انها لا تفيق من مفاجأة الا لتتلقفها مفاجأة أخرى . ولا تكاد من فرط دهشتها أن تصدق ما تسمع ، غير أن هاجن يقترب منها ، ويستغفرها معذرا عن صمته بما ساوره من خوف منذ لحظة ، ويؤكد لها

أنه معها مهما يحدث . فترتمى على صدره في فيض من الشوق والامتنان !

كراوس : هاجن ! هلا شرحت لي ماذا تعنى ؟

هاجن : انتى معها . معها وعليكم

ويجذب ليز ويخطو معها صوب الباب المؤدى نحو الغرب ، سائلا الضابط أن يعتقله . فيوجه الضابط الى كراوس نظرة المستفهم ، ولا يملك الرفيق كراوس الا أن يقول لرفيقه هاجن : « لك ما تريد » ، وللآخرين : « انه سيقدم حسابا عن تصرفه هذا امام محكمة الشعب » . ويخرج الضابط للبحث عن المدعو أدلر واعتقاله . بينما يقتاد الشرطة ليز الى حيث الآخرون ينتظرون .. وينفرد كراوس بهاجن :

يستوضحه في عتاب رقيق أولا لماذا يتحول ويرتد في وسط المعركة ؟ فيعترف هاجن - وهو من المجاهدين الأشداء - بأن في نفس الانسان شيئا أقوى من الانسان ، هو هذا الشعور الذى يدفعه الى النوص في الماء لانقاذ طفل أخذ في الفرق ، رغم علمه بأن التيار عتيق قاتل ! لكن كراوس يأخذ عليه افراطه في الشراب ، فلا يجيب الرفيق المرتد الا بصب كأس من الخمر يجرعها بعد أن يرفض صاحبه أن يشرب مثله !

كراوس : انك لم تحتس من تهكمك كما ينبغي . والرجل الذى يسخر من نفسه رجل قد تسرب اليه الشك ... لقد أصبحت غير أهل للثقة ..

هاجن : اذا كنت قد أصبحت غير أهل للثقة ، فلماذا أرسلونى للخارج ؟

- أرسلوك تحت مراقبتى !

- أجل ! بمثابة اختبار لى ؟

- تقريبا ..

- ولمراقبتى اختاروا أحسن أصدقائى ؟

- لبعث الثقة في نفسك

- انهم لم يسيثوا الاختيار ..
- لست متأكدا من ذلك
- لماذا ؟
- أشاروا على بأن أعرضك لبعض المغريات . وأعتقد أنني حاولت على التقيض إبعادك عن العشرات !
- ولماذا ؟
- لأنني أحبك
- وأنا أيضا كنت أحبك يا كراوس
- ويرفع كأسه ويشرب نخب صداقتهما القديمة ..
- هناك شيء أعجز عن فهمه ياهاجن ، ألا وهو أنك استطعت أن تحب هذه المرأة الى درجة الارتداد والهلاك من أجلها ؟
- أنا ؟ أحب ليز ؟ انك لمجنون !
- فما شروعت في الفرار معها ؟
- فليتحول هذا النبذ الغربي الممتاز الى سم زعاف اذا كانت هذه الفكرة قد خطرت لي على بال !
- اذن فكل شيء ملفق ؟
- يقينا ... لقد قيمت بواجبي كمجاهد أمين ، فاستخدمت هذه المرأة لاستبقاء ورنر هنا حتى عودتك . أتقنت العمل .
- ولكن حدث ما لم أكن أتوقعه
- فهو لم يكن يتوقع مشهد هذا الياس الخائر الذي لا سند له ، مشهد هذه المرأة المهمة المنبوذة التي اعتقدت لحظة أن شخصا يهتم بها ، ثم وجدت أنه خدعها وأسلمها الى الموت وحيدة ضالة مدحورة ! لعلها لو قد استقبلت مصيرها رابطة الجأش لما لان لها قلبه . انه على كل حال ليس بخائن ، وان ظهر بمظهر الخائن أمام رجال الحزب . وحسبه ما يجد من الرضا منذ آنس من هذه المرأة التعسة أنها ستموت في كنفه سعيدة ، أسعد مما كانت طوال حياتها . وهل من شأن الشفقة أن تقف عند حد ؟ اذا تألم المرء ، قد يستطيع أن يتدبر إليه

مع نفسه كما يروق له ، ولكن اذا تألم سوانا ، طفلا كان أم حيوانا ، هل نستطيع أن نحد من عطفنا عليه ؟ ان الشفقة لتملك امر من تمسه حتى لا تدع له أضيق حيزا للتملص من وطنها . وقد يتسرب الوهن أو الجبن لحظة الى النفس المخلصة في جهادها ، فتدفعه وتتغلب عليه وتستأنف جهادها بعزيمتها الممهودة . . أما الشفقة فلا راد لها من قوة الشكيمة وحزم الارادة . ليس هاجن جبانا ، وانما هو لا يستطيع أن يقاوم نظرة ليز ولا نظرة ليديا في شقوتها . اذن لقد أصبح غير صالح للخدمة ! ورفيقه يذكره بأن الطريق أمام الحزب مازال طريقا طويلا شاقا ولا بد من أن تضرجه الدماء ، لا بد من القسوة حتى يشيد النظام الجديد عالما ليس للشفقة فيه مكان ولا نفع . .

هاجن : ليس لآلام الدنيا آخر ياكراوس . لن تنتهى شقوة البشر قبل أن تنتهى كربة آخر الاحياء ، على ظهر الارض ، وهو يحتضر وحيدا وليس امامه الا وجه الموت . .

وماذا عسى أن يصنع ذلك الرفيق برفيقه ؟ يعرض عليه أن يشرع في الهرب وأن ترديه أثناء محاولته الفرار رصاصا يطلقها عليه أحد رجال الحدود ، فهو لن يحاكم محاكمة علنية لو عاد موفور العافية ، لان الحزب يريد أن يكتم عن الملا تلك القصة . يرفض هاجن هذا العرض في شمم الانسان الذي يشعر بكرامة نفسه ، وفي اباء المجاهد الباسل الامين الذي يحرص على أن يؤدي حسابا عن أمانته ، وأن يعترف بخطئه اذا كان قد أخطأ ! . . ويفترقان . عزيز على كراوس أن يودع صديقه ورفيق جهاده وداعا أبديا . ولكن هاجن يحذره من أن يلين ، وأن تتسرب الى نفسه العنيدة أشعة الشفقة فتصهرها وتفسد عليه أمره ! ينظر كل منهما في عيني صاحبه ، ويكتفى هاجن بأن يضع يده على كتف كراوس ثم ينأى عنه ، بينما يظل هذا الاخير في مكانه جامدا . ويسأله هاجن ان يأذن له

بمشاهدة اعدام النزلاء ، وبأن يقف بجوار ليز حتى لحظة مصرعها ، كى تعتقد أنه سيموت معها ! ويهم بالخروج ، الا أنه يعود سائلا :

- كراوس ، اتعلم ليديا ايضا ؟

- ليديا ايضا

ويبقى كراوس وحده . ثم يدخل الضابط وقد قبض على « أدلر » الذى كان يحاول الفرار ، لا الى الغرب كما توقع الجميع بل الى الشرق ! ذلك أنه قسيس أراد أن يدلف الى الدولة الشرقية ليحمل الى أهلها المضطربين المتألمين - وما أكثر من يساقون هناك الى الموت ! - رسالة حب الله لهم ، وحاجتهم الى أن يشفق بعضهم على بعض . ونسمع فى حوار الرجلين هذين الصوتين المتناقضين : صوت المذهب المادى الذى يحاول أن يحل مشكلة الانسان بالغاء وجود الله ، وصوت الايمان الوثيق الذى لا يرى فى غير الرحمة والتضحية مخرجا للانسان من مأساته القائمة . وما من شك فى أن المؤلف قد أقحم شخصية هذا القسيس فى الرواية ، حيث لا يشترك فى توجيهها ولا يضطلع بدور فعال ، لمجرد النقاش الفكرى الذى يثيره الموضوع ، والذى لا تكتمل عناصره الا اذا تجادل متحدث باسم المادية مع متحدث باسم الله . وهذا النزاع بين المادة والروح قد أصبح بعد الحرب الاخيرة أهم ما يشغل الكتاب فى بحثهم المتصل للانسانية الضالة المتخبطة عن حل يعصمها من التردى فى هوة الهلاك التى انفجرت دونها . وما أكثر ما يظهر القساوسة على المسرح الفرنسى فى هذه الايام ! ولعل تييري مونييه متأثر فى هذا الجزء من روايته ببطل من أبطال الكاتب الانجليزى المعاصر « جراهام جرين » رأيناه أخيرا يحيا حياة غريبة على خشبة المسرح وفى أشرطة السينما تحت عنواني « القوة والمجد » و « قد مات الله » !

ومهما يكن من شيء فإن خاتمة
بيت الليل، خاتمة قوية مؤثرة:
فهؤلاء هم أهل الدار يهبطون
السلم في حراسة الشرطة
ويتجهون الى الباب الخارجى .
وتنشد ليساندا وهي تسير في
وداعة ، هذه الابيات الرقيقة .
وكانها ترثى نفسها او تعاتب
القدر :

لقد لبست ثوبى المتألق كالشمس
ولبست السماء ثوبها القاتم
كالخريف



أهى السماء التى تخطى، أم أنا ؟
هل يأتى ؟ هل يأتى حبيبى ؟

وينهرها الضابط بعنف فتصمت . وتخيم الرهبة
على الجميع . ويخرج الواحد تلو الآخر من هذا الباب الذى
لن يعود منه الى الابد . أما كراوس فيظل فى مكانه جامدا
دائما . ثم تسقط الستارة .

ويمكن الحصول على الشروط مقابل
١٥. مليا يضاف اليه ٧. مليا
اجرة البريد وكل غطاء غير مصحوب
بتأمين مؤقت كامل قدره ٢ فى
المائة لا يلتفت اليه ، وتقديم
الطلبات على ورقة نمطة فنية
خمسين مليا .

٨٦٤٤

تفتيش رى اسبوت

يقبل بمكتب تفتيش رى اسبوت

باسبوت عطاءات لغاية ظهر يوم
الاحد الموافق ١٠ أكتوبر سنة
١٩٥٤ من توريد خيال سلك صلب
مجدول وخيال مائيل باطوار مختلفة
وعقاريت تدار بالكيس الهيدروليكي



ويلفريد بلنت

التاريخ السّري للاحتلال الإنجليزي لمصر

(ضرب الاسكندرية
وبدء الاحتلال)



بداية الاحتلال المشؤم

♦ في الأعداد الثلاثة السابقة من (كتابي) ، قدمت اليك الجانب الأكبر من هذا الكتاب التاريخي الهام ، الذي فصح فيه مؤلفه « الأنجليزى » خفايا السياسة البريطانية الاستعمارية ومؤامراتها التي مهنت لاحتلال مصر .. كما كشف فيه الستار عن حقيقة المؤلف الخزى الذى ولله الخديوى توفيق من الصراع بين عربى والأنجليز !

وفى هذا العدد أقدم اليك فيما يل القسم الرابع والآخر من هذا الكتاب ، وهو يروى بالتفصيل أطوار الخطة المسكرة التى دبرها الأنجليز لغرب الاسكندرية ثم احتلال مصر ، بعد الإجهاز على مقاومة جيش عربى بكافة الأساليب الوضيعة التى اتلتها سياسة الأنجليز : من رشوة - ونجس - وشراد للدمم - والفساد للشعائر !

الفصل الثالث عشر

((درويش)) مبعوث السلطان

♦ لولا الوثائق التى تؤيدنى ، لتعذر اقناع أحد بأن حكومة انجليزية تنتمى للاحرار ، وبرأسها رجل عظيم وطيب مثل جلادستون ، تقدم - لاية ضرورة مالية أو سياسية أو شخصية - على مثل الخطة التى سارروها فيما بعد ، والتى لا يقرها عرف خلقى أو أدبى !

ففى أوائل يونيو - سنة ١٨٨٢ - أصبح من المسلم به أن سياسة الارهاب وارسال الاسطول الى مصر قد فشلت ، إذ اضطر الخديو تحت ضغط الشعب الى أن يعيد عربى وزيرا للحربية ، وقد اتسمت مسئولياته وأحيى بالتكريم .. ورات وزارة خارجيتنا انها أصبحت فى مازق محير ، يضطرها الى اختيار أحد امرين : إما أن « تبتلع » تهديداتها الجوفاء ، أو

أن تنفذها ضد رجل غدا معروفا لدى أوروبا كلها كبطل وطني !
 .. وكانت الخطة التي انتهت إليها من أعرب الخطط التي لجأت
 إليها حكومة متمدنة في العصر الحديث ، إذ تضمنت استجداء
 معونة السلطان في « التخلص من عرابي » ، لا بقوة السيادة
 العثمانية ، وإنما بوسائل الغدر التي كانت معروفة لدى الباب
 العالي !

ووقع الاختيار على مندوب يدعى « درويش باشا » كان
مرهوب الشخصية ، معروفا بالدهاء والبطش . وكان من قادة
الجيش العثماني قبل أن تقعه السن ، اذ كان حينذاك في
السجون من عمره . . .

على أن تدخل السلطان لم يكن على ما كان يرجوه الانجليز ، سيما وان عرابي كان لا يزال يتمتع برضى البلاط السلطاني ، كما كان عبد الحميد يضمن بنقته على الخديو توفيق ، ويفكر في أن ينصب « حليم » بدلا منه . لذلك أوفد مع « درويش » مندوبا آخر عرف بالتحمس لعرابي هو الشيخ « احمد اسعد » شيخ احدى الطرق الدينية في المدينة المنورة ، وأحد النقابة الذين كان السلطان يعتمد عليهم في الترويج لفكرة الوحدة الاسلامية . . .

« دوش » بارد یلایه اهل الاسكندرية علی « درویش » !

♦ **وارسل الخديو** «ذوالفقار باشا» ، كما أرسل الوزير وكيل الحربية « يعقوب باشا سامى » لاستقبال المندوبين .. كذلك أرسل عرابى الشيخ عبدالله نديم - الصـحفي والخطيب - الى الاسكندرية كى يهيب الاهالى للحفاوة بهما لدى وصولهما ، ولإعلان سحق البلاط على الإنذار الذى قدمه « ماليت » وزميله الفرنسى .. وهكذا استقبل السكندريون الوفد السلطانى هاتفين « الله ينصر السلطان » و « الالاية مرفوضة » ، و « اطردوا الاسطول » .. وكان لهذه التهافتات

اثرها السريع على الوفد ، ولا سيما على « درويش » .. ومع ما كانت وزارة الخارجية البريطانية نبته فى نفسه - عن طريق الصحافة الانجليزية - ومع ان الخديو قدم له ٥٠٠.٠٠٠ جنيه - كمئحة - فضلا عن جواهر قيمتها ٢٥٠.٠٠٠ جنيه ، ليكسبه فى صفه ، الا انه لم يقو على ان يقوم باجراء ذى خطورة ضد عرابى .. لا سيما حين تلقى مذكرة من مشايخ الازهر تؤيد عرابى ، وتطالب برفض الانذار وخاصة ما ورد فيه بشأن نفية ..! ولقد حاول درويش ان يعامل المشايخ فى حزم ، فاذا بهم يتصرفون غاضبين ، وسرعان ما اوفد الزعماء الوطنيين رسلهم الى الاقاليم لاثارة المشاعر ، كما عقدت فى القاهرة اجتماعات ضد درويش ، ثم نظم الطلبة مظاهرة كبيرة فى الازهر ، زعمت اعتداد درويش بنفسه ، فبادر الى دعوة عرابى - وكان قد رفض من قبل ان يراء - ومحمود سامى ، وتلطف اليهما ، ثم راح فى لهجة معسولة يقنع عرابى بان رحيل الاسطول ، وتحسن الموقف ، لن يتحققا الا اذا استقال ورحل الى القسطنطينية .. فرفض عرابى قائلا انه يحمل مسئولية صون النظام والامن . وانه قد اتهم ظلما بالطغيان ، ولن يبارح منصبه الا اذا اقبل رسميا بكتاب يتضمن اسباب الإقالة !

الشرارة التى مهدت للاماسة :

♦ وانفض الاجتماع دون تفاهم .. وكان ذلك فى ظهر يوم السبت ١٠ يونيو . وفى صباح اليوم التالى ، اخذت الامور تتطور بسرعة فى الاسكندرية ، حيث وقعت مشاجرة بين مكارى (حمار) مصرى ورجل مالطى ، فاذا بثورة تقوم من الساعة الواحدة بعد الظهر حتى الخامسة ، انجلت عن موت مائتى شخص بينهم ضابط من احدى البوارج الانجليزية ، فضلا عن مائتين آخرين من الاوربيين ، كما اصيب القنصل الانجليزى « كوكسن » بجراح خطيرة ، والقنصلان الايطالى

واليوناني بجراح خفيفة ، ولم يهدأ الهياج الا بوصول الجنود النظاميين . وكان هذا أول عمل عنيف فى أحداث ذلك العام ، وسرعان ما انتشرت أنباءه فاثار فى أوروبا - وفى انجلترا بوجه خاص - اهتماما كبيرا .

ولما كانت تبعة هذا الحادث قد ألقيت ظلما على عاتق أكثر الأشخاص اصابة بأضراره ، كما تعللت به وزارة الخارجية وقيادة الاسطول الانجليزى لضرب الاسكندرية ، لذلك يجدر بنا - قبل أن نمضى قدما - أن نرد الجرم الى عاتق المجرم الحقيقي فيه - وإن كنت لم ألتق التفاصيل الموضحة للحقيقة الا بعد الحرب التى نشبت :

كانت الاسكندرية أكثر مدن مصر ازدحاما بالاوربيين ، وكان الود مفقودا بينهم وبين المصريين من أهل المدينة . لا سيما بعد وصول الاسطول باسم حماية الاوربيين . ومن ثم فقد كان حفظ النظام يتطلب مجهودا شاقا من محافظ المدينة « عمر باشا لطفى » ، غير أن الرجل كان شركسيا ، تناولا للوزارة الوطنية ، وعضوا فى حزب « السراى » ، ومن أذئاب الخديو السابق اسماعيل ، والخديو توفيق . لذلك عمد الى تشجيع العناصر المتدمرة بدلا من اخادها . وكان اليونانيون - فى الوقت ذاته - قد عمدوا الى تسليح أنفسهم عن طريق عميد جاليتهم ، وكان من وكلاء « روتشيلد » . وهذا المالىطون حذوهم بمساعدة « كوكسن » ، القنصل الانجليزى . وهكذا هيئت الامور - فى نهاية مايو - لاثارة الشغب ، على أمل اشعال حرب داخلية اذا رفض عرابى ما أريد املأؤه عليه !

الاغراض الشخصية تلعب فى الظلام !

♦ وليس ثمة شك فى أن الدبلوماسيين الانجليز فى القاهرة كانوا يتطلعون الى الاضطرابات كدليل على تفشى الفوضى . كما أنه لم يكن ثمة شك فى أن عمر لطفى كان ذا

مصلحة شخصية ، اذ كان اسمه بين المرشحين لتولى وزارة الحربية خلفا لعرابي ، وقد استدعاه الخديو في ٢٧ مايو الى قصر الاسماعيليه وعرض عليه المنصب . . . وقد قدم الانذار في أول يونيو ، واستقالت الوزارة في اليوم التالي ، فلمّا اضطر الخديو الى إعادة تعيين عرابي في الثالث من يونيو ، كان من الطبيعي أن يهتم عمر لطفي بكل ما يثبت لمن أزروا إعادة عرابي - وخاصة القنصل الألماني وزميله النمساوي - خطأ ثقتهم . . .

كذلك لدينا من القرائن ما يبين أن عمر لطفي تلقى من الخديو في ٥ يونيو برفقة بالشفرة تفيد أن عرابي قد تعهد للقناصل بمسئولية حفظ النظام ، وأنه لو نجح فسوف تثق فيه الدول الكبرى فيفقد الخديو هيئته ! واختتمت البرقية بهذه العبارة : « فاختر إذن ما اذا كنت تساعد عرابي في تعهده أو تخدنا » . . . وكانت هذه العبارة بمثابة ايعاز ، بادر عمر لطفي باتباعه ! . . . ويؤخذ على عمر لطفي أنه كمحافظ للمدينة كان قائدا للفرق من الجنود تشبه « بلوك النظام » ، وقد توانى عن انزالها الى المدينة ، الا بعد أن استفحل الهياج !

وهكذا تجمع القرائن على أن الفتنة كانت مهياة لتنفجر عندما يصل درويش الى الاسكندرية في ٨ يونيو . . . ولست مقتنعا بأن درويش نفسه كان يجهل هذا . . . ولعل الحادث العرضي بين المكاري والمالطي هو الذي أدى الى انفجارها قبل الموعد المختار لها . . . على أن المؤكد أن الخديوي وعمر لطفي أقاما نطـاقا محكما على المواصلات التلفزيونية بين القاهرة والاسكندرية ، وأن الأخير أرجأ دعوة الجيش الى تهدئة الهياج ! يضاف الى هذا ان اللجنة التي شكلت للتحقيق ، تألفت من اذناب الخديو ، وقد عين عمر لطفي على رأسها . . . ومع أن هذا منح عطلة حين قويت الشبهات ضده بين القناصل ، الا أن

ظهر عجب ضرب الاسكندرية ، ولحق بالخديو وتولى منصب وزير الحربية !

كذلك ثبت أن الخديو أرسل قريبه « حيدر باشا » الى الاسكندرية خلال اسبوع الحادث ، وكان يستقبله في تكتم قبل وبعد السفر في كل مرة ٠٠ وقد كان حيدر في الاسكندرية يوم الحادث ، وعاد بمجرد انفجار الشغب ٠٠

وتضم رسائل ماليت فقرات توحى بأنه كان يتطلع - حوالى الوقت الذى حدث فيه الاضطراب - الى حل عنيف للورطبات الديبلوماسية التى كان يتخبط فيها ، كما كان من الحجج التى تدرج بها لمعارضة الحكومة الوطنية ، انها كانت تخلق الفوضى فى البلاد ٠٠ على أن معرفتى بأخلاقه وشخصيته ، تجعلنى أرجح انه لم يكن على علم سابق بحادث الاسكندرية ٠٠ وكذلك الامر بالنسبة لكولفن

العوامل التى أدت الى ضرب الاسكندرية

♦ ولم تكن النتيجة المباشرة لفتنة الاسكندرية متمشية مع ما كان يرجو الخديو وأصدقاؤه ، فقد اشتطت الى الدرجة التى دعت الى ضرورة الاستعانة بالجيش ، فإذا به يخدم القوضى ويمسك بأعنة الامور ، مما ضاعف من تقدير الجميع له ولعرابه ، حتى أن القناصل الاجانب - فيما عدا الانجليزى - انتهوا الى الاخذ بهذا الراى ٠٠ وكان فى وسع عرابى أن يصبح سيد الموقف ، لولا أن ماليت وكولفن راحا يشيران ذعسر الاوربيين ، ويبهدان لضرب الاسكندرية ٠٠ كما أقسم السير بوشامب سيهور - قائد الاسطول - أن ينتقم لياوره ، وهو الضابط البحرى الذى قتل فى الفتنة ٠٠ وكان الانتقام هو : ضرب الاسكندرية !

وفى ظهر يوم الاحد ١١ يونيو ، تلقيت من صابونجى برقية كان قد أرسلها منذ أربع وعشرين ساعة ، مؤكدا فيها أن عرابى يلقي ناييدا من البرلمان - عدا سلطان باشا - ومن

الازهرى ، اللهم الا شيخ الاسلام .. وان المصريين عقدوا العزم على خلع الخديو .. وان عرابى يقول ان السلام لن يستتب طالما ظل ماليت وكولفن فى مصر ، وقد خطب عيد الله نديم فى ١٠ر٠٠٠ شخص مقنعا المطالب الذى وردت فى الانذار ومهاجما الخديو ..

وفى خطاب كتبه صابونجى فى ١١ يونيو ، قال ان الشيخ عليش - شيخ الازهر - اصدر فتوى بأن الخديو ، باتباعه مشورة القناصل الاوربيين ، قد باع بلده ، فلم تعد له ولاية على مسلمى مصر .. وان الاقباط والمسلمين يؤيدون عرابى .. وان الوفود تترى من الاقاليم لتطلب الى درويش خلع الخديو .. كما انه تلقى رجاء من ١٠ر٠٠٠ عالم ، وآخر يحمل توقيعات ٩٠ر٠٠٠ شخص ، برفض المطالب الاوربية ، وبابقاء عرابى فى منصبه ..

الفصل الرابع عشر رجاء اخير

♦ ذهبت فى اليوم التالى الى « ايدى هاملتون » فانبأته بأننى قد حصلت على معلومات لا ينسرب اليها الشك ، مضبوها ان عرابى يقبض على زعماة الامور فى مصر ، وان خطر عزل توفيق يشتد ، وقلت له ان من المستحسن المبادرة الى مهادنة عرابى فى اقرب فرصة ، فوعدنى بان يحمل كلامى الى جلادستون ..

وتلقت فى المساء برقية من صابونجى بأن مبعوث السلطان قد اعلن سحب المطالب الاوربية ، وان شيخ الاسلام « الامباى » قد عاد الى صفوف الوطنيين .. وبادتت الى الاوراق الى صابونجى بأن يحصل عرابى من درويش ، وان يدعو الزعماء الوطنيين الى المطالبة برحيله ، ون يصبح عرابى بهادنة الخديو ليضيق على القناصل حجة التدخل ..

ولقد قوبل بالدعشة نيا الاتفاقية التى اقرت بين كل من : الخديو ، والقناصل ، ودرويش ، وعرابى ، لصيانة الامن والنظام .. وما خطر لنا فى انجلترا ان وراء هذه الهدنة خدعة دبرها ماليت وكولفن .. لا سيما

وان عرابي أقسم بشرنه لتوفيق بأن يحى حياته بأى ثمن ، فاستقبل الخديو هذا القسم الى النهاية فى صدره ..

ولقد أخبرنى « بتون » بأن روتشيلد عرض ان يمنح عرابي مئائتا ستويا قدره ٤٠٠٠ جنيه اذا هو يارج مصر .. (ولكننى علمت فيما بعد من عرابي انه لم يتلق هذا العرض ، وانما مئاة القنصل الفرنسى بغضبانة جنيه شهريا اذا هو قبل ان يدخل الى باريس فيعيش فيها كما كان يعيش الامير عبد القادر .. ولكن عرابي ولس)

وتلقت من صابونجى برقية أخرى أرسلها فى شهر يوم ١٢ يونيو ، مؤكدا فيها ان عرابي سيد الموقف ، وان درويش قد سافر الى الاسكندرية ، وكذلك توفيق قد وافقه عرابي الى اللحظة متابعا ذراعه !

على اننى ما لبثت ان تبينت من تحرياتي ان مسافر درويش وتوفيق الى الاسكندرية قد اثار الشكوك ، وتضربت اقباء بان درويش طلب جنودا من تركيا .. ومع ان طلبه لم يكن محتمل الاجابة ، الا ان الجيش المصرى اتخذ امته للطوارئ ، وان ظل عرابي محتفظا باعتماده .. وابقى صابونجى بأن ماليت لا بد مقتول اذا استمر على نشاطه الذى اثار سخط الوطنيين ، فبادرت الى رجاء « هاميلتون » بالعمل على ان يلوث « ماليت » باحدى البوارج .. (وقد علمت فيما بعد بأنه تلقى امرا بذلك ونفذ)

انجلترا تستعد للتدخل المسلح

• وتلقت فى ١٦ يونيو برقية من صابونجى بأن السلطان أوفد مبعوثا آخر وصل الى مصر دون ان يدري أحد شيئا عن الاوامر التى سيعمل وفقا لها .. وان الشعب والجيش يشاوران يوميا لرسم خطط الدفاع ، وقد تولتهم الريب نحو وقى السلطان ..

وبدأت أفقد تقنى فى جلاستون ووايا الحكومة الانجليزية ، لا سيما حين طالعت فى صحيفة «سانت جيمس جازيت» اعلانا عن صدور اوامر بترحيل قوات الى مصر .. ولم أهد أرتاب فى ان الحكومة قررت التدخل المسلح ، وان كانت فرنسا وبقية الدول الاوربية قد عادت عرابي ومصلحته ، وقد اقتنعت بأن لا بد من هذا لضمان الامن والنظام ، ولو ترتب عليه خلع توفيق ..

وتلقت فى ١٨ يونيو برقية بنائيف وزارة جديدة فى مصر تحت رئاسة رالف وجرابي .. كما تلقت رسالة من صابونجى كتبت قبل أربعة أيام ، عن حديث جرى بينه وبين عرابي ، وقال فيه هذا : « لقد دريسا الزمن واسماعيل على أساليب الخداع التركية .. وأن تكون المبادرين الى العدوان ، ولكننا مستقوام كل من يحاول مهاجمتنا .. لسيأ نبقى سوى الإصلاح .. »



وإذا كانت أوروبا - وانجلترا على
الخصوص - تقول أن بوسمها أن
تحتسب في أربع وعشرين ساعة ،
فدعها تجرب .. أن أول رسالة
تطلق ستحرقنا من كل التزاماتنا !
وفي رسالة أخرى بتاريخ ١٧
يونيو ، كتب صابونجي يقول : « كنا
في عادية بدار الشريفي باشا حفرها
غرابي ، عندما قبل جندي يحمل رسالة
من سيده الإنجليزية تلتبس الأمان ..
فسألني غرابي أن أبادر بالكتابة إليها
مؤكداً أن لا خطر هناك . وأنه سيحامي
حياتها كما يحمي حياته إذا وقع أي
اضطراب .. وهكذا أصبح غرابي بطلا

تلوذ به كثير من الأوروبيات ، حتى انهن يسارعن إلى التوالد بحيته حين
تمر عريته في الطرقات ! »

وكتب في ١٨ يونيو يقول : « ضمنى وغرابي وفادة الحسب
الوطني مادية لغدا في دار السيد حسن العقاد .. ودار الحديث من نظم
الحكم ، فإذا الكل يجمعون على تفضيل النظام الجمهوري ، الذي تهدف
إليه الحركة الوطنية منذ بدايتها .. »

وفي رسالة أخرى في اليوم التالي ، قال أن الشيخ محمد عبده اعترض أن
يجمع كل ما لديه من وثائق بصدد القضية المصرية ويرسل إلى إنجلترا ليحرقها
على جلادسون والبرلمان الإنجليزي .. وقد حيد البارودي الفكرة .. كما أخذ
تديم والسيد حسن العقاد - كبير التجار - يستعدان للسفر معه ..

وكتب صابونجي بعد ثلاثة أيام أنه أعد مذكرة بالإنجليزية - سلمها إلى
البارودي - موجهة من الحزب الوطني إلى جلادسون يطلب إرسال فصيل
إنجليزي ، بدلا من ماليت ، وأقرب منه فهما لشئون البلاد .. وإن ماليت كرو
نصحه لتوفيق بالغا. انفض على الشيخ محمد عبده . وعبد الله تديم ،
والبارودي ، وصابونجي ..

كلمة صدق في المصحف الانجليزية

♦ وليس بوسعني أن أعدد بالضيقة التي علق جلادسون عزمه على
العمليات العسكرية في مصر ، ولكن الذي أدريه أنه لم يكن يتوقع أن تطلق

تلك العمليات الى حرب ، وانه كان مندفعاً تحت ضغط حزبه ، وتحت الحاجة الى تغطية الفشل الدبلوماسي الذي منيت به وزارة الخارجية ..

وفي ٢٣ يونيو ، نشرت لـ « التايمز » خطاباً مفتوحاً وجهته الى جلادستون ، كشفت فيه عن الالاميب الدبلوماسية التي أدت الى الموقف القاتم في مصر ، ملخصاً فيه التطورات مذ صدرت المذكرة الثانية ، والدور الذي قام به كل من السير ادوارد ماليت والسير أوكلند كولفن .. وما بذلت شخصياً من مساعٍ ، سواء في لندن أو في القاهرة لتخفيف حدة التوتر .. وقلت في النهاية : « لو أن ممثل جلالة الملكة اظنى باعتراف صادق بأخطائه ، وياعلان لعطف إنجلترا على حرية مصر ، لاستعادت إنجلترا المكانة التي فقدتها .. » وبعد أن أكدت له حرص المصريين على السلام مع التثبيت باستقلالهم ، قلت : « لم يبق الا أن تبسط لهم يد الودية صادقة ، فتقابل بتقدير الجميع .. »

الفصل الخامس عشر

ضرب الاسكندرية

♦ كان ضرب الاسكندرية خطة حمل مسئولية لتديرها الاميرال سيمور ، وكولفن - فان اقضاء ماليت عن مصر ، القى بالسلطة الدبلوماسية في يدي هذا الأخير ، سيما وأن « كارترايت » ، خليفة ماليت ، كان جاهلاً بمصر ، فأول كولفن كل اعتماده وصار يأخذ بمشورته ..

وكان خطايب في « التايمز » قد أنذر ضجة على صفحات الجريدة وفي مجلس اللوردات ، حيث أخرج « اللورد لامنجتون » وزير الخارجية .. وبدأ لـ من اتصالاتي ، أن تدابير الحرب كانت تجري في الخفاء بين الاميرالية ووزارة الحرب - حتى أن رجال جلادستون لم يعلموا بها ! - بل ان « برايت » أكد لـ أنه حين أن الاوان لعرض خطة ضرب الاسكندرية على مجلس الوزراء ، زعمت وزارة الخارجية أن الشعب المصري ملثف حول الخديو ، وأن أول طلفة كفيفة بأن تثير الشعب على عرابي ، وتضطره الى السجود عند قدمي الخديو .. وقد بادرو « برايت » الى الاستقالة عندما تبين كيف استسدرج بالخداع الى الموافقة على ضرب الاسكندرية ..

واذا أرجع الى مذكراتي ، أجدني قد كتبت في ٣ يوليو : « يخيل الى أنه لو حدث أي تدخل ، فسيكون على يدي إيطاليا .. وكما أكره هذا ، لأن الإيطاليين اذا اطلقوا في غزو انقلبوا وحوشاً في أساليبهم .. (ولقد دعيت الحكومة الإيطالية في تلك الأيام الى الاشتراك معنا في غزو مسلح لمصر ، ولكنها اعتذرت بمحنة) .. »

وفي ٤ يوليو كتبت : « سمعت ليدى جريجورى من سير أرسكن ماى (أحد قادة الاسطول) ان الاميرالاي سيمور قد أصدر أوامره بضرب الاسكندرية فى اللد ١ » .. ولقد كانت اول وثيقة فى المكتبات الحكومية من ضرب الاسكندرية هى برقية أرسلتها الاميرالية فى ٢٦ يونيو الى سيمور ، وقالت فيها : « اذا كان الجنود المصريون يتخذون الاستعدادات للهجوم ، فاقصروا يلاميرال الفرنسي وأعدوا سفنكم » ... وتكشف هذه البرقية عن الحجة التى اتخذناها ذريعة للمساءة . على نسق ما جرى بين الدثيب والحمل ! .. ولقد عرف فيما بعد ان سيمور كان قد عقد العزم على ضرب الاسكندرية حوالى يوم ٤ يوليو ، وكان من الاسباب التى اثرت على جلاستون ومجلس الوزراء حتى وافقوا على الخطة ، رواية زائفة عن مذابح وهبية فى (بنها) ، قصد بها إثارة الراى العام للانجليزى ضد عرابى ! »

وأخبرنى « بتون » فى تلك الاثناء ان خطة الاميرالية كانت ترمى الى انزال جنود - أثناء ضرب الاسكندرية - لقطع خط الانسحاب على عرابى .. فبادرت فى اليوم التالى الى الابراق الى صابونجى ليتصالح عرابى بعدم الاحتكاك بالاسطول وللتعجيل بإيفاد الشيخ محمد عبيد الى لندن ، لا سيما بعد ان علمت ان سيمور وجه انذارا للحكومة المصرية ..

وفي ١٠ يوليو ، وجه الى عرابى انذار لم يكن من المقبول ان يقبله ، اذ طلب اليه فيه تسليم القلاع (الطوابى) - وقد رفضت فرنسا الاشتراك فى هذه « القرصنة » ! - والواقع ان مواقف سيمور كان شديد العرج ، اذ كانت قطع الاسطول فى متناول ثيران الطوابى ، ولو كان الوطنيسون فى خبث قومنا وشرهم ، لامكنهم ان يغرقوا السفن ، ولكن عرابى لم يكن بالرجل الذى يبدأ بالقدر .. بل انه كان راغبا فى ان يتفادى اى اصطدام ، ومن ثم سمح لسيمور بأن يهرك بواجبه بحيث أصبحت على ابعساك تناسب الانجليز ..

ولقد خيل الى وقتئذ ان ضرب الاسكندرية وإراقة الدماء سيثيران الراى العام فى انجلترا سيرا بحيث يحول دون الفنى فى مثل هذه الاجراءات .. كذلك خيل الى انه سيفضض الدول الكبرى ، فى نصرة لم يكن من مصلحة انجلترا ان تقضبها .. لكن شيئا من ذلك لم يحدث !

ونشرت الصحف فى ١١ يوليو ان ضرب الاسكندرية بدأ فى الساعة السابعة ... وكان من الواضح ان المصريين كافحوا الى بسالة ورجولة . وانهم لن ينهزموا ، ولو اضطروا فى البداية الى الانسحاب من الاسكندرية .. ونعلا وردت الأنباء فى اليوم التالى بأن «الطوابى» كفت من ضرب النصار ، ولكن القتال لم يكف .. وصرنى ان السلطان ثبت فى موقفه ضد هذا

الإجراء ، حتى هذا الموقف يندر بما سبق أن كتبنا به عرابي من أن الحرب السياسية لن تلبث أن تنقلب إلى حرب دينية .

وفي ١٢ يوليو ، أنباء « بتون » بأن الاحتلال سيفتح لا محالة .. وسرني من الأنباء أن الجيش المصري استطاع أن يتسحب من الاسكندرية دون أن يقع في الكمين الذي كان سيمور قد أعدّه ، وتراجع إلى مكان حصين في كفر الدوار بعيداً عن مرمى الأسطول ..

ومع أن جلادستون أعلن في مجلس العموم أنه لن يرسل جيشاً إلى مصر ، لأنه ليس في حرب مع أحد ، إلا أن « بتون » أكد لي ثمة قسوات ستوفد لضم مصر إلى بلادنا .

وفي ١٦ يوليو كتبت في مذكراتي : « أخبرني بتون أن تركيا إذا كانت قد وافقت على إيفاد جنود انجليز لمصر ، فقد اشترطت أن يدفعوا ويمودوا ، بعد أن يقيضوا على عرابي خلال شهر واحد . وهذا عراء ، لأنهم إذا ذهبوا فإنما ذهبهم ليكتسبوا .. وإذا كان ثمة عراء فهو في أن هذا قد يدعو السلطان إلى إعلان الحرب . »

الفصل السادس عشر

حملة التل الكبير

❖ بقي أن أورد أهم أحداث الحملة الإنجليزية التي صمدت مصر الوطنية في وجهها شهرين .. فليس فيما كتبه الانجليز والفرنسيون وصفاً صحيحاً صادقاً لها :

أولاً - مصر كلها كانت تدافع :

وأول النقاط التي شوهت في الكتب الزرقاء - التي أصدرتها الحكومة الإنجليزية - وتجاهلها الكتاب الانجليز جميعاً ، تتمثل في الطابع القومي الذي اتسم به دفاع مصر ضد الغزو الانجليزي .. فلقد زعمت المصادر الرسمية أن الجيش وحده هو الذي قاوم مطالب سيمور عند ضرب الاسكندرية ، وقاوم الغزو البري الذي قاده « ولسل » .. وما كان هذا سوى امتداد للقصة الخيالية التي كانت تؤلفها وزارة الخارجية الإنجليزية لتبرير التدخل .. والواقع أنه إذا كان عرابي قد أندر دائماً بالمقاومة ، وإذا كان صوته عاملاً هاماً في القرار الذي اتخذ في ١٠ يوليو برفض مطالب الاميرال سيمور ، إلا أن أعضاء المجلس العام أيضاً اجتمعوا على الرفض ، وعلى أنه ليس من حق الخديو أن ينزل عن شبر من أرض مصر استجابة لطلب قائد اجنبي ، دون ما مقاومة أو امر صريح من السلطان .. ولم يكن رأي

الخديو نفسه يختلف عن ذلك .. حتى سلطان باشا - الذى استقر فى صف الانجليز - لم يجرؤ على المجاهرة برد آخر لغير رفض مطالب سيمور .. وقد تلقى عرابى من الخديو - نتيجة هذا الاجماع - اوامر دقيقة بوصفه وزير الحربية بان يعد الطوابى لتطلق نيرانها بمجرد اقدام الاسطول الانجليزى على اطلاق قنابله .. كما صدرت اوامر عاجلة فى مساء ٦٠ يوليو الى وكيل الحربية بان يعلن فى المديرية بان الرأى استقر على الحرب وبدعوة الردف الى الخدمة .. ومن الجائز - بل من الطبيعى - ان الخديو لم يكن مخلصا للمور الذى اضطر الى ان يؤديه ، وانما اخلق وسلطان باشا على ان يتخذ المظهر الوطنى ليحميا نفسيهما اذا اثبتت القلاع انها القوى من الاسطول !

ثانيا - الخديو يضع نفسه تحت الحماية :

وقد تضمنت الكتب الزرقاء اقوال الخديو لمستشاريه الانجليز ، فقد اطلعو على نوايا سيمور منذ ٦ يوليو ونصحوه بان يصعد الى احدى البوابج حرصا على سلامته ، ولكنه لم يستحسن هذه الفكرة واقترح ان يلجأ مع درويش باشا الى قصره الزام على ثروة الحمودية ، وقال ان الخطر على سلامته يقل بالاسراع فى انجاز المهمة .. وهذا ما تم فعلا ، وان كان قد آوى الى قصر الزول بدلا من قصر الحمودية .. وقد انبأنى - فيما بعد - لورد تشارلس بيرسفورد ، قائد البارجة كوندور التى اشتركت فى ضرب الاسكندرية ، ان الخديو صارحه يوما بان السبب الحقيقى لبثائه على البر هو ان الفكرة التى سادت مصر وقتئذ هى ان سفن الاسطول كانت ولا بد ستغرق .. وقد ظل الخديو طيلة المعركة يجرى الى سطح القصر بين وقت وآخر ، حتى اذا اطمان فى النهاية الى بقاء الاسطول وسكون القلاع ، قرر ان يضع نفسه تحت حماية سيمور !

ولايضاح موقف الوطنيين ، جدير بنا ان نقول ان تحول توفيق لم يكن ليطغى الاوامر التى سبق ان اصدرها ، فان الشريعة الاسلامية تقضى بان الحرب اذا اعلنت بقرار من رئيس الدولة ، فان الواجب يقتضيه وشعبه بان يستمروا فيها الى ان يحققوا نصرا او ييؤوا بهزيمة ، ولو اسر رئيس الدولة او غدر بسلوته اثناء القتال ..

ثالثا - عرابى واخوانه يؤدون واجبه على خير وجه :

وثالث النقاط التى يجب ايضاها ، تتمثل فى قيام عرابى والزعماء الوطنيين بمسئولية حفظ القانون والنظام فى مصر ، وفى ادارة خطط القتال ، على خير وجه ، وبصفة مشروعة .. فما هو ان ظهر ان الخديو لم يعد يعتبر رئيسا للدولة ولم يعد يمارس اصدار الاوامر فى حرية ، حتى

اجتمعت فى القاهرة جمعية عامة من الاطباء الدينيين والاعيان درست الموقف .. ومع ان عربى لم يحضر الاجتماع - اذ كان مع الجيش فى كفر الدوار - فان مندوبى الامة المجتمعين ، وكانوا يمثلونها اكمل تمثيل ، اجتمعوا على ان الخديو لم يعد فى مركز شرعى يخول له ممارسة اصدار الاوامر ، ومن ثم فان كل امر يصدره وهو فى ايدي الانجليز يعتبر غير مشروع ولا قانونى ، وان على عربى ان يبقى وزيرا للحريسة ويكلف بالاستمرار فى الدفاع عن البلاد .. وعين مجلس دائم - او لجنة للدفاع - لمعاونته . برئاسة يعقوب باشا سامى وكيل الحربية ، فظلت طيلة الحملة تنظم التجنيد والامدادات العسكرية والمؤن .. كذلك تقرر ان تستمر اعمال الحكومة - بوساطة المصالح الحكومية - ما دام راقب ، رئيس الوزراء ، غالبا فى الاسكندرية حيث ارفقه الخديو وعارسه الانجليزى على البقاء .. والواقع ان مصر لم تر حكومة اقدر على تصريف الامور من الحكومة الوطنية اثناء الحملة .. فقد صانت ارواح الاوربيين ، واوفدت من رغبوا فى الرحيل منهم الى بورسعيد فى حراسة البوليس .. وليس ابعد عن الحق من المزاعم التى راج اللورد « دفرين » يكررها فى مؤتمر القسطنطينية عن ان القاهرة كانت تشهد مذابح يومية يروح المسيحيون ضحايا لها !

وكان لا يد لمركز عربى من ان يظل مركزا سياسيا كوزير للحربية وقائد للجيش وزعيم وطنى .. الى ان شغل فجأة بزحف ولسل اليسرى فامرع الى التل الكبير .. ومكنه ما كان له من مكانة سامية فى نفوس مشايخ البلاد وفلاحي الدلتا ، من ان يستثير همهم للحرب ، فتصدق المطوعون على الجيش من كل فج .. ولم ينتج لى ان ألم بتفصيلات العمليات الحربية باكملها ، اذ كان صابورلجى قد يارح البلاد ، وكان الاوربى الوحيد الذى رافق الجيش وبذل الخدمات لعربى ، هو « جون نيبي » - وكان سويسريا من الوطنيين وصديقا من المتحمسين لحرية مصر - ولكن الكتاب الذى نشره فى سنة ١٨٨٤ كتب فى غير ما دقة ولا عناية ، حتى ليعتمد الاعتماد عليه ..

والذى جمعته من تحرياتي، هو ان المصريين قاتلوا فى اول ايام حرب الاسكندرية ببلا، لم يكن سيمور ولا ضباطه يتوقعونه ، غير ان القلاع كانت قديمة ، كما انها كانت من الحجر ، وهى مادة خطيرة تنفقت الى شظايا رفيعة وعديدة اذا تعرضت للقنابل الحديثة .. ولهذا كانت الخسائر فى الارواح بين المقاتلين كبيرة ، فقتل نحو الف من مجموع حامية الاسكندرية، وكانت تتراوح بين ٨٥٠٠ - ٩٥٠٠ جندي .. واستطاعت العابية ان تنقل

كرامتها ، حتى ان بلادها كان بداية رد الفعل الذي ازداد ظهورا في إنجلترا ضد الحرب ..

ومن الصعير ان يفهم المرء كيف كان عرابي يذهب الى قصر الرمس ليرفع تقاريره الى الخديو ، وكيف همى عن ان الخديو كان قد استفر على الاتجاه معين .. على انه ما لبث ان فطن الى ذلك فارسل في ثمانى ايام القتال حامية خاصة لمراقبة الخديو وحمايته ونصحه بالانتقال الى القاهرة .. وكان خليقا به ان ينتقله ، فان ايماله في هذا الصدد كان خطأ ذا نتائج جسيمة ، اذ انهز توفيق فرصة انشقاق عرابي بتدابير الانسحاب الى كفر الدوار ، وتسلل من القطار الذي كان قد ارسل لنقله الى القاهرة ، وعاد الى الاسكندرية واضعا نفسه تحت حماية سيمور بشكل سافر على : .. وصحب معه درويش ووزراء ، فجعلهم بذلك شركاء له في غدره .. وما ان استقروا في راس التين حتى اقيم سبعون جنديا بحريا انجليزيا لحراستهم ، فكانوا في الواقع اسرى - فيما عدا درويش الذي حضر يخت بخارى سريع يحمل اوامر من القسطنطينية لاستعداده ..

شرك انجليزى لعرابي !

◆ وكان اختيار كفر الدوار لينسحب الجيش اليها اختيارا موفيا - بحيث لو لم يكن ثمة مدخل لمصر سواها - لقدرة اللوطيين ان يكسبوا الموقف ! - وقد اقام عرابي مركز قيادته في «ايكنجى عثمان» ، وتولى محمود فهمى اقامة المناريس وخطوط الدفاع ، كما رحل الاهالى الهاربون من الاسكندرية تدريجيا الى داخل البلاد

وفي مساء ١٤ يوليو ، تلقى عرابي رسالة من الخديو اورد « نبيه » نصها .. والظاهر انها كانت من املاء كولفن او احد مستشاري توفيق من الانجليز ، لان كل عبارة فيها بثيت على الموقف كما كان يراء الانجليز ، فبدلت بالقاء تبعة القتال على ولفي مطالب الاميرال الانجليزى ، الذى ما كان يبغى الحرب ، والذى يريد ان يجدد علاقات الصداقة ويبدى استعداده لان يسلم المدينة الى الجيش ، ومن ثم فالخديو يدعو وزير الحربية الى راس التين ليتباحث مع راجب باشا وبقيّة زملائهما .. وفي الوقت ذاته يجب إيقاف كل الاستعدادات الحربية !

ومن الكتب الزرقاء تعلم ان هذه الدعوة كانت شركا لايماع عرابي في ايدى الانجليز ، كما ورد في برقية من القنصل الى وزير الخارجية الانجليزية في ١٥ يوليو .. ولكن عرابي اجاب مذكرا الخديو بأنه ودرويش هما اللذان حبذا رفضي المطالب ومقابلة العدوان .. وان حالة الحرب قد قامت

بذلك . فلا سبيل الى عودة الجيش الى المدينة ما لم ينسحب الاسطول البريطاني . . . وكان جواب الخديو منشورات بتوجيه الى المديرين يعلن فيها ان عرابي قد جرد من سلطانه كوزير للحربية ، لرفضه امر الخديو بالذهاب الى الاسكندرية .

وهكذا ايقن الاعمال من تحالف الخديو مع الانجليز ، فاستلوا عن وظيفتهم دون اي تستر . . . واثبت الجيش مناعة موقله اذ وفق الى رد حملة انجليزية بقيادة الجنرال اليسون ، عدة مرات . . . فازداد الثغاف الاعمال حول الجيش ، ولما عرابي محط الانتظار والامال . . . وكانت فكرته ، كما رواها - نيليه - ، هي انه اذا افلح في اطالة المقاومة عدة شهور ، فان اوروبا ستضطر الى مهادنته ، لا سيما وان مؤتمر القسطنطينية كان منقدا في تلك الاثناء . وكانت الدول الكبرى تهيب بالسلطان ان يتدخل . . . كما كانت في نفسه بقية من الثقة في اخلاص جلادستون لبيادته ، واخلاص الانجليز لتفانيهم . . . وهي احلام كانت مجسود مراب زائف . . . اذ لم يلبث ولسلي ان هبط الى الاسكندرية مع الدفعة الاول من الحملة البرية في ١٦ أغسطس ، فوجدت اللجنة الحربية في القاهرة ان تولي خطوط دفاع جديدة في الجانب الشرقي الأقصى - الذي لم يكن متيعا - عند قناة السويس . . . ومن ثم اوقف جيش شرقي بقيادة علي فهمي احتل القناة . وشرع في تحصين الخطوط عند النل الكبير - وهي الخطوط التي كنت قد نصحت بتحصينها في رسالة ارسلتها للتشيخ محمد عبيد في ابريل . . . وكان ثمة اجراع بين رجال الجيش على ضرورة سد الطرف الشمالي من قناة السويس للحيولة دون تسلل السفن البريطانية . . . ولكن عرابي لم يتخذ قرارا في هذا الشأن ، فكانت هذه ثائية غلطاته الكبرى . . . (اذ كان دلسبس قد اهاب به - حين تبدي احتمال استخدام الانجليز للقناة اذا قامت حرب - ان يحافظ على حياد القناة . فتلقى منه ردا بالاجاب . . . وقد طن دلسبس للوط اعتداده بنفسه ان مجرد وجوده يجعل حكومتنا تراضي هذا الجهاد بدورها)

دلسبس يسمح للجيش البريطاني بالمرور

♦ ولكن ، في الرابع من أغسطس ، استقرت بعض بوارج بريطانية بين الاسماعيلية والسويس ، بقيادة الاميرال هويت ، وشكا دلسبس من انهم يصدون اوامر الى الاعمال ، فانكر عرابي - باسم مجلس الدفاع - هذا الحق عليهم ، مؤكدا ان الحكومة الوطنية « لن تخرق حياد القناة الا في أقصى الظروف ، وفي حالة ما اذا قام الانجليز باعمال عدوانية في الاسماعيلية او بورسعيد ، او اية نقطة على القناة . . . »

ومع ذلك ، فقد كانت الاستعدادات تتخذ سراً - وعلى ملهى من عرابي - لسد القناة في بقعة بين الاسماعيلية وبورسعيد ، خضوعاً لاجتماع المجلس .. لا سيما بعد ان تبين عرابي ان دليس خدمه ، اذ سمح للبوارج البريطانية بان تنقل ولسلى وجيشه الى بورسعيد .. لكن التأخر فى اعاقه الرود فى القناة كان قد ادى الى ابلغ الاغراء ..

وانتقل الدفاع المصرى الى مرحلة جديدة - وغير مجددة فى الواقع - باحتلال ولسلى الاسماعيلية فى ٢٦ أغسطس بجيش مؤلف من ٣٠.٠٠٠ جندي .. ولم تكن قوات عرابي فى كمر الدوار تزيد على ٨.٠٠٠ جندي نظامي . و ٨٠ مدفعا من طراز " كروب " . وما كانت مصر تستطيع ان تحشد اكثر من ١٣.٠٠٠ جندي مدرب . فى حين ان المتطوعين الجدد لم يكونوا يصلحون الا للعمل اليدوى فى حفر الخنادق .. لذلك وجد ولسلى ان مهمته سهلة ، ولم يكن يفصل بينه وبين القاهرة سوى خطوط النيل الكبير التى لم تكتمل تحصيناتها .. ومع ذلك فان المغامرات السرية الانجليزية ارادت ان تضاعف من ضمانات النجاح باجراءات سرية - واذا كان الكتاب الانجليز قد اعتادوا ان ينفوا فى ايام ان زحف ولسلى قد اقترن بمساعدات اشترت بالرشوة . فان الوقت قد حان لكشف الحقيقة :

ذلك ان نحو مصر من ناحية القناة كان قد دبر فى اوائل العام بين وزارة الحرب والاميرالية ، وتقرر فى اواسط يوليوس تهديد الطريق بالرشوة ، لا سيما لبدو الصحراء الشرقية .. ولعل القارىء يذكر اننى كنت قد توسطت لبعض شيوخ قبائلهم ، وكانوا مسجونين فى القيد فى ربيع سنة ١٨٨١ ، وقد عرف لورد نورثبروك هذه القصة ، فاستغل اسمى - مع الرشوة - فى كسب مساعدة هؤلاء البدو ضد عرابي .. واستعان باستاذ اللغة العربية فى " كمبريدج " - وكان يدعى ادوار بالز - اذ كان على معرفة بالمنطقة . وقد زارنى بالز فى ٢٦ يونيو قبيل سفره . زاعما انه داخل الى الاسكندرية حيث عين مراسلا لصحيفة " ستاندارد " وسألنى ان اعطيه خطابات توصية الى اصديقاتى الوطنيين ..

جاسوس بريطاني !

♦ وكان برنامجى الحقيقى - على ما تبين من تحريائى فيما بعد - ان يبحث مع سيسور فى الاسكندرية خططه ، ثم يرسل الى يافا فيستخفى فى ثياب شرقية ويرتاد الصحراء جنوبى والربى غزة . حيث يتصل بمشائو (الطياحه) و (الطرايين) .. وقد وفق فى هذا ، وانطلق فى الصحراء مستخفيا فى زى ضابط سورى عربى مسلم .. واستطاع ان يكسب شيوخ



المشائر الى صفه ، وان يدعوهم الى
حشد رجالهم لحماية القنّاة « ولو ضد
عرايين باشا » كما ذكر في مذكراته بعد
ذلك .. وكان جزارؤه ان عيسى
« كبير مترجمى قوات صاحبة الجلالة
في مصر » ، وضم الى اركان حرس
الاميرال .. واصبح له خدم وكتيبة
ومترجمين ، وفي يديه ذهب يسيل دون
رقب ولا حبيب .. الى ان قدر له ان
ينطلق مع اثنين من زملائه الى بلدة
« النخل » - في الصحراء الشرقية -
مدبرين في طريقهم القحط التفرافية
بين مصر وسوريا .. وكان في حراستهم
غرب من (الحويطات والحويطات) ،

ادركوا ما كانوا يعملون من ذهب للمشائر الأخرى ، فقتلوه في بطاح وادي
سدر ، واستولوا على الذهب .. وأثار الحادث عجة في البرلمان الإنجليزي ،
دعت وكيل وزارة الخارجية الى ان ينكر كل صلة للحكومة ببعثة « بالتر »
المرية !

الجاسوس العربي الذي غدر بعرايين !

❖ كذلك تضمنت مذكرات بالمر ابناء مهمة أخرى قام بها غريبي فنانة
شويس ، وكان مزودا بقائمة - بخط يد الخديو - تضمن أسماء كبار
سوخ المشائر - ومنهم سمود الطحطاوى في الصالحية ، ومحمد إيلقى في
وادي طحيلات

ولقد وصلت انا الحملة لكشف اسرار هذه المهمة .. فبعد ان نظيت
الحقيقة في مجلس الصوم ، أثارها شقيق زوجتي - اللورد وتويرث - في
مجلس اللوردات . وقام اللورد جرانفيل واللورد نورثبروك وزملائهما مرة
أخرى بالنكار الحقيقة في اصرار .. وكان سمود الطحطاوى هو الشيخ
عربي الوحيد الذي وفق في براعة الى القدر بعرايين ، الا عمل جاسوسا
في نفس مصكركه ، حد تقلت القيادة المصرية من كفر الدوار الى التسل
الكبير ، وقد تفاشى عن ذلك ٥٠٠٠ كراون نسوى ذهبي .. وقد اعترف لي

مزحوا بأعماله - دون ان يعرف ميول السياسية - حين مردت بالصالحية وخرجت على مضاربه في ربيع سنة ١٨٨٧

على ان اعظم ضرر حاق بعرايى وسهل وعجل زحف ولسل ، هو ما قام به عدد من الجواسيس الذين اتدسوا بين جيشه - في القاهرة والتل الكبير - مسلحين بقلل ووعود الترقية لمن يتمردون من رجال عرايى - وكان هؤلاء الجواسيس موفدين من الخديو ، يشد ازرعهم عثمان وقتبك ، الذى لجأ الى الضرب على الاوتار التى تثير غيرة الضباط ، لا سيما اولئك المتحدرين من اصل شركسى - والايحاء اليهم بان ولسل والانجليز انما يقدّمون الخديو بموافقة السلطان الذى لن يلبث ان يعلن ان عرايى متمرد خائن !

اما بين الزعماء الوطنيين المدنيين ، فكان هناك ميموث آخر لم يخفق في التأثير عليهم ، ذلك هو الزعيم القديم لحركة الدلاح « سلطان باشا » ، الذى ارتضى في احضان الانجليز ، ولم يعد يخجل من ان يشيع الفرقة بين من ظنوا متمسكين بوطنيتهم . . . واعتقد انه كان صادرا في ذلك عن عذاه اكثر منه عن طمع ، وقد استعمل في مهمته سلاح المال ، ويبدو انه كان يتفق من جيبه الخاص - اذ كان اول قرار حالى اصدورته حكومة الخديو بعد معركة التل الكبير ، هو ان منحه علنا ١٠٠ و ١٠٠٠ جنيه كتعويض عن الخسائر التى حاقبت به اثناء الحرب ، وان يكن ما انقله لم يصل الى هذا الرقم . .

غدر وخيانة . . وسوء ظالم !

♦ ومع كل ذلك ، فقد كان من الممكن ان يطول امد الدفاع الوطنى ، لولا الحظ العاثر : اذ وقع محمود فهمى في الاسر بعد ايام من وصوله الى التل الكبير ، ولما يتم اقامة الاستحكامات الدفاعية ، فقد خرج الى الجانب الاخر من وادى الطميلات يستروح النسمات ذات مساء وقد تخلف من برزته العسكرية ، ولم يصحبه سوى ياوره . واذا بجياعة من الحرس الانجليز يفتشونه ويقتلونه . وهو بسئلى من الياور ، وكان اعتقاله ضربة قاسية لدفاع التل الكبير

كذلك كان من سوء الحظ ان اصيب اثنان من القادة ذوي الدراية ، في التضاميين . . فقد قام على فهمى ورشيد باشا بعملية استكشاف ، اتبعها بهجوم على ولسلى ، وكاد « دوى كورنوت » ان يقع اسيرا في ايديهما - ولو تم ذلك ، لا كان ثمة شك في ان يضطر الانجليز تحت ضغط الراى العلم البريطانى الى طلب الصلح والمهادنة . . ولكن محمود سامى ، الذى كان مقدرا ان يزحف بالى رجل من الصالحية ، اشغل الخواص اذ ضلله بدو سموده الطحاوى اثناء الليل . . ومن ثم لم تصل كل القوة التى كانت معدة لـ

الميدان ، كما جرح على قهسى ورشيد ٠٠ فضلا عن ان قائدا من زملائهم - هو على بك يوسف - غدر بهما عمدا -
وهكذا ساد الاضطراب في التل الكبير ، ولقد عرابى خيرة ضباطه دون ان يستطيع تدبير من يحل محلهم ٠٠ اذ ان الضباط الباقين الذين كانوا موضع ثقة - ومنهم على باشا الروبى الذى عهد اليه بالقيادة هناك - كانوا نالسى الخبرة والتجربة ٠٠ كما ان عرابى ظل في معسكره معوطا بالاعيان الذين كانوا يتوافدون لزيارته ، ومعتمدا على سعود الطحاوى فيما كان يزيله له من معلومات عن حركات جيش ولسلى ٠٠

الليلة المشؤومة !

♦ ولم يكن في قوات عرابى في التل الكبير من الجنود النظاميين المدربين ما يزيد على ٦٠٠٠ أو ٧٠٠٠ ، والباقي من المتطوعين ، وقد راحوا يصلون ليل نهار في استكمال خطوط الدفاع ٠٠ الى ان جاءت النهاية في فجر ١٣ سبتمبر على حين غرة - ولقد اضفى الانجليز جوا خياليا على زحف قواتهم من (المحسنة) ليلا ، ولكن الطريق كانت في الواقع مبهدة من قبل بوسائل الرشوة والغدر كما قدمت ٠٠ لا سيما وان اثنين من صفار ضباط عرابى الذين عهد اليهم بمراكز هامة ، قد قبلوا رشوة الخديو ، وهما على بك يوسف وعبد الرحمن بك حسن ٠٠ وكان اولهما يتولى القيادة في جزء من الخطوط المركزية ، فلم يكتف بعبادة مكنة في الليلة الفاصلة ، بل انه وضع مصباحا لارشاد الأعداء ! ٠٠ اما الثانى الذى كان قد عهد اليه مع رجاله - حرس الخيالة - بحراسة الطريق الصحراوى من الشرق ، فقد نقل رجاله في تلك الليلة بحيث ترك الطريق مفتوحا للانجليز :

اما عرابى وبقية الجيش ، فقد اطمأنوا الى المعلومات الزائفة التى قصدها لهم سعود في تلك الليلة ، فاخذوا الى النوم ٠٠ واذا بهم يفاجأون بالعدو يخترق خطوطهم في تقاطعها الضعيفة ، فلاذ المتطوعون غير المدربين بالفرار ، ولكن الانجليز احذقوا بهم واندبوا المعركة الى مجزرة ! ٠٠ وصمد الجيش - لا سيما المدفعية بقيادة محمد عبيد - ولكن مقاومتهم لم تدم اكثر من اربعين دقيقة ، استشهد خلالها عبيد وطائفة من خيرة رجاله ٠٠ ولم تنقضى ساعة ، حتى كان الجيش الوطنى قد غدا حطاما ٠٠ ولقد حاول عرابى ان يتفادى هذه النتيجة ، وان يصل خلال الموج الهاربين المدعورين الى خطوط محمد عبيد، ولكنه لم يستطع ، واضطر في النهاية الى ان يلجى رجاء خادمه - الذى كان يرافقه - وان يرتد الى محطة التل الكبير قبل ان يحتلها الانجليز ، فلما لم يجد قطارا ، عبر الجسر الصغير قبل ان يفتح ، وانطلق الى بلبيس ٠٠

وكان كل هم عرابى ان يصل الى القاهرة قبل ان تبلغها انباء النكبة ،
 فيحصن المدينة ويعدّها للدفاع ..

ولكن دسائس الخديو ، والاعلان الذى اصدده السلطان باعتبار عرابى
 خائنا • قضيا على كل أمل • ثم وضع وصول الفرسان اليهود الى العباسية
 لجة • حدا لمقاومة اللجنة الحربية • واذا رأى عرابى ان كل فرصة قد
 ضاعت ، سار الى العباسية فسلم نفسه • اسير حرب •

الفصل السابع عشر

محاكمة عرابى

• فى تلك الاثناء لم اكف عن مواصلة جهودى فى لندن ، وكان مما
 ساعدنى ان قامت جماعة من « الراديكاليين » الممارسين للحرب بجولة فى
 الاقاليم حولوا خلالها الراى العام لصالحى • • • مما انتفى بادوت الى اثاره انتباه
 جلاستون الى ما بدأت الصحف تنشره عن القضاة الانتقامية التى شرع توفى
 ووزراءه الشراكسة بوقعونها بالأسرى الوطنيين حتى انهم كانوا يتزعسون
 الظاهر محمود فهمى القائد المهندس ، ويعرضونه للضرب بالسياط ، وغير ذلك
 من الزوان التعذيب • • • وكان أخشى ما خشيت وسط الفسجة التى احداثها فوز
 الانجليز فى القتل الكبير ، ان يتعرض عرابى لعمل انتقامى ، فيتخطى كبش
 الداء للاخطاء التى ارتكبتها الخديو والانجليز • • لا سيما وان جلاستون
 ووزراءه كانوا يميلون الى ان يتقاضوا عرابى حياته انما لجرمهم السياسى •
 ولكن الراى العام استطاع ان يحولهم عن هذا الاتجاه • •

كذلك كسبت الى جلاستون مباشرة اعرب عن خوفى من ان تكون اية هيئة
 عسكرية يؤلفها الخديو لحاكمية عرابى • منحيزة ومفرطة • ومن ان لا يستمع
 الشهود المدول بحرية اداء شهاداتهم ، وان تحشد السلطات شهود الزور
 • • وانتهيت الى اننى ونفر من اصداقائى قد اعتزعتنا ان لهبىء مجلس دفاع
 لعرابى وكبار المسجونين من الوطنيين فى القاهرة •

وفى الوقت ذاته ، وجرت ان يسمح لى بالكناية الى عرابى فى سجنه
 مؤكدا له صداقتى • وسائلا اياه ان يوكلى عنه فى رعاية مصالحه وتدبير
 الدفاع عنه • •

ورد • هاملتون • نبأه عن « جلاستون » فقال ان الرسائل الموجهة
 الى عرابى لا بد ان تحظى باذن من الخديو ومن القائد العام البريطانى ،
 ونصحنى بان ارسل خطابى الى « ماليت » ليتولى الامر • • ولكن « ماليت »
 لم يلبث ان رد الرسالة معتذرا بان تعليمات وزير الخارجية تضطره الى ذلك • •

وكانت الظواهر كلها تجمع - يوماً بعد يوم - على أن عرابي لن يحظى بمحاكمة عادلة . فلما قيل أن أسماء أعضاء المحكمة العسكرية ستعلن في ٢٨ سبتمبر ، عدت الكتب إلى جلاستون بشأن مجلس الدفاع عن عرابي وزملائه ، وأسأله أن يتيح لي ولزملائي حماية دبلوماسية في القاهرة تمكننا من العمل للأهداف التي ننشدها

ولكن الخطاب لم يصله ، إذ كان قد بارح لندن ، وحوله سكرتيره إلى وزارة الخارجية . . . غير أننا لم نحظ بجواب من جرانفيل ، فقسروا و « بتون » و « لورد ديلاوار » أن لا نضيع الوقت عبثاً ، وابقنا إلى «برودل» المحامي الشهير - وكان إذ ذاك في تونس - حتى يسافر إلى القاهرة حيث سيجد في انتظاره محامياً آخر يعمل كمساعد له . . . وكان هذا المحامي المساعد هو « مارك نابير » الذي عرف بالكفاح في قضائه ، والذي كان على دراية بالأساليب الدبلوماسية ، إذ كان ابناً لسفير سابق . . . وكان عليه أن يبادر فور وصوله إلى القاهرة إلى مقابلة « هاليت » والأصرار على رؤية عرابي بوصفه محامياً عنه . . . وأن يشير كل ضجة ممكنة إذا أبى عليه « هاليت » ذلك . . .

أما أنا ، فقد رأي « ديلاوار » - أذا حق وزارة الخارجية على - أن لا أذهب إلى القاهرة ، لأنه توقع أن اعتقل وأرحل عنها ثانية إلى إنجلترا . . . وفي الوقت ذاته ، سعى « ديلاوار » حتى حصل من جرانفيل على تأكيد بأن الخديو سيتيح للدفاع عن المسجونين كل فرصة معقولة ، فنناول « بتون » هذا الوعد ، ونشره في « التايمز » محوطة بطنطة أخرجت جرانفيل ، وألزمته به !

عراقيل . . ودسائس !

◆ وأخذنا فجأة بظهور « كولفن » من جديد على مسرح الموقف في القاهرة . وكان لا يقل تحمسا عن الخديو في العمل على منع نشر شيء عن المحاكمة ، التي راحت وزارة الخارجية تتمهلها قبل أن يصل « برودل » إلى القاهرة . . . فنقل عرابي إلى حراسة الجيش الإنجليزي ، ومنع كل اتصال بينه وبين الخارج دون موافقة الحكومة الإنجليزية . . .

وحدث يوم ١٤ لبدا المحاكمة ، في حين أن برودل لم يستطع أن يصل قبل يوم ١٨ . . . بيد أن ظهور « نابير » على غير توقع ، قلب خطط الوكالة الإنجليزية رأساً على عقب !

وزيادة في عرقلة المحامين الإنجليزين ، اختبر القانون الجنائي العسكري الفرنسي لتطبق في المحكمة العسكرية ، وهو يتيح إجراء تحقيق كامل مع

التهمة ومناقشة الشهود قبل أن يتصلوا بالحامين ٠٠١ وكان الخديو يرسل بعض الطواشي ، سرا الى عرابي وزملائه في السجن ، لينزلون بهم السي الوان التعذيب الوحشى ، لتحطيم روحهم المعنوية ٠٠ كما أعلنت الحكومة المصرية انها لن تسمح باى دفاع الا اذا كان بالعربية ١

وكان كل ما فعلته الحكومة الانجليزية للحد من نفعة الخديو ، ان هبت انجليزيون يجيدان العربية ، للاشراف على اجراءات المحاكمة ٠٠ وشاء القدر ان يكون الاثنان من المخلصين ذوى الامانة والشهامة ، وكانا - بالمصادفة - من اصداقائى ، وهما « سير تشارلس ولسن » و « اندرين بيسان » ٠٠ وقد اعجبا بجند عرابي وعوقفه الكريم أثناء المحاكمة ، وقدموا للحامى « ناير » ما فى وسعهما من مساعدة خاصة ٠٠

واقترح ناير فى اقتناع ماليت بأن يعترف به وبالحامى « ايف » - الذى وجده لحسن الحظ فى القاهرة - كممثلين رسميين لاصداقاه عرابي ٠٠ وكان ماليت يرجئ كل محاولة له كى يقابل عرابي نفسه ، ويحيله على رياض باشا - وزير الداخلية - الذى كان يرفض كل طول الخط ٠٠ بينما كانت المحاكمة تدار بسرعة ٠٠

التأخر على حياة عرابي

● وفى ١٢ أكتوبر ، اندلعت «ديلاوار» بأن حياة عرابي مهددة بالخطر ما لم نخط اجراءات حاسمة ٠٠ وقررت مع «بتون» ان نهيى بالترى العام الانجليزى ، وان نثن حملة شديدة على وزارة الخارجية وجلاستسون نفسه ٠٠ وقبلنا كتب رسالة قاسية الى جلاستون اتهمت فيها جرافيل بكل ما فى نفسى ، وعمل «بتون» على أن تروج «التايمز» لهذه الرسالة ، وان تتناول الموضوع فى مقالها الرئيسى فى اليوم التالى ٠٠

وفعلت هذه الحملة فعلا فاعتسرت وزارة الخارجية بضرورة الاذع محاكمة عادلة لعرابي وزملائه ، وامرت ماليت بأن يسحب اعتراضه وان يعامل الحامين الذين اوقفناهم لعرابي معاملة طيبة ٠٠ وكان هذا كفيلا بان يشجى فرع الخديو ، الا ان المحاكمة العادلة تفضح الاعيى ، كما تكشف الاكاذيب الرسمية التى بنت عليها الحكومة الانجليزية تصرفاتها ٠٠ ولم يكن السلطان ايضا بمنجى من الانتصاح ، ومن لم تلقى من ناير برقية فى ١٦ أكتوبر بأن من المتوقع ان تتخلص الحكومة المصرية من المحاكمة وأن تدفع كبلو المسجونين الى مبارحة البلاد ١

وفى تلك الاثناء ، وصل برودل الى القاهرة وبدأ يعمل بنشاط ٠٠ وكان الاتهام يتصاع بعدم التمرير بالخديو ولا بالسلطان ، وقد وجهت الاستة فى المحاكمة وفقا لهذا الاتهام الذى كان يلائم افراض حكومتنا ، اذا

لا يهدم المبررات التي تلوقت بها في سياستها ضد عرابي ، وفي إدارة
دولة الحرب ..

مصير عرابي في كفة ميزان !

♦ وفي ٢٢ أكتوبر . سمح لبرودل ونابير بمقابلة عرابي في سجنه .
ووجدوا أن لديه من الأموال ما يفع أسلحة لدفاع قوي .. وقد كتب لهما
في الأيام القلائل التالية تاريخا عاما . وصريحا . ومقتضا . لكل المسائل
السياسية التي كان له شأن فيها .. وكان أهم نصر لهما أن استطاعا
بمساعدة زوجة عرابي وابنه وخادمه . أن يحصلوا على الوثائق التي كانت
في حوزته . وكانت مخبأة في مكان أمين لم تستطع أيدي عبيد الخديو أن
تصل إليه .. وقد كانت هذه الوثائق ذات قيمة عظيمة . لا سيما وقد كانت
بينها الرسائل التي كتبت إليه بأمر السلطان .. حتى لقد كتب ل نابير
في ٣٠ أكتوبر يقول إن الحكومة لا تستطيع أن تواجه دفاعهم . بأن تعرض
صلحا ترد فيه كل ما سؤد من أملاك في مقابل إقصاء عرابي وصحبه عن
البلاد ..

ووجد التطور الذي وقع في القاهرة صدى مضاعفا في صحف لندن .
واستطاع « برودل » بما كان له من صلات أن يكسب الصحافة في صله ..
وعجز مالت وكولفن عن مقاومة التيار ، فلذا الأسرار لتكشف واحدا بعد
الأخر ، ففقد كولفن ثقة وزارة الخارجية . كما بما مالت غير كفاء لمركزه
.. وجن جنون جرائيل لما أحرزنا من انتصارات في القاهرة ، فأولده
اللورد دلفرين ليصمى لتسوية الموقف وتغاضي الفضيحة .. ويادرت أكتب ال
برودل في ٢ نوفمبر أحذره من أن دلفرين سيحاول إقناع عرابي بقبول أن
ينفى ال بقعة في الإمبراطورية البريطانية يبقى فيها كاسيسر سياسي
ويعامل خير معاملة ، كما سيحاول أن يحصل منه على أوراقه ووثائقه ؟
ونبهت برودل ال ضرورة أحباط الفاسيتين ، وال ضرورة تثبيت عرابي
بالعاصمة . وبأن تسحب في المحكمة - علانية - الاتهامات الموجهة إليه وال
صحبه ! كما نبهته ال أن دستور فبراير سنة ١٨٨٢ - الذي اعترف ٤٠
الخديو والسلطان - يحرم النفي .. ففي سلطة أي منهما أن يقصيه عن
منطقة نفوذه . ولكن ليس من حقه أن يحدد له مكان النفي الذي يستقر فيه .

الفصل الثامن عشر

بعثة ((دفرين))

♦ كان الخديو ووزرائه يعملون في حرية لانراضهم . حتى وصل دلفرين
ال القاهرة في ٦ نوفمبر ، فلم يدع للخديو فرصة خداعه بأكاذيبه . وفتح

أبواب الوكالة الإنجليزية لكل راعب في أن يدل بمعلومات ، وسرعان ما ألم بفكرة صادقة عما كان يجري في مصر خلال العامين الأخيرين ! .. وحظي برودل ونايبر بتقابلة دفرين مرارا ، والاطلاع على كل ما كان يدور في المحاكمة من خدع والاعيب .. وفي ١٨ نوفمبر تلقيت برقية من برودل جاء فيها :

« هناك أمل في صلح رائج .. لا تهاجسوا وزارة الخارجية - التكنم التام ضروري .. ولكن الحكومة المصرية وكبت رأسها ، وراحت تعمل جهرا وفي تعد ، لتدفع برأس عرابي إلى المشنقة .. وراح برودل ونايبر يفوضان الحركة ، واستطاعا أن يكسبا عون ولسن ودفرين . ولكن حكومة الخديو كانت تفضي في خطتها الجهنمية بسرعة عجيبة .. وأخيرا ، كتب لي برودل في ٢٧ نوفمبر ١٨٨٢ يقول أن من الممكن الوصول إلى صلح مرضي ، على أن ينفي عرابي ومحمود سامي وطلبة إلى رأس الرجاء الصالح ، وأن يجردوا من رتبهم العسكرية وممتلكاتهم .

وكتب نايبر في نفس التاريخ يبين كيف أن إدارة البريد كانت تفتح الرسائل التي كتبت أبعث تعليماتي فيها ، ويشير إلى الاعيب التي كانت تجري في المحاكمة ..

وكان حريق الاسكندرية - اثر ضرب الاسطول لها - هو العقبة الكبرى في طريق الدفاع .. فمع أن « نيفيه » أثبت أن الحريق نشب نتيجة القنابل والمتفجرات ، إلا أن أعداء عرابي استطاعوا أن يثبتوا أن عرابي هو الذي أمر بإشغال النيران ! .. وتعدر على الدفاع أن يحطم الاتهام .. ومن ثم كان خير حل هو المساومة على نفى عرابي ، ومحاولة اخراجه منى مناسب له .. مع ضمان معاش ملائم له ، وتعويض عن الثروة المصادرة .. وكان هذا أقصى ما استطاع دفرين أن يعد بدفع الحكومة المصرية على تقديمه ..

وانتهت المفاوضات إلى أن يكون المنفى في جزيرة « فيجي » أو جزر « الأزور » ، بيد أنني تشبثت بأن يكون في بلد إسلامي ، فجاءني الرد بأن دفرين يقترح أن يتباحث « ديلاوار » مع وزارة الخارجية في ذلك .. وخرج « ديلاوار » من مباحثاته بأن حولت وزارة الخارجية لدفرين أمر اختيار المنفى ..

عرابي في المنفى

◆ وفي تلك الاثناء كنت أعمل جاهدا في تدبير نفقات الدفاع ، فقد بلغ ما لبرودل ٣٠٠ جنيه ، في حين أن ما استطعت أن أجمعه من اكتتاب لم يتجاوز ٣٠٠ جنيه ، ومن ثم لم يكن في طوقنا أن نطيل المحاكمة لتكسب موقفا أفضل ، لأن اطالها كانت تتطلب مزيدا من النفقات !

لهذا اضطررنا الى ان نقنع بالنتيجة التي وصلنا اليها ، وان نحصل على قبول بان تكون « سيلان » هي منفى عرابي ٠٠ اذ يقال انها كانت مقام ابينا آدم بعد ان طرد من الجنة !

على ان احتياطا واحدا ، لا ادرى كيف غاب عن فطنة برودي : ذلك هو ان نسجل شروط الصلح كتابة ٠٠ فقد اتاح ذلك للحكومة المصرية ان تهين المسجونين وان تخفض رتبهم العسكرية ، وهو ما اوقن من انه لم يكن من نوايا دفرين ٠٠ كما انه ترك مجالا للنزاع فيما يتعلق بمقدار المعاش والتعويض ٠٠ وكان اكبر المسجونين نصيبا من الضرر هو محمود سامي ، اذ كانت ممتلكاته المصادرة تفوق ممتلكات سواء بكثير ٠٠

والآن اذ اختتم مذكراتي ، لا ادرى ما سوف يكون عليه مستقبل مصر ٠٠ على ان الامة ستبقى حية ، وقد ياتي يوم يتاح فيه للفلاحين ان يحكموا انفسهم ، واذا ذلك ، سيتهيئ لهم الكفاح المسلح الذي جرى في سنة ١٨٨٢ في شوله الحقيقي ، كاتاجة لحياتهم القومية ٠٠ وهي حياة ستكون مخلوطة بالعلبة والمجد ٠٠

تم الكتاب

مصلحة البلديات

تقبل العطاءات بمصلحة البلديات « بوستة قصر الدوبارة » لغاية ظهر يوم ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٥٤ عن عملية :

اصلاح سوق اللواتي ببليينيا مديرية بني سويف

وتطلب الشروط والوصفات من المصلحة على ورقة تغلف ثلثة الخمسين مليما مقابل دفع مبلغ ٣٠٠ مليم خلاف اجرة البريد وطابع الهن الهندسية وكل عطاء غير مصحوب بتأمين ابتدائي قدره ٢ في المائة لا يلتفت اليه .

٨٦٧٩

وزارة الحربية والبحرية

مصلحة الطيران المدني

يقبل مدير عام مصلحة الطيران المدني تقديم العطاءات حتى الساعة ١٢ من ظهر يوم ١٧ أكتوبر سنة ١٩٥٤ عن عملية انشاء مبنى المنارة اللاسلكية بمطار بورسعيد وتطلب الشروط والوصفات والرسومات من قسم الشتريات « ١٣ شارع فؤاد الاول بالقاهرة » على ورقة تغلف ثلثة الخمسين مليما نظير دفع خصماتة مليم عدا . مليما اجرة البريد .

٨٦٩٦

عزيزى القارئ ...

فى هذا الباب قدمت لك فى الإعداد
الخاصة من كتابى ، الكتب الآتية على
التالى : « كيف تصارح أولادك وبناتك
بالخفايا الجنسية » ثم « طريق السعادة
الزوجية » و « مركب النقص » و « حواء
الجديدة » ثم « كيف تقهر الحجل » و « كيف
تقهر الفلق وتستمتع بالحياة » ..

ثم قدمت لك بعد ذلك من « فنون
الحياة » التى شرحها المفكر العالمى « اندريه
موروا » : فن الحب ، فن الزواج ، فن
الحياة العائلية ، فن الصدقة ، فن العمل ،
فن الزعامة ، فن السعادة ، فن التفكير ،
والخيرا فن الاستمتاع بالشيء فلوحة ..

ثم قدمت لك عقب ذلك سلسلة
فصول كتاب « غزو السعادة » لبرتراند
رسل .. فكتاب فرويد المشهور
« التحليل النفسى » ، يليه « كيف تصارح
من نجاحك فى الحياة » ، ثم « الجنس
الآخر » ، و « عش حياة ايجابية » ،
و « ابواب الحب المغلقة » ، و « فن الحب » ،
للشاعر الرومانى أوفيد .. ثم « الانتصار
على الخوف » ، للاخصائى المعروف
« جيمس بندر »

واليوم أقدم لك الجزء الثانى من
الكتاب العالمى فى « العلاج الطبيعى »
للاخصائى الألماني الدكتور « برنارد
ديتمار »

حواضر الحياة



النفس

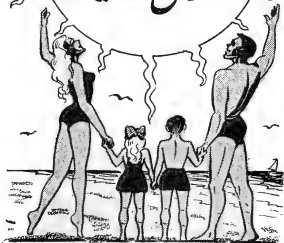
والجنس ..

والمجتمع ..



دکٲور
برنارڊ ڊيٽمار

عش بحکمة .. تعش ساليما !



الصحة ليست هبة .. وانما هي كفاح !

♦ يتغنى الشعراء والفلاسفة بهدوء النفس وقدرة المرء على أن لا يخرج عن وعيه ، حتى لقد دعا بعض الفلاسفة القدماء الى مذهب «عدم المبالاة» ، والواقع أننا لو أنعمنا النظر في الطبيعة البشرية ، لوجدنا أن «عدم المبالاة» كان مذهب قوم ملوا الحياة ، وثاقوا – دون وعي – الى أن يفروا من عالم المظاهر المصطنعة وعدم الراحة والشواغل المستمرة والانفعالات والالام .. وهذه حال لا تزال قائمة في عالمنا اليوم .. بيد أن «عدم المبالاة» لا يمكن أن يتحقق الا بالموت ، اذ أن نفوسنا تظل – ما دمنا أحياء – بعيدة عن أن تعرف الراحة ، وكلما تجلت حركتها ازدادنا حياة .. ولا بد أن تتناوبنا عوامل السرور وعوامل الاستياء ، دون أن تكون لاي منها الغلبة على الثانية .. وكلما ازدادنا صحة ، سهل على العقل والروح مغالبة المضايقات والمثبطات السلبية ..

إن الصحة هي السعادة .. وليست السعادة في مجرد غياب الالم ، وانما هي في أن نكون من القوة دائما بحيث نهزم الالم اذا أصابنا .. في أن نحول الاستياء الى ابتهاج ، وأن نهزم الخبيث من الطيب ، وأن نخوض المتاعب ضاحكين .. ولن يقوى على ذلك الا الصحيح الجسم ، الموفور الصحة .. ولكن الصحة ليست مجرد هبة ، وانما هي بقية لابد من أن نجدد الكفاح في كل يوم من أجلها .. فإن التغيرات التي تطرأ على أبداننا تحدث في ببطء وتسلل ، فلا نكاد نتيبينها أو نشعر بأثرها في جهادنا من أجل الصحة ، ولكن النفس هي التي تكشف لنا مدى تقدمنا .. فاذا شعرنا بالسكينة والهدوء ، كنا ماضين في الطريق الصحيحة ، وكل اشارة للقلق وعدم

الراحة تنم عن انحراف .. بل هي أكثر من العوارض البدنية دلالة على المرض .. وهي نذر لنا كي نرتد الى الطريق الصحيحة . فالصحة ليست بالشئ الثابت ، أو الذى يقاس بكميته ، وإنما هي تعبير عن مدى انتصارنا في كل مرحلة وميدان في كفاحنا ضد تكون المرض والقوى الهدامة . ولابد لميزان الصحة من أن يتأرجح ، ولكنه يجب أن لا يتجاوز الوسط في الهبوط ، وحيدا لو بلغ الذروة في الصعود .

أهمية النوم .. والراحة الجسمية والنفسية

♦ ان الحركة ضرورية للنفس لضرورتها للجسد .. فالنفس التي لا تنضب للحق أو تنور ضد الظلم نفس مريضة .. وهذا الذي لا يحل بأمله ، ولا يصل رحمه ، ولا يعنى بأخوته في الإنسانية . راضيا بأنانيته عاكفا عليها لا يعد من الأحياء .. والذي لا يعرف الحزن لا يعرف الفرح . يجب أن نستعين بكل قوة وكل عاطفة في كياننا في صراعنا ضد الهزات والاضطراب والمرضى ، ضد كل شر في أعماقنا وخارج كياننا .. ومن أجل هذا تتطلب الحياة الحركة ، عل أن تكون حقيقية لا زائفة. إذ بهذا تصبح الحركة سلاخا في سبيل الصحة ..

وكل حركة جسدية ونفسية تستهلك من نشاطنا ، ومن ثم فلا بد من أن نعوض ما ينقص بالراحة .. يجب أن تعقب الراحة والاستجمام كل توتر وإرهاق .. ومهما كانت فترات الراحة في النهار ، فإن راحتنا الكبرى . والرئيسية ، هي راحة الليل : النوم .. فهو من أهم الوسائل لاستبقاء الصحة والشباب ، إذ أن خلايا الجسم التي ينهكها عمل النهار ، تعيد نشاطها وتجدد قواها أثناء النوم ، فإن أعضاء الجسم تكف عن العمل ، أو هي لا تعمل إلا القليل ، أثناء النوم ، وتتحرر أجهزة الحس واللمح من التأثيرات العديدة النواحي التي تتعرض لها بالنهار .. ومن ثم تجد الخلايا الفرصة للانصراف الى الإصلاح والتجديد .. وكثيرا ما تكون الأحلام ضرورية لتحرير الروح من الضيق والأرهاق ، ولتسوية كثير من الممارك التي تتورق فيها ، ولانصاج الأفكار التي لم تستكمل النضوج ..

لهذا كان لابد من أن يكون الفراش مريحا ، وإن تكون الطبقة التي تحت الحشية « الملاء » يابسة ، أو تكون الحشية ذاتها محشوة بالفش حسوا تاما .. ومن الخطر أن يبدأ الإنسان في فقدان النوم بسبب عادات خاطئة في أسلوب حياته ، فالنوم المضطرب من نذر الطبعة ، ويجب المبادرة الى علاجه . وسأورد

فيما بعد خير الطرق لذلك .. ومن الخطأ التام أن يتخيل المرء أن في وسعه أن يفرض النوم على نفسه بقوة الإرادة أو بالعقاقير ، فإن الارق دليل على اضطراب مؤكد في الجهاز العصبي الأوتوماتيكي الذي يحكمنا ولا يخضع لرغباتنا . وإذا لم يتيسر للمرء النوم ، فليس أقل من أن يستريح مبطناً عينيه ويطلق نفسه على سجيته وطبيعتها دون أى قيد . وهذا نوع من الراحة . لتسنى ممارسته في كافة الاوقات ، ومن ثم يحسن ممارسته كثيراً ، حتى في النهار .. ولا ينبغي أن نتجاهل شعورنا بالتعب ، وإنما يحسن أن نتمتع بالراحة ساعة أو نصف الساعة أثناء النهار ، لا سيما بعد الغداء .. وفي حالة الإرهاق الشديد أو التعب الشديد ، يجدر بالمرء أن يستلقي في الفراش من وقت لآخر ستاً وثلاثين ساعة - أى ليلتين ونهار على التعاقب - ولا يجب أن يتناول طعاماً في الفراش ، فالسرير للنوم فقط ..

وفي حالات الإرهاق يحسن أن نلوذ بالصمت ، فلا نكلم الا حيث يكون الكلام ضرورياً في معركة الحياة .. فالصمت راحة واستجمام للعقل ... ولو استطعنا أن نلزم الصمت المطلق ساعة واحدة في كل يوم لكان لهذا أثر عظيم في الاستجمام .. فتناوب الراحة والحركة - بالسر المفقول - من عوامل الصحة العظيمة القوية ..

الماء من أهم عناصر العلاج

◆ عرف الماء واستخدامه منذ عرف الإنسان الحياة لأول مرة .. والاستحمام والاتصال من طقوس الدين لدى كثير من الشعوب الشرقية - وقد كان قديماً الألمان يقوون أجسادهم بالحمامات الباردة ..

والعلاج بالماء معروف منذ القدم ، ولكنه اتخذ شكلاً علمياً منظماً منذ أواخر القرن السابع عشر على أيدي بعض الأطباء الألمان ، وغير الأطباء . ومن أشهر هؤلاء ، فيسنت بريستتر - الذي عاش بين سنتي ١٧٩٩ و ١٨٥١ - إذ كان في صغره واعياً في جبال بوهيميا ، فلاحظ أن غزالاً أصابه طلق نارى، واعتاد



أن يرد جدولا يفصل فيه جرحه كل يوم .. وتبين أن العرج الذي غلب على مشية الساق كان يقل يوما بعد يوم ، حتى تلاشى تماما .. كذلك كان يشاهد الفلاحين يلقون الماشية المحبوسة في قماش مبلل . وخرج أصعبه يوما ، فاخذ يعالجه بنفسه مرارا بالماء البارد .. ومن ثم أقبل يعالج الناس بالماء البارد ، وظل عشرين عاما يمارس هذا العلاج ويعمل على تحسينه حتى بلغ الذروة .. وكانت طريقة « بريسنيتز » تلتخص في الفسيل والضمادات المتصلة « كمادات » والحمامات بالماء الباردة والبقاء فيها حتى تتدفأ . وكان الفسيل - جزئيا أو كليا - يتم بالاستفنج أو باليد . أما الضمادات المتصلة فهي على نوعين : مطلقة ، ومهيجة .. وفي الأولى تبدل الضمادة بأخرى بمجرد أن يسرى إليها الدفق ، عدة مرات .. أما في الثانية ، فتترك الضمادة الباردة إلى أن تتدفأ وتجف ، ولو استغرق ذلك أياما .. وهناك « كمادات » للبطن ، وأخرى للأقدام - هي عبارة عن جوارب مبللة - وغيرها للرأس ، والمجبيين ، والرقبة ، والسواعد ، واليد .. وكان الأخصائي المذكور يستعمل للكمادات الكبيرة أقمصة أو جلابيب مبللة ، أو ملايات غطست في الماء ثم عصرت عصرا شديدا ، كفي تلف حول الجسد بإحكام .. فضلا عن نوع خاص من الكمادات تسمى « كمادات المشى » وهي عبارة عن صدرى وسروال مبللين ، يرتديهما المريض فوق اللحم ، ثم يرتدى فوقهما ثيابه ..

أما الحمامات فتتوزع : جزئي وكلي . وكلاهما بالماء البارد .. والحمامات الجزئية أما للصف الجسم ، وأما للعضو الواحد ، فهناك حمامات لليدين ، وأخرى للقدمين ، وثالثة للعينين .. وكان « بريسنيتز » يبنى علاجه على نظرية العضارات الجسدية ، فكان يرمى إلى طرد العضارات الضارة بالعنف ، وذلك باصطناع حالة حمى ، يندفئة الجسم حتى يتفصد منه العرق ، ثم يعقب ذلك حمام بارد جزئي أو كلي ، فرياضة عنيفة كالسير مسافة طويلة ، أو تسلق الجبال .. ثم حمام بالهواء ، يتلووه حمام شديد البرودة .. فتدليك مستمر للجسم ، تبرد الضمادات المستعملة فيه تدريجيا ، حتى يرتش الجسم .. وفي حالات الحمى الحادة كان « بريسنيتز » يستخدم الحمام النصفى لامتصاص الحرارة من الجسم ..

للعلاج بالماء أساليب متنوعة ..

◆ ومن الحمامات العلاجية ما كان يجمع بين الهواء والماء ، فيستلقي المريض أو يجلس عاريا إلى جانب نافذة مفتوحة ، وقد أُلِف في قماش مبلل، بذلك من فوقه باستمرار . بينما يصب الماء البارد على رأس المريض وأجزاء جسمه ، كلما بدد يتدفأ ..

وكان « برينسينز » يعالج جميع الامراض والحميات والايونة المعديّة بالماء .. وكان يقول : « ان مهمتنا هي ان نعالج المريض لا الداء .. » .
 حيويته ، وادابته ، ونشاط أعضائه ، وتكوين دمه .. ولما كانت هذه العوامل تختلف من مريض الى آخر - ولو كان المرض واحدا - لذلك كان لابد ان تتباين اساليب العلاج ..

وفي بافاريا ، كان لئمة طبيب آخر ابتدع للعلاج بالماء اساليب اخرى ..
 ذلك هو « سباستيان نيب » ، الذي ولد في سنة ١٨٢٦ وبدأ حياته عاملا في مزرعة ، ثم ساق له القدر قسا علمه ، فاقبل على دراسة اللاهوت ، حتى اوهن التحصيل جسده واصيب بنزيف رئوي ، وانتهى الامر بالاطباء الى القنوط من شفائه ، وفي تلك الاثناء وقع في يده كتاب عن العلاج بالماء ، فحرب ما جاء فيه ، وتعود ان ينطلق جازيا في ظلام الليل بضعة ايام الى نهر الدانوب ، فيقفز الى مياهه الثلجية في الشتاء ، ثم يخرج فيرتدى ثيابه بسرعة ، ويعود الى البيت في جرى قصير - او ما يسميه رجال الرياضة « خطوة سريعة » - واستمر على ذلك بضعة شهور احس خلالها بتحسن مطرد في كل يوم ، حتى شفى تماما !

وشجعه هذا على التفتي في دراسة التأثير العلاجي للماء على الجسد ، فشفي زميلا له بهذه الطريقة .. وما ان أصبح قسا في سنة ١٨٨٠ حتى كان سيخه قد ذاع ، واستطاع ان ينشئ مصحة للعلاج بالماء ظلت تتسع وتوسر ، وبقيت بعده الى الآن وتسلمة عليه كثير من الاطباء

وكان الاغتسال بالماء البارد ، سواء في الحمام او تحت « الدش » ، اول واعم شيء في اسلوبه العلاجي - وكلما ازدادت برودة الماء ، وجب ان يقصر امد استعماله - وكانت صنابير أو أنابيب الماء تتباين ، لتلائم مختلف الامراض ومختلف درجات القدرة على احتمال البرودة .. كما كان هناك نوع من « الدش » المركبة ، وآخر للخاصة ، وغيره للجزء العلوي من الجسم ، او للوجه ... الخ

ولا تزال طريقة « نيب » تستخدم الى الان . وان ادخلت عليها تحسينات وتجديدات لا حصر لها ، منها « الدش » البارد والساخن بالتعاقب ... ولا يزال في الماء كثير من القوى العلاجية لم تنضج حتى اليوم .

الطريقة الصحيحة للعلاج بالماء.

اولا : يجب ان يكون المريض دائما عند البعد ، ويجب ان يضعن له الدفء بعد كل مرة .. واسهل وسيلة لذلك هي ان يبدأ العلاج عند مفارقه الفراش ، ثم يرتد الى الفراش بمجرد فراغه منه مباشرة .. ولكن

يستحسن البدء ببعض التمرينات الرياضية التي تفرز العرق ، وكذلك الأمر عند الانتهاء ..

ثانيا : يجب أن يبدأ العلاج بمجرد خلع الثياب ، فإن أى تسكؤ يضر بالجسم نظرا لتباعد الدفء .. كذلك يجب عدم تحميل الجسم بعد العلاج ، بل يلجأ المريض الى فراشه فوراً ، أو يرتدى ملابس من الحلى ، ثم يمارس تمارينه الرياضية وذلك لحمل الجسم على أن يتخلص من الماء الذى تبقى عليه بتبخيره بالحرارة البدنية التي لا تتولد الا بانتظام الدورة الدموية واسرارها .. فإذا لم يشعر المريض بالدفء ، أو أحس ببرودة أو ارتفاع بعد نصف ساعة من انتهاء العلاج ، يجب أن يعدل منه الى طريقة أخرى يحددها له الطبيب .

ثالثا : يجب تبين رد فعل الجسم لتأثير الماء عليه .. ويكون رد الفعل طيبا اذا احمر الجلد بسرعة وشدة ..

رابعا : تمارس طريقة « نيب » للعلاج في غرفة حراتها معتدلة .

الاغتسال علاج للحمى

* أقصى نقطة يد - مطوية الى أربعة - فى الماء البارد ، ثم امصرها حتى لا تعود تتساقط منها أية نقط .. ومن الممكن فى حالات معينة ان يستبدل الماء البارد بماء فاتر ، أو حار ، أو ساخن .. والماء يكون باردا فيما بين درجتى ٥ و ١٢ مئوية ، وفاترا بين ١٢ و ٢٢ ، وحارا بين ٢٢ و ٣٦ ، وساخنا فوق هذه الدرجة .. هل ان لاعتبار المريض واحساسه أثرا كبيرا فى هذا الصدد ، فإلاء الذى يعتبره مريض باردا ، قد يبدو لآخر فاترا ، ولثالث شديد البرودة .. الخ

وتختلف اجراءات الاغتسال تبعا لما اذا كان المريض فى الفراش أو خارجه . على أنه يستحسن ان يكون الاغتسال فى الفراش حتى لا يفقد الجسم دافئه ، فنفس كل ساق على حدة وترد الى الفراش الدافئ مباشرة .. ثم تفصل البطن والصدر ، وينام المريض على وجهه ليُفضل الظهر .. وفى هذه الحالة أيضا ، يبدأ بالجزء الأيمن ، ويعقبه باليسر .. وبعد ذلك يغطى المريض فيما عدا ذراعيه ليغسلا ، الأيمن أولا ثم اليسر .. ولا ينبغي أن تستغرق العملية كلها أكثر من دقيقتين ..

وهذه العملية جذيرة بأن تعود بفائدة عظيمة فى حالات الامراض المعدية الحادة ، ويمكن تكرارها من عشر الى عشرين مرة فى الأربع والعشرين ساعة ، تبعا لارتفاع درجة حرارة المريض ، على أنه يتفقد عرقا فى العادة بعد مابين ثلاث وست مرات ، مما يطفئ حرارته ... الا أنه لا ينبغي الاسراف فى مقاومة الحرارة ، فهي عامل هام فى الشفاء ..

« الضمادات » الكمادات »

♦ تتألف كل ضمادة من ثلاث طبقات : الطبقة العليا من قماش من صوف ، عليها طبقة من القطن ، طبقة ثالثة - هي الضمادة الحقيقية - من قطن أيضا .. وهي التي تبلل بينما تبقى الآخرين جافتين ... وتوضع الضمادة حول الجزء الذي يجري علاجه من الجسد ، ويجب أن تكون كل طبقة معرض من التي تحتها بحوال نصف سنتيمتر من الجانبين .. كل أنه في حالة الرغبة في التخلص من الحرارة يمكن الاستغناء عن الطبقتين العلويتين ، وأن لا تنصر الضمادة عمرا تاما .. والضمادة القصيرة تمتد من الإبط حتى منتصف الردف ، ويجب أن يكون جسم المريض دافئا قبل وضعها ، وأن لا ترفع من مكانها ، وأن تحتفظ حرارة الجسم بزيادة الأنطية .. وأن تكون الضمادة مستوية لا تتخللها أية انثناءات أو تجعدات ..

وهناك ضمادة العجز ، وتوضع من أسفل الضلع السفلي إلى منتصف الردف .. وضمادة الصدر ، من الإبط إلى مستوى الضلع السفلي .. ولا يعني القارئ هنا أن نطفي في الحديث عن الضمادات « الكمادات » وكيفية إعدادها واستعمالها ، لأنه لا ينبغي استعمالها - في أية حال - بدون مشورة أخصائي في العلاج الطبيعي ، يحدد حال المريض ويحدد مدى استعمالها ، ونوع الضمادة اللازمة لاجتذاب العرق من جسمه وتخفيف حرارته ..

والواقع أن الضمادات والفيل من أكثر أساليب العلاج نلغا في جميع حالات المرض .. ويؤثر عن البروفيسور « شونيتجر » الطبيب الخاص لبيمارك أنه كان يملأ : « أن قطعة من القماش البلبل في يد طبيب خلال ، لفصل من مخزن للأدوية بأكمله ! »

هل أنا تكفي باستعراض سريع لتأثير الضمادات المدة للعرق أو « تبرير .. ففي حالة ارتفاع حرارة الجسم ، تجذب الضمادة المبللة الدم إلى الجزء الذي تغطيه .. وإذا كان التبرير مطلوبا ، فإن الضمادة تترك حوال الساعة أو الساعة والنصف حتى تجف تماما .. والضمادة القصيرة من لفصل أنواع الضمادات لاستمرار العرق ، ولتسهيل العملية يحسن الله ترضي بعض المشروبات الدافئة كالينسون أو اليليو أو ما إليها .. ويجرد نزع الضمادة ، يجب غسل جسم المريض بسرعة بالطريقة السائفة فريحا « أو مسحا - مع شيء من التدليك - حتى يجف .. وكلما كانت حرارة الجسم عالية ، يجب أن تزداد برودة الضمادة ...

الحمامات بالماء البارد والماء الساخن

♦ **الحمامات** قد تكون شاملة ، أو تكون جزئية .. باردة ، أو دافئة ، أو ساخنة .. ويستغرق الحمام السكامل بالماء الدافئ خمس عشرة دقيقة في المتوسط ، وعادة يضاف إلى الماء بعض الأعشاب ، أو ملح الطعام .. ويمكن تنويع حرارة الماء خلال الحمام تبعاً لأثر الطبيب . وهذا النوع من الحمامات ذو أثر مريح للجسم ومهدئ للأعصاب ، ولكن كثرة التكرار تقلصه هذا الأثر ، ولذا لا يلجأ إليه - علاجياً - إلا عند الضرورة ..

أما الحمامات الباردة الشاملة ، فلا يجب أن تزيد مدتها عما بين خمس وعشر دقائق .. وتكرارها يقوى طاقة الجسم على الاحتمال والمقاومة ..

وفي حالة الحمام الساخن يجب أن تكون حرارة الماء حوالي ٣٦ أو ٣٧ درجة مئوية ، ثم ترفع تدريجياً بقدر احتمال المريض .. أثناء الاستحمام .. ولزيادة تأثير هذا النوع من الحمامات يجب أن يحك الجسم - في الماء - بفرشاة جافة الشعر ، حكا جيداً .. وفي حالة الشعور بأى انفعال ، يوقف الحك ، وتربط الرأس والصدر بالماء البارد .. ويستحسن وضع « كمادة » باردة على الجبين ، ويجرى تغييرها عدة مرات ..

ويجب أن يستغرق الحمام ما بين ثلث الساعة والساعة السكاملة ، ويستطيع الإنسان أن يتعوده تدريجياً .. وهو طريقة أكيدة لاستئصال العرق ، ويحسن أن يأوى المريض بعده مباشرة إلى فراش توفر فيه الدفء من قبل ، فيلتف في الأغطية التلاففاً محكمًا ، بدون أن يجفف الماء عن جسمه .. فإذا أريد إيقاف العرق - ففي وسع المريض أن يأخذ « دشاً » بارداً ، أو يمسح جسمه بقطعة باردة - كما أوضحنا في طريقة الالتئال - أو يقتصر على تخفيف جسمه ...

والحمامات الباردة ، كالدافئة والحارة ، يمكن أن تكون شاملة للجسم كله ، أو جزئية .. وتلائنها عظمة القيمة في محاربة المرض ، وفي الكفاح للاحتفاظ بالصحة . بل هي من اللوازم الصحية اليومية .. والحمامات الدافئة والساخنة توصف عادة للمسنين أو ضعاف البنية ، على أنه لا يجب أن ننسى أن التعود التدريجي على الماء البارد لا يضر .. أما الحمامات الساخنة المتزايدة الحرارة - تبدأ عند درجة ٣٧ مئوية ثم ترفع تدريجياً بقدر احتمال الجسم - فتوصف في حالة ضيق الأوعية الدموية «ارتفاع الضغط» أو تيبس الأطراف .. على أنها لا يجب أن تمارس دون مشورة طبيب ..

حمامات البخار

♦ يستخدم في العلاج البخار ، الماء المغلي الذي تضاف اليه بعض الأعشاب في الغالب .. ليسب ما بين جافونين وثلاثة جالونات ونصف الجالون في حوض خشبي تملؤه شبكة من الخشب وفولهما غطاء خشبي أيضا ...

ومن أهم حمامات البخار حمام الرأس .. فيجرد الجزء العلوى من الجسم من الثياب ، وتوضع على الرأس ملاءة من التيل ، فوقها بطانية صوفية مسدلة حتى تصل الى الأرض .. ويوضع الحوض الخشبي على مقعد امام المريض ، تحت أطراف الملاءة والبطانية ، ثم يرفع الغطاء عنه ، ويميل المريض فوقه ، ولا يجب ان يترك البخار يتسرب من تحت الملاءة والبطانية . .. وعلى المريض ان يتنفس بعمق ورأسه منحنية فوق البخار ما بين عشر أو عشرين دقيقة .. ويعقب ذلك مسح جسمه بقطعة مبللة باردة - بالطريقة التي شرحناها في الاقتسال - أو يأخذ حماما باردا للتصف العلوى مدة عشر ثوان .. ويوصف حمام البخار للرأس في حالات التهاب الجيوب الأنفية أو في منطقتي الجبين والفك ، أو نزلات البرد في المسالك الهوائية .. وهناك حمام البخار للبطن ، وفيه يوضع الماء المغلى في وعاء مثل « القروانة » ، ويخلع المريض ثيابه السفلية ، ثم يجلس في بطنه واحتراس ، ويحاط الوعاء بملاءة من التيل فوقها بطانية لعدم تسرب البخار ، ويستغرق الحمام ما بين عشر وعشرين دقيقة ، يتبعه الغسل بالقطعة الباردة ، أو حمام نصلى .. وتوصف هذه الطريقة في حالة وجود اختلال في البطن كتصلب عروقها ، وكالاسهال .

ليس العلم الها بل هو صنعة البشر

♦ ومن المهازيل الباعثة على الأسى ، ان دعاة العلاج الطبيعي كانوا يوضع حملات اضطهادية من أساندة الطب والعلماء ، لان هؤلاء في الواقع أسرى الاساليب التي لقنوها ، وأسرى ما يسونه العلم . يؤمنون به كما لو كان الها يجب اطاعة أوامره ... وفي هذا العنت والتزمت المسلمى يكمن الشر ، فالعلم ليس الها . بل هو من صنع البشر .. في حين أن البشر من صنع الله . فهم أبناء الطبيعة .. وكما أن خلق الله فوق خلق البشر ، فكذلك يجب أن تبقى الطبيعة خير دخر وكنز للبشر .. وإن نظل أستاذنا الأكبر .

أنا لجل العلم ، ولما عينا يقتضى أن نوفق وننسق بين العلم والطبيعة . ولقد وفرت الطبيعة الماء في متناول أفقر أبناء البشر ، وهو وسيلة من

وسائل الصحة والعلاج .. وهناك مائة طريقة لاستعماله . ولكننا يجب أن نستعمله عن فهم .. فالرؤى يجب قبل كل شيء أن يستشيروا طبيباً ، يكون ممن آمنوا بفوائد الماء العلاجية وتوفروا على دراستها ، فان الاستعمال الخاطئ قد يؤدي الى ضرر ...

العلاج الطبيعي يجب أن يبعد عن الارتجال

♦ وان الخبرة والتجربة اللتين مرنا خلال المائتي العام الاخيرة ، كفيلتان بأن تؤكدنا أن من الممكن ممارسة العلاج بنجاح سواء بالهواء ، أو الشمس ، أو بالتدريبات الرياضية والتسليك أو بالماء .. بيد أن هذا جدير بأن ينبهنا الى أهمية عدم الانصراف على إحدى هذه العوامل دون بقيتها .. كما يجب أن يبصرنا الى أهمية أساليب العلاج الأخرى ، كالجراحة وتنظيم الغذاء « الرجيم » ..

لقد كان « نيب » من أهم أقطاب العلاج بالماء ، ومع ذلك فقد كان لا يفتأ ينبه مرضاه الى أن يجمعوا بين هذا العلاج وبين الانصراف في طعامهم على الخضار ، والاقبال على الرياضة ، وتقوية أجسامهم بتعريضها للهواء الطلق . وكان يقول أنه لو لم يجد الماء لاستخدم الهواء كعنصر علاجي . ذلك أن الطبيب الطبيعي لا يجب أن يفضل عنصراً على آخر في العلاج .. فالشمس لا تقل أهمية عن الماء للمريض أو السليم على السواء ، والطبيب هو الذي يقرر أيهما يصلح للحالة التي أمامه .. ولكن نلهم هذا ، الذكر القاريء بما سبق أن قلت في البداية من أن المرض لا يجب أن يعتبر مجرد ظاهرة موضعية ، قاصرة على العضو أو الجهاز المصاب ولا أثر لها على بقية الجسم .. بل إن كل عرض من أعراض المرض إنما ينم عن مرض الجسم كله ، لذلك لا ينبغي أن تعالج الظاهرة الموضعية ، وإنما تعالج المريض كوحدة كاملة ، وذلك أن تنشيط القوى الدفاعية في كيانه ونشاط كفاءتها الى أقصى درجة .. وهذا يتسنى بتنظيم وتحسين الدورة الدموية ، وتنشيط تجدد الخلايا ، وهما أمران مرتبطان ، فكلما أسرعت دورة الدم في أعضاء الجسم كلما أسرع تخلص الخلايا كلها من الأجزاء التالفة فيها وإنشاء بديلة عنها .. وبهذا تزداد كفاءة جميع أعضاء الجسم ، ولا سيما الجلد والرئتين والقلب والكبد والكلى ، فيستعيد الجسم صحته . واستعادة الصحة - أو الشفاء - لا تتسنى إذن إلا اذا نشطنا قوى الدفاع في الجسم وأطلقناها في المعركة .. ولما كانت هذه القوى تستهلك في سياق الحياة ولئداً ، لذلك كان خليفنا بنا - أن نشتنا أن نعيش طويلاً - أن لا نستخدم قوة الحياة فيما لا عند الضرورة القصوى ، وأن نتجنب كل ما لا لزوم له في صون الصحة والكفاءة . فمن الخطأ الاسراف والتقتير ، والمطرف والاعجاب

على السواء . . فالمرء السليم - أو المريض الذي استكمل الشفاء - لا يجب أن ينهض من أساليب التقوية إلا بالقدر الذي يكفي لتفادي أي مرض في المستقبل . وكل فائض من ذلك قد يضر . .

ومن ثم كان لزاما على المريض - بالنسأل - أن لا ينال من العلاج إلا ما هو ضروري لشفاؤه فحسب ، وأن ينسق موارده في ذلك . فمن الخطأ أن ينال المريض - الذي يعالج بالماء - أن من الممكن التعجيل بالشفاء إذا هو نال من العلاج فوق استعداده واحتماله . أو إذا أطال أمد فترات التعرض للماء في أي مناهج العلاج . فهو أن يجنى من هذا غير الضرر . . والامر كذلك بالنسبة للاستمرار في العلاج بعد تحقيق الشفاء . . بيد أنه يجوز له - فيما بعد - أن يأخذ بعض « العلاج الوقائي » من حين إلى آخر ، وبطرق خفيفة يصفها الطبيب ويحدد موعيدها . . وهذا الذي قلناه عن الماء يطبق على العناصر الأخرى كالشمس والهواء والرياضة البدنية فإن من الطبيب والمريض - على السواء - ينحصر في ممارسة الاعتدال في كل الحالات ، والتزام الوسط في كل الأمور

والذي يهمني أن أنبه إليه بوجه خاص، هي أن مهمة اختيار العلاج الطبيعي، وطريقته ، من حق الطبيب وحده . . فهو الذي يستطيع أن يقدّر أي عناصر الطبيعة يصلح للعلاج ، والقدر اللازم منه بحيث إذا تجاوزته العلاج انقلب إلى ضرر . .

ولقد دلت التجارب على أن العلاج بالماء يجب أن لا يؤخذ كشيء ثانوي في حالات المرض العادية ، بل يجب على المريض أن يعتزل العمل الذي يعاونه خلال فترة العلاج ، سيما إذا كان هذا العمل ذهنيا ، لأن الأعمال الذهنية تستلزم القدر الأكبر من طاقة الإنسان ، وبالتالي تستلزم حرارته الحيوية . . وفي هذه الحالة يكون العلاج بالماء جهد يضاف إلى جهد المريض الذي يبذله في عمله ، فخلق به أن يكلف عن العمل لكي لا يرهق جسده ويستنزف طاقته

الماء كعلاج للانفلونزا و نزلات البرد

♦ وامر آخر من الأمور الهامة التي تبينتها خلال عشرات السنين ، يتمثل في أن من الواجب أن يفهم الطبيب والمريض على السواء العلاج الطبيعي ، أن أريد له أن يجدي ، وليس المائل الحاسم في العلاج هو المرض نفسه ، وإنما هو تكوين جسم المريض وحالته عند تشخيص العلاج . . أو بالأحرى ، ود فعل الجسم بالنسبة لأسلوب معين من العلاج . .

والقد ازدادت اقتناعا ، عاما بعد عام ، خلال السنتين الثلاثين التي قضيتها كطبيب ، بأن الماء يستحق المكانة الأولى بين وسائل العلاج الطبيعي ، فهو متوفر في كل وقت وفي كل فصل ، وهو صالح للكبار والصغار على السواء ، وهو ناجع في معظم الحالات .. ولناخذ الانفلونزا ، أو النزلة الشعبية مثلا ، فأنني أعالج المريض بأي منهما بالانغمسال الكامل - بطريقة الفوطة المبللة - من ثلاث إلى عشرين مرة خلال الأربع والعشرين ساعة ، تبعا لدرجة حرارته .. وغالبا ما يبدأ العرق يتفصد من جسد المريض بعد المرة الثالثة فتتهدأ حرارته قليلا ، فإذا لم يشف بالسرعة التي قدوتها له ، فأنني أخيف إلى الاغتمسال « ضمادة قصيرة » كل يوم - بالطريقة التي أوردتها آنفا - لزيادة العرق .. وأمر له بكونين أو ثلاث من البلبو أثناء وضع الضمادة للمساعدة على إفراز العرق .. فإذا رفعت الضمادة غسل جسم المريض بالفوطة المبتلة بسرعة .. فيكون نغلاؤه مؤكدا في خلال يومين أو ثلاثة على الأكثر ..

وإذا كان الإنسان يشعر بتوعك - دون أن ترتفع درجة حرارته - أو كان يشعر ببرد ودعشة ، فيحبس به أن يأخذ حماما ساخنا - ترفع درجة الماء فيه رويدا - لمدة تتراوح بين عشرين وأربعين دقيقة ، وإن يحك جسده بفرجون خشن وهو في الماء حتى يتفصد منه العرق ثم يقتسل بطريقة الفوطة الباردة بسرعة ، ويندس في فراشه بعد أن يكون

قد دلف بزعاجات الماء الساخن .

ويمكن تكرار هذا يوميا - بل يمكن تكراره مرتين في اليوم .. ومن الطبيعي أن الإنسان يجب أن يلزم الاعتدال في الأمور الأخرى ، فيقتصر في الغذاء على الفواكه ، وعلى عصائر الخضار والفواكه .

ومن الناس من يقتصر على فسييل وجهه ويديه بالماء الدافئ .. وهذا خطأ ، إذ لابد من استعمال الماء البارد يوميا ، ولا يكتفى فسييل الوجه واليدين ، بل يجب أن يمتد ذلك إلى الجزء العلوي من الجسم والذراعين على الأقل .. والأفضل أن يشمل الجسم كله ، على أن يلى ذلك مباشرة بعض التدريبات



الرياضية ، أو المشي ، أو ممارسة بعض الاعمال التي تتطلب حركة بدنية لفترة تتراوح بين خمس وعشر دقائق . ولست أحبذ استعمال الصابون - الا اذا كان الجسم متسخا - لان للصابون أثرا مضرًا على البشرة اذا أسرف في استعماله .

وليس من الضروري غسل الجسم كله يوميا ، بل تكفى مرتان أو ثلاث في الاسبوع . أما الايام التي لا يكون فيها حمام عالمي ، فيحسن أخذ حمام هوائي مع شيء من التمرينات الرياضية ، ومع التدليك الخفيف لفترة تتراوح بين خمس دقائق وربع الساعة .

إن الطبيعة لا تتفلسنا كثيرا في مقابل الصحة والقوة . ولكن القليل الذي تتطلبه يجب أن يؤدي بدقة وعناية .

وعلاج كل مرض يستلزم علاجا اضافيا للنفس ، فالتنفس لا تنفصل عن الجسد ، وقد تقدم العلاج النفسي - لا سيما لدى الاعصاب المكبوتة - حتى أصبح له فرع خاص في الطب .

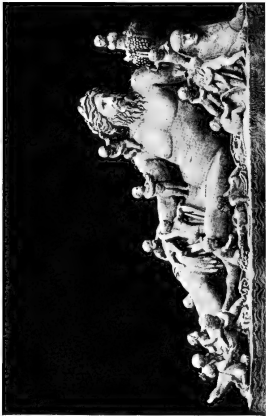
اهمية العلاج الطبيعي

• تعرف أساليب العلاج الطبيعي التي أوردناها باسم « العلاج الحيوي » ، لأنها تمشي وما كشف عنه علم الاحياء الحديث ، من أن الطبيعة الحية «الكائنات العضوية» تخضع لقوانين تختلف عن تلك التي تسود عالم غير الاحياء ، غير العضويات « في الطبيعة والكيمياء ، ومن ثم فإن الطب الحيوي لا يمتزج - في علاج الامراض - بغير قوانين الكائنات الحية ، فينبذ ما يقوم خارجها من أساليب للعلاج ، كقصص الدم ، أو حقن المريض بدمه ، أو استخدام «اللزقة» أو «كأس الهواء» ، أو العلاج بالكى بالبار ، وما إلى ذلك ، فهذه كلها أساليب تعمل عملا موارضا للطبيعة . وهي قد تكون عاملا مساعدا في العلاج، ولكنها لا ينبغي أن ننسى انها وسائل مصطنعة لتهديج أو إثارة أو تنشيط العضو المريض

والعلاج الطبيعي الصحيح هو الذي يهدف إلى اصلاح الانسجاص الذين يعدوا بأنفسهم عن الطبيعة ، ووردهم إلى الانسجام معها . ومن ثم فإن استخدام الادوية والعقاقير لا يعدو أن يكون عاملا مساعدا فحسب ، لأنها في حد ذاتها لا تبرى ، وانما الذي يحقق الشفاء هو التركيب الجسمي للمريض . وإذا لاح أن الامراض تنشأ بالادوية ، فهذا الشفاء الزائف انما يرجع إلى أن الادوية أجسام غريبة عن الجسم ، ومن ثم فانه يعمل على طردها ، فتتسقط قواء بدرجة تمكنها من أن تقلب الماء . بيد أن الاستعمال المنتظم للادوية - فضلا عن الافراط فيها - يضعف قوى المقاومة في الجسم حتى تنهار .



الصرح الفني والتشال الرائع الذي أقيم في إحدى حدائق (لينين) عاصمة
النمسا ، تطلعا للذكرى الموسيقى الخالد « يوهان سترافوس » صاحب الغان
« الفالس » الشهيرة .



(متحف اللوفر، باريس)

تمثال ديمترى يمثل نهر « النيل » الخالد.

ولا ينبغي أن تدرج الجراحة مع غيرها من أساليب العلاج ، فهي وسيلة للإنقاذ في وقت الحاجة .. وقت ألقى بالإنسان فيه لحيائه إلى موقف لا مخرج منه إلا بعد المضغ .. أما الحوادث فحالات استثنائية لا تعتبر مقياسا للحكم على الجراحات ..

وفي معالجة جميع الأمراض ، لابد من إعادة الجهاز البدني إلى وظائفه الطبيعية . وإن تنظم حياة المريض بحيث تتفق وما تتطلبه الطبيعة والادراك السليم ، ومن ثم فيجب صرفه عن « العادات السيئة » .. ونعني العادات التي تساعد على نمو المرض وظهوره .. فالعلاج الطبيعي ، والحال هذه ، يتضمن التدريب على عادات الحياة الصحية السليمة .. وواجب الطبيب يقتضيه أن يقنع المريض بالتخل عن عاداته القديمة ، ولن يتسنى له ذلك ما لم يوطد روابط التفاهم والتعاون بينه وبين مريضه ..

العلاج بالادوية نوع من « الترفيع »

◆ لقد بلغ الإنسان من الترف والضعف في العصر الحديث ما يجعله يؤثر أن يتناول الادوية ، بل وإن تجرى له عملية جراحية ، استمجالا للشفاء ، بدلا من أن يتخل عن العادات التي تجلب له المرض ، أو أن يقوم بمجهود ذلك يسترد صحته .. ولكن الضرر الذي لحقته المدنية الحديثة - ولا تزال مستمرة على حاله بنا - لا يمكن أن يزول بمجرد العلاجات الوضعية بالوسائل المصنعة من وقت إلى آخر ، فإن هذا اللون من العلاج - أي استعمال الادوية أو الجراحة - لا يعدو أن يكون من قبيل الترقق و « الترفيع » .. أما العلاج الطبيعي فيتطلب علاجاً شاملاً ، وتقبيرا كاملا لتكوين المرض .. وهذا لا يتأني إلا بالاقتراب من الطبيعة قدر الامكان ، وتقوية البنيان الجسدي بالوسائل الطبيعية .. وهذا القول يتطلب كذلك على السليم ، فإن الوفاة غير وسيلة لمكافحة المرض .. ومن دلائل القناء البشري الولوج بالادوية الحديثة ، إذ يكفي أن يعلن أن الدواء « غير ضار » ، وإن يبدأ في لفافات أنيقة ، وإن يباع بشئ مرتفع ، يكفي هذا لكي يلتصق اقبالا بدر الفراء على صانعيه ! .. أما الدواء البسيط ، الرخيص ، فيقابل بالاشمئزاز .. ولو أنك قلت للناس إن الهواء من غير عناصر العلاج ، لقبوا شفاهم استهجانا ، وقالوا : إذا لم يكن من الهواء بد ، فليكن هواء مضغوطا في أنابيب أنيقة ! .. والماء .. أنهم لن يقبلوا عليه إلا إذا قيل لهم أنه مستخرج من نبع خيالي ، والا إذا وضع في زجاجات جميلة ، وبيع بشئ مرتفع !

ولا يلتفت الإنسان لأساليب العلاج العادية البسيطة إلا إذا شغل المرض ، وأبطل جسمه ، وهوى بقواه إلى الحضيض ، وأخفقت معه الادوية الصناعية

الفالية ٠٠ وهو اذ يتحول ، بروج يتمجل الشتاء ، ويطلب البر ، في أسابيع قلائل من داء برج به سنين ، حتى استنفحل ٠٠ فإذا قلنا له ان هذا مستحيل ، وان لابد للعلاج من شهور ، سقط على العلاج الطبيعي وزمناه بكل نليصة ٠٠

قضية العلاج بين الطب الطبيعي والطب العلمي

◆ عل أن الطب لم يعد يستطيع اليوم ان ينجاهل ما حققه العلاج بالاء ، وبالشمس والهواء من نجاح ، فاضطر أن يفسح لهذا اللون من العلاج مكانا في الجامعات ٠٠ بيد ان المعاهد التي تمارس العلاج الطبيعي لا تزال ضئيلة العدد ، ولم يمن الطب بعد بجسم المريض كله كوحدة ، فهو يقتصر على المنطقة التي يظهر فيها تأثير المرض ، واذا كان بعض الاطباء يمارسون العلاج الطبيعي في المستشفيات الحديثة ، فهم يقرنونه دائما بالادوية الكيماوية ، ويعتمدون عليها كعنصر رئيس ٠٠

ويزعم البعض ان العلاج الطبيعي لا يعنى بالفحص وتشخيص الداء ، وهذا خطأ ٠٠ فنحن نعالج الجسم كوحدة حقا ، ولكننا نعتبر الفحص والتشخيص ضروريين ، ونكروهما لتثبيت من مدى تطور شكوى المريض ٠٠ ونحن لا نكتفى في ذلك بالاعتماد على المساعدات والاستنتاجات التي تبدو لنا لاول وهلة ، بل نلجأ الى كل وسيلة في طوقنا لتحري الدقة ٠٠

وفحص الداء والجسم كله معا ، يتيح تشخيصا كاملا واثيا ، يساعد على وصف العلاج الصحيح ٠٠ لانه مهما كان المرض ، فان الانسان كله - كوحدة - يكون مريضا ، وغير عامل حاسم لتقرير العلاج هو الدراية بالجسم كله ، لا سيما وان التركيب البدني لكل انسان يختلف عما لسواه ، ومن ثم فما يلائم غيره من علاج قد لا يلائمه ٠٠

ان الطب الحديث يقوم قبل كل شيء على ثمار مجهودات علمي الكيمياء والطبيعة ، فهو يطبق نتائج بحوثهما على الجسم الانساني ، وينسب ان الوقائع التي تبين عليها هذه البحوث لا تنطبق الا على الكائنات غير العضوية ٠٠ والانسان من الكائنات العضوية ٠٠ ولاصرب مثلا يقرب هذه الحقيقة الى عقولنا: فطبقا لقانون الجاذبية الارضية - في «علم الطبيعة» - كان من الواجب ان يجذب دم الانسان الى اطرافه السفلى اذا ما وقف ، ولكن هذا لا يحدث الا بنسبة تالفة ، لان القلب «الحى» والاورعية الدموية «الحية» تعمل على استمرار الدورة الدموية ، ومد كل عضو بما يكتفيه من الدم ٠٠ ويخضع القلب والاورعية الدموية بدورها لسيطرة الجهاز العصبي ، ومن ثم فهذا الجهاز هو المسيطر الحقيقي ، وقوانينه اقوى من قوانين علم الطبيعة ٠٠ فتوانين الطبيعة

- لا أعلم الطبيعة - هي التي تحكم حياة الإنسان ، وتجعل غيرها من القوانين مجرد فروع ثانوية ..

الحكام المعتلون هم سبب اضطراب العالم

♦ « إن الصحة هي أنى ما على الأرض .. ولكن هذه الحقيقة تنردد على الشقاء دون إدراك لاهل معانيها إذ أن أبناء المدنية الحديثة يقدمون المال والشهرة والنفوذ فوق كل الأشياء ، ويتصورون أن الإنسان النافع العامل هو السليم الصحيح ، في حين أن العلول لا يلبث - على مر الزمن - أن يقضى على نفسه وعلى سواء .. والسليم الصحيح يستيقظ فى صباحه منتعشا ، وفور الراحة ، فينتقل الى عمله ويمارسه فى هدوء وانسباط ورضى ، وهو مسيطر على أمصابه ، لا يتشاجر مع أحد .. ولو كان كل أهل الدنيا أصحاء - أو غاليبتهم على الأقل - لساد السلام وجه البسيطة ، فإن العلولين هم مبعث الاضطراب والتدمر فى العالم ، وسيقتل العالم مهددا بالحروب طالما كان القدر يدفع بالزلة الحكم الى أيدي المعتلين .. ان عالمنا اليوم غليل ، لأن الجنس البشرى مريض . والعلاقة بين المرض وبين الغفظة والجريمة اوثق مما يخطر ببال بشر .. وطالما استمر البشر فى ارتكاب الذنوب ضد الطبيعة ، فإن تقوم لقروء الحياة الصحيحة قائمة ، وستكون الغلبة فى معركة البقاء للشعوب التي تظل صحيحة لاتباعها البساطة والافتراق من الطبيعة فى معيشتها .. ولن يستبعد والعالمة هذه أن تفقد آسيا صاحبة السيادة على العالم الغربى !

تم الكتاب

بنك مصر

أسمى شركاته الكبرى التي وطف بها خصائص البلاد واستغل موارثها فإذا بما الدعاشم التي قام عليها التصنيع القومي في البلاد وكانت السياج المنيع للتحرك الاقتصادي منذ ٣٣ عاما فذل على الكفاية المصرية وتنفوق المحفل المصري في مسمار الحياة العملية

عزى القارى . . .

فى سنة ١٩٣٣ وقع فى يدي كتاب
المرحوم الاستاذ احمد حافظ عوض
صاحب جريدة « كوكب الشرق » الذى
اطلق عليه « رسائل من والد ال والده » ،
وقد ضمنه مجموعة الرسائل التى كتبها
ال ابنه الاكبر - والغلب القن - انه
الدكتور عوض حافظ عوض اخصائى
التحليل المعروف الآن - فاقبلت على
الكتاب التهم صفحاته بنهم ، واثرود من
الخواطر البليغة والنصائح الجميلة التى
وجهها الكاتب الاديب ال ابنه وهو مقبل
على مرحلة شبابه الباكر (وقد اقدم
اليك بعض تلك الرسائل الفية فى اعداد
تالية)

مجموعه الرسائل



ومنذ ذلك التاريخ شغلت يادب
الرسائل ، وهو فن لا اعرف له وجودا
فى الادب المصرى ، مع الاسف الشديد
- اذا استثنينا كتاب الاستاذ حافظ
عوض الذى اشرت اليه - فى حين يزخر
الادب الفرنسى (والانجليزى ..
والامريكى .. الخ) بالكثير من العود
الماثورة فى هذا الباب .. واشهر رائدة
لادب الرسالة فى فرنسا هى مدام
دى سيلفييه ، التى اقدم لك نموذجا من
رسائلها فيما يلى :

رسائل الخالدين



من رسائل
مدام دی سِیقِینیه

المرأة التي خلدها خطاباتها !

◆ تحتل مدام - دي سيلفنيه - مكانة رفيعة بين اولئك الذين خلده التاريخ خطاباتهم كتحف ادبية رائعة .. فضلا عن انها عاشت حياة خالقة بالتمع الذهنية والاجتماعية ، وكانت من اشهر وانشط نساء فرنسا القضايات في كل ميدان من ميادين الحياة .. عل ان شهرتها العظمى كانت وما تزال في ميدان التراسل مع كل من ربطته بها صداقة او علاقة ما .. وكان نشاطها في هذا الباب خارقا ، حتى لقد تجاوز عدد رسائلها الالف ؛ وكلها تسمى كافة الموضوعات التي تشغل الرأي العام وتروق للجميع : من السياسة العليا ، الى الادب ، والاجتماع ، واحاديث الناس .. الخ .. ومن ثم تعتبر رسائلها بمثابة اخوار تكشف جوانب الحياة الاجتماعية في فرنسا خلال الربع الاخير من القرن السابع عشر .. كما انها تضم صفحات من النقد الادبي الرقيق .. ثم هي تنسم فوق كل هذا ، بأسلوب لا قبل بمقاومة سحره ، مثل ما كان لصاحبه من روح مرحة ، وذوق مرهف ، ولباقة بليغة ..

ولبنا ان نمولج من رسائل مدام سيلفنيه الى ابنتها ، وقد تضمنها احد الجلدات العديدة التي ضمت مجموعة رسائلها ، والتي نشرت الطبعة الاولى المعتمدة منها عام ١٧٣٤ ، لم يطبع منها بعد ذلك مئات الطبعات .. وترجمت الى كل اللغات - ما عدا العربية طبعا !

◆ طفلتى العزيزة :

لم تنقض على هنا ثلاث ساعات حتى كنت أمسك بالقلم لاتحدث اليك .. فقد غادرت باريس مع الاسقف ، وهيلين ، وهريير ، ومارفيز ، فرارا من ضوضاء المدينة وصخبها حتى مساء يوم الخميس . اذ أننى أهفو الى هدوء تام أخلد فيه الى تأملاتي .. واني لا عزم أن أصوم - لاسباب عديدة - وأن أمضى كثيرا لأعوض ما فاتنى من رياضة في الفترة الطويلة التي قضيتها

فى غرفتى .. ثم اننى - قبل كل الامور الاخرى - أحب أن
أروض نفسى على حب الله ..

على أن ما سأفعله ، أكثر من كل هذا يا ابنتى العزيزة ، هو
أن أفكر فيك .. وما كفت عن هذا منذ وصلت الى هنا ، ولما
عجزت عن أن أكتب مشاعرى ، لجأت الى الممر الصغير الظليل
الذى تحببته ، كى أكتب اليك وأنا أجلس على الضفة المكسوة
بالاعشاب ، حيث اعتدت فى أكثر الاحيان أن تستلقى ..

ولكن .. أى مكان لم أر فيه طيفك يا عزيزتى ؟
اليس يطاردنى التفكير فيك أينما وليت ؟ .. كل بقعة
تحدثنى عنك : البيت ، والكنيسة ، والحقل ، والحديقة .. انك
طيلة الوقت فى بالى ، وان قلبى ليهفو اليك مرارا وتكرارا ..
اننى لأبحث عينا عن الطفلة العزيزة التى شغفت بحبها ، ولكنها
على بعد ستمائة ميل منى ، ولست أملك أن أدعوها الى جوارى ..
اننى لأدرك أن البكاء ضعف ، ولكن هذا الحنان الذى أكنه لك
طبيعى وصادق ، فلست أملك إزاءه أن أكون قوية !

لست أدري ما سوف يخالجك حين تتسلمين هذا الخطاب
.. ولعلك لن تتأثرى - فى تلك اللحظة - بالمشاعر الجياشة
التي تطفئ على الآن ، ومن ثم فلن تقرئيه بالروح التي كتب بها ،
ولكنى لا أملك إزاء هذا شيئا .. على أن الكتابة تسرى عن
مشاعرى فى اللحظة الراهنة ، وهذا ما أنشده منها ، فما أراك
تتصورين الحال التي دفعنى اليها وجودى فى هذا المكان ..
أناشدك أن لا تأخفى على ضعفى ، بل يجب أن تحترمنى
دموعى ، لأنها تنسكب من قلب مفعم حبا لك ..



✱ **ولا تزال قضية المركيزة** ، برانفیه ، تستأثر
بأحاديث باريس ، فإن المدينة بأسرها مشبوبة الاهتمام بها ،
وقد اعترفت المركيزة بأنها دست السم لابنهما وأخوتها وأحد

أبنائها .. ولقد كان « الشيفالييه دوجا » ممن تناولوا إحدى الفطائر المسمومة المحشوة بالحمام ! وعندما قيل للمركيزة انه ما يزال على قيد الحياة ، لم تزد على أن قالت : « لا بد أن هذا الرجل أوتى جسما قوى البنيان ! »

ويبدو أن المركيزة كانت قد تدلّعت في هوى « سانت كروا » - وهو من ضباط اللواء الذي يقوده زوجها ، وكان يعيش في دارهما ! - فحاولت أن تقضي على زوجها بالسم ، اعتقادا منها بأن « سانت كروا » سيقدم على الزواج منها إذا ما غدت طليقة ، ولكن « سانت كروا » لم يشاظرها رغبتها ، فقدم للمركيز ثريافا انقذ حياة النبيل المسكين !

والآن ، انتهى كل شيء . ولم يعد لبرانففيه وجود .. فقد صدر الحكم ضدها بالامس ، وقرئ عليها ، ثم أجبرت على أن تعترف أمام الملأ في الساحة المواجهة لكاتدرائية « نوتردام » .. وأعدمت بعد اعترافها ، ثم حرق جثتها وذرى رمادها في الهواء !

ولقد هددوها بالتعذيب ، بيد أنها قالت ان لا داعي لذلك ، وانها على استعداد لان تفضى بكل شيء أمام الجمهور بأسره .. ومن ثم فقد روت تاريخ حياتها كله ، فاذا به أقطع مما خطر لخيال أي انسان ، حتى اننى لا أستطيع أن أسمعه دون أن أرتجف !

ولقد اقتادوها في الساعة السادسة صباحا الى الكاتدرائية حافية القدمين ، لا تسترها سوى غلالة مفكوكة الاطراف ، وقد احاط بعنقها جبل .. ثم حملتها نفس العربة « الكارو » التي أحضرتها ، ورايتها مستلقية على القش الذي كسا أرض العربة . والى أحد جانبيها الطبيب ، والى الجانب الآخر الجلاد الذي سينفذ الحكم .. أواه ، لكم بعث في مرأى هذه المرأة هلعاً كبيراً !



وانبأني الذين شهدوا الاعدام
انها صعدت الى القفلة بغطى
ثابتة ، وماتت - كما عاشت -
جريئة ، لم يداخلها خوف ، او
يخالجها اى انفعال !
ولقد احضروا لها قسین
يتلقيان اعترافها ، فتصحها
احدهما بان تفضل بكل
شيء ، واشار عليها الآخر بان
لا تقول شيئاً ! .. فضحكت
قائلة : « سافعل ما يحلو لى
طالما بقيت فى وعى .. »

لقد سرنى ان اسمع رايتك فى هذه الشريرة الفظيعة .. وما
أرى ثمة احتمال فى أن تلج الجنة ، اذ لا بد من أن تعزل روحها
الخبيثة عن بقية الارواح ..



• تساليتنى ما اذا كنت تقية متعبدة ؟ .. اننى - للأسف -
لست كذلك ، وهذا ما يبعث فى نفسى الاسى .. على اننى
منصرف - الى حد ما - عما يسمونها الدنيا .. وان كبر السن
وبعض المرض ليتيحان للمرء وقتاً للتأمل .. على أن ما أمسكه
عن الدنيا يا صغيرتى العزيزة أمنحك اياه .. ومن ثم فلست
أكاد أوغل فى ميدان التجرد .. اذ أنك ولا بد تعلمين أن الطريق
الصحيحة للمتقوى تتمثل فى الزهد - الى درجة ما - لا سيما فيما
نعتز به أكثر من سواء ..

ان من اعظم رغباتى ان اغدو تقية ، وهذه الفكرة تستبد بى
كل يوم .. فانا لا اهب نفسى لله ، ولا اهبها للشيطان ، وهذا

الاحجام المتردد مبعث عذاب دائم لي ، وان كنت اصارحك - فيما بيننا - انه اكثر الاوضاع تمشيا مع الطبيعة ، اذ ان المرء لا يثنى عن الشيطان الا لانه يخاف الله .. كما انه لا ينصرف عن ان يهب نفسه لله الا لان شريعة الله قاسية ، والمرء لا يميل الى ان ينبذ نفسه ويتجاهلها . وما يفعل ذلك الا من فترت همهم ، ولست ادعش قط لوفرة عددهم ، بيد ان الله يكرههم ، ومن ثم يجدر بنا ان لا نعبده على هذا النهج .. ومن هنا تنشأ المشكلة العويصة .

لقد اذهلتنى وفاة « مسيو دي مان » ، فما خطر لي قط ان افكر في الموت بالنسبة له .. ومع ذلك فقد قضى من حصى بسيطة ، دون ان يتسع له الوقت كي يفكر في السماء ، ولا في الارض .. ان القدرة الالهية تكشف عن نفسها أحيانا في زيارات مفاجئة ينبغي ان نعيد منها .. ونستعد لها !

أما ما تقولينه عن الهواجس التي كثيرا ما تساورنا - بطبيعة الحال - بصدد المستقبل ، وعن تحول ميولنا دون وعي منا تحت حكم الضرورة ، فموضوع يستحق ان يكتب فيه كتاب ككتاب « باسكال » .. وليس أبعت على الرضى ، ولا أكثر نفعا ، من الاستغراق في التفكير في مسائل من هذا النوع .. ولكن ، كم من الناس يفكرون فيها في مثل سنك ؟ .. لا أعرف أحدا من لماتك يفعل ، واني لأمجد فيك هذا الجدل السليم وهذه الجرأة ..

أما أنا فلم أوت ما أوتيت من حجي وجرأة ، لاسيما حين يتسلط قلبي على ! اننى أكتب كأولئك الذين يحسنون القول ، بيد أن عمق شعورى وتغلغله يقتلنى . وهذا ما أحس به حين أكتب اليك عن آلام الفراق .. اننى لم أتبين صدق الحكمة القائلة بأن على المرء أن « يتدثر بما يلائم البرد من لبوس » - اذ ليس لدى دثار يقى من مثل هذا البرد - على أننى أعمل على

أن أجد دائما ما يشغلنى .. وهكذا يمر الوقت .. وعلى العموم ،
فإن أفكارنا وميولنا تنحرف أحيانا الى مسالك أخرى غير التى
ألفناها تسلكها ، فلا تعود أحزاننا أحزانا ..

حب الحياة

* تساليننى يا طفلى العزيزة عما إذا كنت لا أزال أحب
الحياة ؟ .. ولا بد لى من أن أعترف بأننى أجد أحزانها قاسية ،
غير أن نفورى من الموت أقسى .. ومن أشد بواعث الحزن لى
أن أفكر فى أن لا بد لى من أن أختم حياتى بالموت ، ولو
استطعت لآثرت أن أرجع من الآن من حيث بدأت ، فأننى أشعر
بأننى دفعت الى الحياة دون ما موافقة منى ، فأننا فى وضعم
يدعو للحيرة !

لسوف يتحتم على أن أودع الحياة ، وهذه حقيقة تحيرنى ..
اذ من أى باب أخرج ؟ .. ومتى يأتى الموت ، وفى أى حال
يجدنى ؟ .. وهل أعانى ألف ألم فأموت محسورة قانطة ؟ ..
أو أموت فى غشية من الفرح ؟ .. هل أموت فى حادث ؟ ..
وكيف سأنف بين يدى الله ؟ .. ماذا لدى كى أقدمه اليه ؟ ..
أعود اليه فى خوف واضطرار ، لا أشعر بغير الذعر والهلع ؟ ..
وأى أمل لى ؟ .. أهل أنا للجنة ، أم اننى لا أستحق غير
الجحيم ؟ .. يا له من شك رهيب يعذب عقلا فانيا زائلا .. !
ويا لها من حيرة !

ليس هناك ما هو أكثر حمقا من أن يهجر المرء أمنه هكذا ،
غير موقن من مصيره .. ومع ذلك فليس هناك أمر طبيعى أكثر
من الموت .. وليس أسهل على من أن أدرك تفاهة الحياة التى
أحيها .. اننى أغرق فى مثل هذه الأفكار ، فأجد الموت كما
أتصوره فى تأملاتى رهيبا ، حتى اننى أمقت الحياة لانها تفضى
الى الموت ، أكثر مما أمقتها لانها تقودنى أثناءها عبر متاعب
كثيرة ..

لسوف تقولين اننى أرغب فى أن أعيش الى الابد .. ولكن هذا غير صحيح على الاطلاق ، ولكنى لو خبرت لاثرت أن أموت راضية بين ذراعى مرضعتى ، فاننى بهذا كنت أتجنب كثيرا من الاحزان ، وكنت أكتسب الحق فى الجنة بسهولة ..

قضاء الله ونظامه

♦ ان الله يحب النظام ، ولكن اذا كان النظام موصى به من الله ، فان الكثير مما يحدث انما يحدث ضد وصاياه : كل الاضطهادات التى وجهت ضد القديسين مثلا ، وكل الثراء الذى يحرزه المذنبون والطفافة .. كل هذا ضد النظام ، ومن ثم فهو ضد ارادة الله ..

ومن واجبا - بالتاكيد - أن نتمسك بما قاله القديس اوغسطين من أن الله يسمح بتلك الامور ، كي يكشف عن عظمته بوسائل غير معروفة لدينا .. ولا يعترف القديس اوغسطين بقانون او نظام فى الدنيا سوى ما اراده الله ، واذا لم نتبع هذا المذهب فلسوف ننتهى - مضطرين - الى أن نستنتج أن كل شيء تقريبا يقع مخالفا لارادة الله الذى قضى به .. وهذه نتيجة مروعة ..

اننى اود أن أشكو الى الاب «المبرانث» هذه الجردان التى تانى على كل شيء هنا .. أنهذا من النظام ؟ .. انها تلتهم السكر ، والفاكهة ، والمحفوظات ، وكل شيء نأمل أن نأكله .. وهل كان من النظام فى شيء أن تقضى الديدان التسعة فى العام الماضى على أوراق أشجار غابتنا وحدائقنا وكل فواكه الريف ؟ أجل أيها الاب .. كل هذا خير بلا شك .. ان الله يعرف كيف يدبر هذا ليظهر عظمته - وأن لم ندر كيف يدبره - ومن الواجب أن نتقبل هذا ونصدقه ، لاننا اذا لم نعتبر ارادة الله معادلة لكل قانون ونظام ، وقعنا فى متاعب وضائقات عظيمة ..

ان لك يا صغيرتى الحبيبة فلسفة لا تدع سبيلا الى السعادة معك .. ان عقلك يسبق آمالنا فى تصور ضياع كل ما نرجو ، اذ أنك ترين فى لقاءاتنا الفراق الذى لا مفر من أن يحدث فيما بعد .. وهذه ليست بالتأكيد الطريقة التى ننظر بها الى الطيبات التى تعدها لنا العناية الالهية ، وخليق بنا أن نستمرى هذه الطيبات ونألفها ..

أما وقد وجهت اليك هذا اللوم الخفيف ، فلا بد لي من أن أعترف لك فى صراحة وأمانة ، بأننى لا أقل عنك استحقاقا للوم .. فليس هناك من يفزعه جري الزمن أكثر منى ، ولا من هو أرحف منى شعورا ، حتى ليحس مقدما بالشجون التى تعقب المذات عادة .. والواقع يا ابنتى ان الحياة تمزج طيبتها بشرها ، وعندما يحصل المرء على ما يشتهى ، يكون الرب منه فى أى وقت آخر الى فقدانه .. واذا بعد عنا ما نشتهى ، رحنا نحلم بالوصول اليه .. ومن ثم فعلينا أن نتلقى الامور كما يبعث الله بها اليها ..

أما أنا ، فانى أوتر أن أرعى الامل فى لقاءك فلا أمزجه بالاحاسيس الاخرى ، وأتطلع الى أن احتويك فى الشهر المقبل بين أحضانى . اننى أحب أن أؤمن بأن الله سيسمح لنا بهذه الفرحة الخالصة ، وان كان من أسهل الامور فى الدنيا أن نشوب هذا الامل بالمرارة والهواجس ان شئنا ..

محنة ملك إنجلترا

♦ لقد أعلن امير اورانج نفسه حاميا للديانة الانجليزية ، وطلب أن يوكل اليه تربية الامير الصغير - وهى خطوة جريئة - وقد انضم اليه كثير من النبلاء الانجليز ضد ملكهم .. ولكننا جميعا نأمل أن يستطيع جيمس الثانى أن يوقع به هزيمة ساحقة . لقد استقبل اللوردات المؤيدين له ، وعزز جانب أنصاره المخلصين له ، وأعلن الحرية المطلقة للعقيدة .. فوحد بذلك قومه حوله ، اذ منحهم حرية دينية أوسع ...

ماذا نقول في هذه الامة الانجليزية ٠٠٩ ان عاداتها واخلاقها تنحدر من سيء الى اسوأ . ومن الجلي أن ملك انجلترا فر من لندن باذن كريم من امير اورانج ، وأن الملكة ستصل الى باريس بعد يوم أو اثنين . ومن المؤكد أن الحرب لن تلبث أن تعلن ضدنا عما قريب ، ما لم نعلنها نحن أولا . ولقد تصرف ملكنا الفرنسي تصرفا « الهيا » نحو الاسرة المالكة الانجليزية ، اذ ان ما فعله من مواساة الملك الطريد وعائلته ، عمل من الاعمال التي يرضى عنها الله . .

ومن الانبياء الطيبة أن ملك انجلترا رحل اليوم الى ابرلندا ، حيث يرتقبونه في حماس . ولسوف يكون هناك في حال افضل مما لو بقي هنا . انه يجتاز « بريتاني » في سرعة البرق ، وسيجد في « بريست » المارشال « دستريه » ومعه وسائل النقل والبوارج على أصبة الاستعداد . وهو يحمل معه ثروة طائلة ، كما أن ملكنا أعطاء أسلحة لعشرة آلاف رجل ! وفيما كان جلالتة يودع ملكنا ، قال ضاحكا انه نسي أن يتزود بأسلحة لنفسه ، فأعطاه ملكنا أسلحته الخاصة ، وما أرى أبطال قصصنا قد أوتوا من الشهامة ما يفوق هذا الاينار . . وأى عمل جليل يعجز هذا الملك السيء الحظ عن أن يأتيه بهذه الاسلحة التي لم تعرف غير الظفر ؟

الشيخوخة

♦ اذن قد تأثرت يا ابنتي بالكلمات التي أوحتها الصداقة الى مدام دي لافاييت ٠٠٩ اننى قط لا أنسى اننى أكتهل ، وخليق بى أن أعترف بأننى دهشت لما قالته ، لاننى لا أشعر بأى ضعف يذكرنى دواما بتقديم سننى . . على اننى اذ أفكر فى شيخوختى ، أرى أن الحياة تهيب . لنا ظروفنا قاسية ، فما أنا ذى قد استدرجت - على الرغم منى - الى المرحلة المشثومة التي لا بد للمرء عندها من أن يموت . . مرحلة الكهولة . اننى

أراها بوضوح .. لقد تسلمت الشيخوخة حتى استولت على ،
ولم أعد أبقي سوى أن لا يمضي العمر بي الى أبعد من هذا ..
اننى لا أحب أن اجتاز سنى حياتى الاخيرة خلال طريق
الامراض والافواج وفقدان الذاكرة والمشوهات التى اعتبرها
نقمة .. ومع ذلك فاننى اسمع صوتا يهتف فى اذنى : « يجب
أن تسلكى هذه الطريق ، شئت أو لم تشائى ، والا فعليك أن
تموتى » .. وليس ثائى الطريقين بأقل من أولهما كراهية
لدى النفس .. هذا هو النصيب الذى لا محيص عنه لكل من
يوغل فى درب الحياة ..

على أن تذكر ارادة الله ، والرضى بذلك القانون العام الذى
قضى علينا جميعا بالموت ، يرد العقل ثائبة الى عقاله ، ويلهمنا
الصبر . أفلا يدرك أنت الاخرى طاقة على الصبر يا حبيبتى ..
لا تدعى حبك وحنانك المفرط يدفعانك على أن تذرفى دموعا
يستنكرها عقلك !

جامعة الاسكندرية ادارة التوريدات

تقبل عطاءات بمكتب السيد
سكرتير عام جامعة الاسكندرية
لغاية الساعة ١٢ من ظهر يوم
الاحد الموافق ١٧ أكتوبر ١٩٥٤
عن توريد الاغذية اللازمة لمطاعم
الجامعة للعام ١٩٥٥/٥٤ ويمكن
الحصول على الشروط من ادارة
التوريدات ٦ شارع الكنيسة
الانجليزية ببوكل رمل الاسكندرية
مقابل مبلغ ٢٠٠ مليم يضاف اليه
مبلغ تعانين مليا اجرة البريد
وتقدم الطلبات على ورقة دفعة
من فئة الخمسين مليا ٨٦٥٧

كلية التجارة - اعلان

اعلان كلية التجارة بجامعة
القاهرة عن تاجير البوفيه الخاص
بها لمدة ثمانية شهور تبدأ من اول
نوفمبر ١٩٥٤ الى آخر يونيو ١٩٥٥
على أن يقدم العطاء داخل مطروف
معلق باسم الاستاذ العميد مع
ذكر كلمة « عطاء بوفيه » فى اعلان
المطروف فى ميدان غايته ظهر يوم
الخميس ١٤ أكتوبر سنة ١٩٥٤
حيث ستنتج المظاريف
هذا ويمكن الاطلاع على الشروط
المودعة بمكتب معاون الاول بالكلية
فى المواعيد الرسمية هذا ايسام
المظلة ٨٧٠٦

عزيزى القارىء ..

فى هذا الباب قدمت لك فى اعداد
سائلة عددا من القصص الكلاسيكية ،
البسطة خصيصا كى يقرأها الصبيان ،
او يقرأها الكبار ثم يحكونها لأطفالهم ..

واليوم اقدم لك فى هذا الباب مادة
من نوع آخر .. فهى ليست للأطفال ،
ولما عنهم .. ذلك ان علم النفس
الحديث قد فتح آفاقا فسيحة لمحاولة
اتاحة اكبر فسط ممكن من السعادة
للانسان فى مختلف مراحل حياته ، عن
طريق فهم ومعالجة نفسيته منذ نعومة
أظفاره ، ومن ثم تربيته التربية الصحيحة
التي تكفل له نفسا سليمة من العقد
والنقصات والأمراض الشخصية .. كما
تكفل له جسما سليما من العلل
والأمراض البدنية

وفى الصفحات التالية اقدم لك
الحلقة الاولى من سلسلة محاضرات اعدتها
خصيصا للأمهات والآباء نقر من أشهر
الاخصائيين الفرنسيين فى علم « تربية
الطفل

نحن وأكبادنا



البيت والعائلة والطفل



مدرسة الآباء

مشكلات الطفولة المبكرة

للمكتوبة الأرمينية فرانسواز دولتو

هذه السلسلة ..

♦ يسر كتابي ان يحضر اليك من باريس نصوص هذه السلسلة من المحاضرات والبحوث التي ألقاها تباعاً في كلية الطب بالعاصمة الفرنسية عدد من اكبر الاطباء والسيكولوجيين الاخصائيين في تربية الطفل ، وقد نظمت هذه المحاضرات مدرسة خاصة اطلقت على نفسها اسم « مدرسة الآباء » ، وهي هيئة علمية أخذت على عاتقها بحث اعظم مشكلة تشغل بال الانسانية جمعاء ، وهي مشكلة تربية « الطفل » على اساس سليمة ، مدروسة علمياً ، والتعرف الى نفسيته وتحليلها والتفغل في مساربها الدقيقة الغامضة المعقدة .. ورغم كثرة ما كتب في هذا الباب ، فإن ما تضمنته هذه المحاضرات يعتبر من ادق واوفى البحوث التي توفر عليها علماء الاخصائيون في هذا الباب ..

وفيما يلي المحاضرة الاولى من هذه السلسلة القيمة ، وهي تتناول بالبحث والعلاج مشكلات المرحلة الاولى من حياة الطفل ، او مرحلة الطفولة المبكرة **Problèmes de la Petite Enfance**

وقد ألقاها في مدرج كلية الطب بباريس الدكتور
« فرانسواز دولتو » ، « واري
لزاماً على ان أوجه نظري كل ام
وكل أب الى وجوب قراءتها - وما
يتبعها من حلقات تاليسه -
واستيعاب ما فيها بروية وامعان
.. فهي تؤلف في مجموعها
أحدث « دستور » سيكولوجي
لفهم الطفل ، ومعاملته ، وعلاج
نفسيته .. او في كلية واحدة
« تربيته » تربية سليمة مثالية ،
تجعل منه - حين يشب - عضواً
ناجحاً في المجتمع الاكبر ، مجتمع
الانسانية الفسيح الرحاب ..



متى يفهم الطفل معنى الحياة ؟

◆ سيدهش كثير من الأمهات عندما يعرفن كيف يفهم الطفل معنى الحياة قبل أن يبلغ الشهر الثامن عشر من عمره ، إذا كان قد ورث عن أبيه أن يعمل ما يحب هو أن يعمل ، وليس ما يجب عليه أن يعمل !
والواقع أننا حين نبحث مشكلات الطفل ، يجب أن نضع موضع الاعتبار البيئة التي يعيش فيها الطفل ، وإمكاناته الذاتية - أي استعداداته الطبيعي - والإمكانات التي آلت إليه بالوراثة عن والديه .. ثم هناك الجو ، الذي ينشأ فيه الطفل : كمهوله طفل أصغر ، أو وجود امرأة أب مثلا .. الخ
وأبدا بتقرير حقيقة بالغة الأهمية ، وهي أن حيوية الطفل أمر يجب ! فهو يملك قوة هائلة من الحياة تريد بأي ثمن أن تصل إلى التعبير عن نفسها ، حتى لو لم تكن في ظروف ملائمة لهذا التعبير ، وهذا القانون العام هو الذي يرسم للآباء والأمهات الخطأ التي لا مقر لهم من سلوكهم .
ويتلخص هذا القانون في العبارة الآتية : « يجب أن يترك الطفل حرا في التعبير عما بنفسه ، بالطريقة التي توائم سنه ومستوى الحياة التي يعيشها ، وذلك بدون استعمال أي ضغط على نموه ، سواء كان ذلك الضغط لرفع نموه أو إعاقة هذا النمو ! »

كيف تعطى معنى إيجابيا لتصرفات الطفل السلبية (كالفشل أو الرفض) ؟

◆ منذ ولادة الطفل حتى يبلغ العامين من عمره ، يمر بما يجيش في نفسه بواسطة اللهاة . وقد يلجأ في تعبيراته إلى بعض اللعب أو الوسائد التي تكون في سريره ، وقد يتعرض إلى بعض الأخطاء أثناء ذلك ، ولكن يجب أن نترك له الحرية في محاولاته التجريبية الأولى ..
وكثير من الآباء يخشون أن يصدوموا ابنائهم ، وبخفة تجذب صدمتهم يرتكبون أخطاء فظيعة . وهاكم مثل حدث أخيرا يدل أقطع الدلالة على الخطر الذي يترتب على تفهم حالة الطفل النفسية تفهما خاطئا :
كان هناك طفل في الشهر الثامن عشر من عمره ينتظر طعامه المعتاد الذي يعطى له في « البزازة » . وكانت أمه تعد له فتاخرت قليلا ، فتضايق الطفل وأخذ في الصياح .. فلما جاءت أمه « بالبزازة » رفض وضعها في فيه أو تناول ما فيها !
ما العمل ! أن التقدير الصحيح للموقف يقتضي ترك الطفل يصيح ، وترك الحرية له في رفض تناول «البزازة » سيما وأن هذه هي الفترة

التي يبدأ الطفل فيها في العزوف عن تناول اللبن لأنه يفضل تناول طعام الكبار .. والذي يجب أن تدركه الأمهات أنه إذا لم يتناول « البزازه » فإن هذا لن يؤثر على صحته بحال !



غير أن الأم قد تكون معاطلة بحسب مكهرب ، وقد تصادف أن يكون بجوارها في تلك الآونة شخص يدعى العلم بحالات الأطفال النفسية ، فإذا بهذا الشخص يتطوع بالمثاقها ، فيقول لها : « أنك إذا تركت الطفل يرفض تناول البزازه هذه المرة ، فسوف تفقدين السيطرة عليه بعد ذلك .. وسيصبح هو الذي يسيطر عليك ! »

وتحت تأثير هذه الأقوال الخاطئة تنشعب معركة بين الأم وطفلها لارتغامه على تناول « البزازه » ، تنتهي بأن يزيد صياح الطفل حتى يصاب بالتشنج . فتصب على رأسه الماء البارد ليهدأ ، لكنه يزفاد عسويلا ، كمن يطلب اللجدة ! .. وأخيرا يعود إل جنونه عند ما تحويه الأم بين ذراعيها ، فتعاود وضع البزازه في فيه .. وفي هذه المرة قد ينصاع لها من فرط تعبسه فيتناولها !

فما الذي حدث ؟ الذي حدث هو أنه بحجة تجنب الطفل انفعالا يسبب له تشنجا عصبيا ، تسببنا له في تشنج أعنف .. فإذا صببنا كل رأس الطفل ماء باردا أصبناه باختناق يحدد حالة التشنج ، واعتناءه القهقري إلى عهد ولادته ، لأنه ما يكاد يحس بأنه بين ذراعي أمه ، كما كان في أيامه الأولى ، وما يكاد يحس بأن أمه تهدده ، حتى بهذا .. والنتيجة هي أنه في هذه الحالة يتناول غذاءه من البزازه ، على حساب نموه وتقدمه !

فلنترك الطفل يصبح !

♦ والحقيقة أن الطفل يمر في سنه تلك في المرحلة التي يعمد أثناءها كثيرا على الأطفال أن يعبروا عن مشاعرهم .. فإن انتظاره للبزازه خلق عنده حالة تورع عصبى شديد لا يمكنه أن يعبر عنها بغير الصياح .. وهو لن يهدأ إلا إذا تم له هذا التعبير عن توتره ، أي إذا تركناه يفرغ من صياحه

.. فإذا ما تم له ذلك أمكنه بعدئذ أن يتناول غذاءه من اللبن . ثم إن الطفل ليس في مقدوره أن يصيح ويستطع غذاءه في آن واحد ، فكان من الضروري إذن أن تنتظر حتى يفرغ من التعبير عما يشعر به من الجوع . وكان من الضروري أن تتركه يصيح . وكان من الضروري أن تترك له الحرية ليقول « لا ! » ، لأن هذه هي الطريقة المثلى التي تجعله بها قادرا بعد ذلك على أن يقول « نعم ! »

ولتضرب لذلك المثل الآتي :

طفل في الثالثة من عمره دعي إلى إحدى حفلات عيد الميلاد في إحدى مدارس الحضارة ، لأن والديه كانا صديقين لمدير تلك المدرسة . وكان من الطبيعي أن توزع اللعب على الأطفال في تلك الحفلة . ولما لم يكن الطفل المذكور من أطفال تلك المدرسة فلم يكن له نصيب بالطبع من تلك اللعب التي كان يتناولها الأطفال طفا طفا بهدادة الاسماء ..

أما هو فظل جالسا بين والديه ، وكان يصفق مع المصنفين لكل طفل يتناول لعبته .. ولاحظ والده أنه بدأ يحس بضيق كلما رأى طفلا يتقدم لأخذ لعبته من يد مدير المدرسة ..

إن هذا الطفل ولا شك ذو إرادة قوية ، فقد أمكنه أن يضبط أعصابه ويظل هادئا وقورا .. ولكن بعد انتهاء عملية التوزيع لاحظ مدير المدرسة ، وهو صديق أبويه ، أنه لم يأخذ شيئا .. فخاطبه قائلا : « كيف ! ألم تأخذ لعبة مثل الآخرين ؟ أنتى سأتدرك هذا الخطأ .. خذ هذه البجعة .. فهل تعجبك ؟ »

وال هنا كان الطفل صامتا لا ينفس ببنت شفة . فما إن وجه إليه المدير هذه العبارة حتى انفجر بالبكاء ، وصاح في المدير : « أنت ردي ! أنت ردي ! لا ! أنتى لا أريد شيئا .. لا أريد شيئا ! » .. ثم ضرب البجعة بيده ضربة قوية أطارتها في الفضاء !

إنه نفس المسلك الذي سلكه الطفل الأول في الحالة السابقة .. فقد طال انتظار الطفل الثاني للعبته ، كما طال انتظار الطفل الأول « لبرازته » !

غير أن والد الطفل الثاني سلك معه مسلكا غاية في الحكمة والصواب .. فبدلا من أن يفعل ما كان يفعلته أغلب الآباء في مثل هذه الحالة ويقول : « كم هو طفل قليل الأدب ! أنه يشود في وجه من يحاول إدخال السرور على قلبه ! » .. فخاطبه بقاية الرقة قائلا : « هذا حسن جدا .. لقد كنت في غاية الشجاعة يا ولدى ، لأنك انتفرت حتى النهاية دون أن تقول شيئا .. فبرهن الوالد لابنه على أنه ، بدوره ، قد اشترك معه في الألم الذي استبد به من طول الانتظار أثناء توزيع اللعب على الأطفال !

ثم عاد الوالدان بالطفل الى المنزل دون أن يزيدا في التطبيق على ما حدث .
 وثا قبل الليل قالت له أمه : « هل تعرف ماذا فعلت ؟ لقد أخنت البجعة
 واضطرتها حتى بالرغم مما حدث منك » فهل تريدان ١٩٩ ٠٠ ؟ فما كان من
 الطفل الا ان أخذ البجعة بأذى القبضة والسروور ، نفس البجعة التي رفضها
 من قبل بأياه ٠٠ بل انها صارت بعد ذلك لحيته المفضلة على ما عداها ١
 فما الذي حدث ؟ ان الذي حدث كثير الوقوع والتكرار : فقد كان الطفل
 في السن التي يعبر فيها عن انفعالاته بواسطة التفريز الآلى . وقد كان
 مشتاقا للحصول على اللبية . ولكنه وصل الى درجة من الكبت العصبي لم
 يعد في امكانه معها أن يتقبل اللبية التي كان يريدان ٠٠ وكان لا بد لهذه
 الانفعالات المكبوتة من التعبير عن وجودها بالعنف الذي وأيناه . فكان واجبا
 ان نترك للطفل حرية الرفض ، ليكون له بعد ذلك - حين يهدأ - حرية
 القبول ١

ولكى نزن هذا المسلك من جانب الطفل بميزانه الصحيح يجب ألا نعتبر
 هنا فكرة الطير والنسر ٠٠ وانما يجب ان نزنه بميزان آخر : وهو ان ما حدث
 لا يعدو ان يكون من طبيعة البشر . علينا أن نعلم جيدا انه اذا لم يستطع
 الإنسان في طفولته أن يتمتع بحرية الرفض فانه لن يستطيع أن يتمتع
 بحرية القبول في مستقبل الأيام ٠٠

المقالة في الشدة تحدث رد فعل !

♦ وكثيرا ما يخجل للإنسان ان الحقائق النفسية التي أمكن الوصول
 اليها والكشف عنها ، تصطدم مع العقل ٠٠ فهل هذا صحيح ؟ ٠٠ لضرب
 لذلك مثلا : يريد أن يكون الطفل على درجة حسنة من التربية ، وان يعود
 عادات حميدة . فما الذي يحدث ؟ يحدث ان نجأ الى « الشدة » لنفرض في
 نفسه هذه العادات الحميدة . والإنسان بطبيعته « قسود » عاقل ، فلي احسن
 الحالات والظروف نرى الطفل في سن السابعة او الثامنة قد أصيب برد فعل
 قوى ، فاذا به يبحث عن حرية الضائعة ، وذلك بأن يبتذ جميع التعاليم التي
 كان قد تلقاها عن طريق الشدة والقهر ٠٠ وكثيرا ما يأتي ذلك عن غير
 عمد : فالطفل الذي لجأ والده الى الشدة ليعلمه كيف يكون نظيفا نراه في
 سن السابعة اشمت الهندام ، وربما يستيقظ في الصباح فاذا بفرائشه
 مبتل ١ وما ذلك الا لأن الحياة القوي من قوانين التربية مجتمعة ٠٠ والفراش
 نشطة عامة وليس من اليسر مقاومتها . فالتربية الصحيحة هي التي تسع
 للحياة بالنمو والتفرد بدون أن تضع في طريق نموها وتدرجها العراقيل .
 وهي في ان يعرف الطفل غرائزه ليعرف بعد ذلك كيف يسيطر عليها ٠٠١

وليست التربية في ان يكون سجين هذه الفرائز ، أو ان يكون سجين آراء الآخرين !

الطفل يستطيع التمييز منذ ولادته !

◆ سمعت لي الفرصة لمساعدة ظاهرة عجيبة تتعلق في ان الطفل ، في اليوم ، الثامن أو العاشر لولده ، يمكنه ان يختار نوع الغذاء الذي يناسبه اكثر من غيره ١٠٠ وكانت هذه المشاهدة أثناء فترة قاطعة الحر وكان الطفل يذوق بلبن البقر المخروط بالماء ، ولما كانت نسبة خلط اللبن لا تناسبه - لدسامة اللبن وشدة القئ - فقد كان يرفض تناول اللبن ، مفضلا عليه الماء القراح ! واستمر ذلك الى اليوم الذي تنبهت فيه أمه فحققت اللبن الى الحد الذي كان جسمه يتطلبه ١٠٠

ولنضرب مثلا آخر بالطفل الذي نما نموا طبيعيا الى الشهر السادس من عمره ، بدون ان تصادفه صعوبات ، ومن الطبيعي ان يواجه في هذه السن صعوبة التعبير ، فهو لذلك يأتي بحركات مضطربة ليستقدم بها أحدا الى جواره كما لو كان يريد ان يتحدث اليه عن شيء يدور في نفسه ، ثم يكثر من البكاء ١٠٠ وهنا يكون مسلك الأم على جانب عظيم من الأهمية ، إذ عليها ان لا تستثير الطفل ببعض الحركات العاطفية : كأن يكون هادئا في مهده فتأتي لتلقي نظرة عليه ، فيما تكاد توليه ظهرها وتذهب عنه حتى يأخذ في البكاء . انه لم يكن ينبغي قبل ان يراها ، فتقوم الأم هو الذي أثار في نفسه هذه الموجة ، موجة « ألم الفراق » وما تبعها من دموع سكبها باكيا بعد ذهابها عنه ١٠١ ومن ثم يجب ان نتعلم كيف نترك الطفل يلهو منفردا ، على ان نراقبه من بعيد من خلال باب زجاجي مثلا ، وذلك بدون ان تفرض عليه فرضا ذلك السرور الذي يستشعره من حضورنا ، والذي يستتبعه ذلك الألم الذي يستشعره بعد ذلك من غيابنا ١٠٢ وإذا حدث ان كان بعض ذويه يقره فعليهم ان يلهو بلمبة يتسلل بها ، وعندئذ يمكن تركه دون استشارته ، لانه قد يجد في اللعبة التي في يده عوضا عن فراقه للناس ١٠٣

ان العلامة الدالة على ان الطفل ينمو نموا متزايا في الحياة ، ليست في المعرفة التي يلقنها ، ولا في قدرته على أن يلفظ اسمه ، وإنما هي في ذلك التعبير الواضح ، الحي ، المتحرك الذي يصدر عنه ١٠٤ فماذا نعمل لضمان اكتساب حريته ، في ذلك التعبير ؟

السريير ذو الحواجز :

◆ كثيرا ما نرى أطفالا صفارا جدا يشبهون بكلياتهم بشر ، يسمونه في أفواههم ويصونه (كأن يصووا أصابعهم ، أو ملاءة السريير التي يسمونها

في افواههم) .. لماذا ؟ لان الطفل كثيرا ما يصاب « بالشلل » .. واليبس
العلاج :

فأولا : يجب ان تبعد من سرير الانسجة .. وثانيا : انه يحتاج الى النور
والحركة تدب من حوله ، والى المسليات .. ومن هنا كان من الأفضل ان
يوضع في سرير ذي حواجز حتى يتمكن من ان يرى خلالها ما يدور حوله في
الغرفة . ويجب ان يوضع في هذا السرير ميكرا ، لانه ثبت ان الطفل ابتداء
من الشهر الثالث من عمره يصبح قادرا على الاهتمام بالاشياء المحيطة به .
وعليه فيجب ان نتمكن من تتبعها ، ومن رؤية النور ، فاذا ما ترك بعدده
وحيدا فانه لا يستشعر الوحدة ولا « يمل » !

الرياضة الحرة

♦ بعد هذه الحقبة من الزمن يجب ان ندع الطفل يمرن جسده وذلك
بان يحبو او يتعلق بأحد المساند أو القاعد .. ويصاب الطفل احيانا كثيرة
من جراء هذه التمرينات الاولى . ولكن الذي يعطى لسقطة الطفل اذا سقط،
معنى ايجابيا او سلبيا ، هو مسك الأم بازائه في هذه الحالة : فلتجنب ان
تقول له : « هذا سيء » او هذا ردي ، ! بل يجب ان نقول له في هذه
الحالة : « هذا خطأ .. ولكنه غير ممنوع .. وفي هذا مجازفة ! » ، ويعتدك
علينا ان نساعد على ان يقوم بنفسه بفعل ما سبق ان عمله ولكن بطريقة
افضل من طريقته الاولى . ولتعلم جيدا ان الطفل من ناحية التمرن على الحركة
قادر على ان ينظم نفسه كما ينظمها تماما في حالة الجوع .. واحسن السبل
هو ان ندع له « الحرية » في تجربة محاولاته بنفسه ، فان هذا سيجعله
مع الوقت في غاية العذر .. اما اذا لم نتركه بفشل تدريجيا ، هذا الفشل
الذي يجب ان يواجهه ، فانه سيكون عاجزا عن سلوك الطريق الذي يفرض
عليه ان يسلكه في المستقبل ، كما سيكون عاجزا اذا ما وجد نفسه فجأة امام
تجربة صعبة لم يحضر لها تحضيرا كافيا من قبل .. فننلا في حالة الطفل
الذي يتعلم المشي فيحبو أولا ثم يسقط ، نرى كثيرين من الآباء يبالغون في
اتخاذ الاحتياطات لمنع مثل هذه السقطات ، الى الحد الذي اذا سقط معه الطفل
ذات يوم سقطت عليه غير متوقعة ، فان هذه السقطة المفاجئة قد تسبب
له صدمة تمنعه من تجديد محاولاته ، وقد تعوق تقدمه وقتا طويلا .. وذلك
لأننا لم نترك له الحرية ليزن جسده تدريجيا ، ولم نتيح له « فرصة »
السقوط بين الآن والاخر

اكتشاف « الجنس » والمشاكل التي تواجه الامهات

♦ يظن للطفل ان يكون عاريا .. وذلك راجع من غير شك الى ان طبيعة الانسان هي ان يكون عاريا . وكثيرا ما تطلق الامهات عنه ما يبصرون اولادهن وقد اكتشفوا في انفسهم حقيقة « الجنس » ، وذلك مخافة ان يصابوا بالمادة السرية . ولكن الطفل يكتشف حقيقة « جنسه » كما يكتشف وجود نفسه او اذنيه تماما .. فاذا ما توجه ببعض الاسئلة في هذا الصدد ، فالواجب هو اجابته عليها بصراحة ، مع السماح له بالتعبير عن حاسسته . وعما يستشعره ؟ .. لان سؤاله يعتبر دليلا على انه بدأ « ينتبه » .. وان هناك جوابا ما على سؤاله قد يدور في مخيلته . فواجب الأم في هذه الحالة هو أن تشجعه على التعبير عن « حاسته » ، وعما يراه . او يسمعه .. وان تجب له الافصاح عن رأيه الشخصي في كل هذه الامور .. فهذه الطريقة يستكشف رويدا رويدا حياته الجنسية ويستكشفها تدريجيا مع نمو جسده ..

اما فيما يتعلق بالفتيات الصغيرات فانه ، في تقديرهن ، امر جالسح للكرامة ان يرين انفسهن يختلفن عن الذكور في « التكوين » ، على ان هذا لا يمنعهن مع ذلك من الاعجاب بالجنس الآخر ، فيجب التحسنت اليهن والهامهن ان جميع الفتيات الصغيرات ، بل جميع النساء ، خلقن هكذا ! ويجب ان يوضح لهن ايضا انه من اشد الامور مضايقة لهن ان يحكمن على هذه المسألة بطريقتهن .. فليس هناك جرح للكرامة في هذا « الاختلاف » بل هناك « امر واقع » !! وعند الفتاة الصغيرة استعداد سريع لتقبل هذا « الاختلاف » .. وانه تفي نفس الوقت الذي تبدأ فيه هذه « المقدة » في التكوين في نفس الفتيات ، ترى ميلهن الى العرائس وقد بدأ يبين ويظهر ! .. وابتداء من ظهور هذا - الليل - نراهن لا يقلقن انفسهن بهذا الموضوع !

وفي نفس تلك الفترة تظهر على بعض الاطفال انفعالات شديدة الوضوح . عند احساسهم بالميل الى « التبرز » ، فيجب ان لا تطلق من صياحهم عند ما ينتابهم هذا الميل !

مسألة نظافة الطفل

♦ كثير من الامهات يحتمن على الطفل الذهاب « للتبرز » في ساعات محددة ، مما يضطره في غالب الاحيان الى بذل مجهود متعب لالتسام هذه العملية . وقد يعجز رغم ذلك المجهود عن اتمامها .. فينبغي ان لا نبالغ في تقدير أهمية التبرز لان الطفل قبل ان يبلغ العامين من عمره لا يملك قوة

عضلية كافية تكفل له انتظام هذه العملية ، وعلى الاخص اذا كان وقت احبائه بالليل الى التبرز موزعا انتباهه على اشياء اخرى .. وفوق ذلك فانه ليس في مقدوره الاهتمام بشيئين في وقت واحد .. وان لميسة ما من اللعب تُشغله من اهتمامه اكثر مما تشغله حاجات بدنه .. فاذا وجد في ملهى او في « سيرك » قلق وسعه ان يقفز الى احدى اللعب في الوقت الذي ينتسبه الشعور بحاجته الى التبرز ..

ونعود فنقول انه حتى انتظام هذه العملية عند الطفل يجب ان يكتسب « بحرية » .. فكم عدد الوالدين الذين لا ينتظرون الوقت المناسب ليعود الطفل على هذا النظام ؟ ان النظافة التي تبنى قبل اوانها لنظافة مزعومة الاركان ، وهي معرضة للزوال اذا طرأ من الظروف ما يزعزع اركانها .. وكثيرا ما يحدث ان يكون الطفل نظيفا في السنة الأولى من مولده ، فلذا ما ذهب الى المدرسة في سن الرابعة رايناها يبذل فراشه .. وهنا تعود الام، وتشكوه الى مدرسة المدرسة ، وتطلب منها ان تكون لاسية معه جدا اذا ما عاد الى هذه اللغة ! وانه لسلك محزن حقا من جانب الام ، فسلك يزيد في ازعاج الطفل .. بينما يجب في مثل هذه الحالات ان نتجنب اشعار الطفل بانه « مذنب » ، حتى يمسود الى النظافة بسرعة ومن تلقاء ذاته .. وذلك كما يقال له مثلا : « انك تركز كل همك في الاشياء الحبيطة بك الى الحد الذي تنسى فيه نفسك .. ولا شك انك تفعل هذا عن غير عمد ! »

وهذه التربية لها أهمية عظمى لانها وثيقة الصلة « بالجنس » .. ويجب ان ننظر حتى تكون للطفل سيطرة « عضلية » على نفسه ، كان يزن اياداه وحركاته ، قبل ان نطلب منه السيطرة على هذه الناحية من نظافة جسمه . وفي هذه الحقبة من الزمن تبين على الطفل ظاهرة جديدة هي ظاهرة حبه لأن يفعل شيئا من أجل الآخرين .. فيجب أن نستغل هذه الظاهرة ، لا لتغلب منه مثلا ان يتبرز « ليرضيها » ، بل ان يفعل فعلا ايجابيا . كان يقلل أحد الابواب او يحضر لنا أحد الاشياء .. علينا ان نعلمه كيف يتجاسر ويتجاوب معنا .. أما نظافة الجسم فهي لا تزيد عن ان تكون وسيلة من الوسائل ليس الا . وليست غاية .. وهذه النزعات تبدأ في الظهور على الطفل حوالى سن الستين ، فعلينا ان نساعد على ان يبنى ذاتيته ويكون شخصيته ، على ان نترك له « الحرية » ليعمل ما يعمل بمحض رغبته .. لا بالقهر !

بذء التربية الجنسية

◆ ولنتعرض الآن صعوبة أخيرة وهي الفترة التي يكتشف فيها الطفل أن عضو التناسل فيه خلق ليؤدي وظيفة أخرى .. فمن الخطورة بمكان أن يتدخل

الكبار في حياة الولد الجنسية عن طريق الزجر أو النهي أو التوبيخ ..
 فقد يسبب له التدخل بهذه الطريقة صدمة تكون لها عواقب عنيفة ومضاعفات
 شديدة في حياته الجنسية برمتها عندما يكبر بعد ذلك .. وقد يدلعه الزجر
 أو النهي أو التوبيخ ، الى اعادة اهمية كبرى لبعض الحركات التي تكون
 حينئذى عديمة المعنى في نظره .. فالأمة حظر على الولد في هذه الناحية
 يضره ضررا بليغا ويجعله ينتقل من الجو العادى التنظيف الى الجوالثوث ..
 ومن الحياة المنتظمة الطبيعية الى الحياة الجنسية القلقة !!

أولاً لجأنا في الناحية الجنسية الى التعبيرات السلبية معه ، أمكننا ان
 نحدثه عن الولادة مثلا ، فنبدا حديثنا معه « بالكتكوت » وكيف يخرج من
 البيضة ، ودور الدجاجة في هذا الموضوع وكيف تبيض وتفرخ . ثم ننتدرج
 معه الى التحدث عن ميلاد الطفل الذي يولد من امتزاج « نصفين » : نصفه
 يأتي من الأب ، والنصف الآخر من الأم .. فنقول له مثلا ان نصلى الحيتين
 يكبران حتى يتكون منهما في بطن الأم بيضة تدثر في بطنها بالدفء قبل ان
 يظهر الطفل الى عالم الوجود ، تماما كما تدثر الدجاجة بيضتها بالدفء قبل ان
 يخرج « الكتكوت » الى عالم الوجود ..! ولنوضح له كل شيء بغير لف أو
 دوران .. حتى لا يصبح خياله في أشياء لا حدود لها ، وحتى لا يتصور في
 هذه الناحية أمورا لا تمت الى الواقع وإلى الحقائق بصلة . فهناك أطفال
 يتعذبون ويتألمون ألما شديدا لانهم يتصورون أنهم ولدوا من قلب الأم الذي
 انشق نصفين ليخرجوا هم منه الى هذا العالم ! ثم يفتن خيالهم الى تصور
 بشاعة الآلام والعمليات الجراحية التي تحملها أمهاتهم في سبيل ولادتهم
 وإخراجهم الى النور .. الخ

عل أنه من الطبيعي انه يتعين علينا ألا نسبق الطفل في معلوماته فنفرض
 عليه ما لم يسأل عنه .. وعلينا أن نتعود عدم فرضي رأى ما عليه . إذ هنا
 أيضا يجب أن نتركه حرا ، فلا نقول له مثلا : « هذا الغذاء لذيذ فيجب
 أن تأكله ! » بل نقول له : « اذا كنت جائعا فيمكنك أن تأكل .. التي أرى
 هذا الغذاء لذيذا وسيصبح الد مذاقا عذبا اذا أعجبك ! »

وباختصار ، فإن « قانون » تربية الطفل يتلخص في هذه العبارة : « دع
 طفلك حرا ، ولكن كن أنت حرا بدورك .. » وامنح طفلك من أن يضايقك في
 نشاطك ، ولكن تجنب أنت أيضا أن تضايقه في نشاطه ! »

وفي العدد القادم نقرأ المحاضرة الثانية من هذه السلسلة

بقية المنشور صفحة ٩

رايت وسمعت لك .. في أوروبا

— وهو أرقى ملاهي باريس الاستعراضية — يأخذك في فترة الاستراحة الى فاعة اخرى في الطابق الاسفل كي يمرض عليك — بأجر اضافي — الوانا سقيمة من الرقص الشرقي المزيف ، الذي يقصد به ارضاء لفضول السائحين البسج ، وابتزاز أموالهم .. أما في مصر .. فالسائح لا يكاد يجد ملهى واحدا انيقا نظيفا يرى فيه الرقص الشرقي التقليدي الذي ربما كان من اقوى العوامل التي اغرته بزيارة بلاد « الف ليلة وليلة » التي طالما سمع عنها .. في الكتب !

لقد أعجبتني الممتحن الذي وضع اسئلة امتحان الدور الثاني في كلية التجارة منذ أيام — وقد علمت انه الدكتور احمد أبو اسماعيل استاذ الاقتصاد الصناعي بالكلية — فقد كان بين الاسئلة التي وجهها لطلبة هذا السؤال : « تعتبر السياحة مصدرا دخل قومي كبير لغيرنا من الدول كفرنسا وسويسرا وإيطاليا » . فلماذا كنت توافق على ان ظروف مصر ليست اقل مواتاة ، فما هي السياسة التي نراها جديرة بالاتباع لتشجيع وتنظيم السياحة في مصر ؟

وسأحاول ان اجيب على هذا السؤال في الاعداد القادمة بان الله

تحية .. الى الاقطار العربية الشقيقة

♦ ليس من ذاب كتابي أن ينشر ما يوجه اليه من تحيات عاطرة مشكورة . لا تهم القاري كثيرا فيما اعتقد .. لكني أسمح لنفسى بأن استلثني من هذا « الحظر » . رسالة كريمة وصلتني من الكاتب الاديب الاستاذ سليم أبو سيف — صاحب التعضيمات المشرفة في ميدان الجهاد الوطني والسياسة المصرية منذ ربع قرن — وما كنت لأستقبلها لولا اني لا اعتبرها تنطوي على تحية لشخص بقدر ما تنطوي على تحيات صادقة لابناء البلاد العربية الشقيقة عموما ، ولقراء (كتابي) منهم على وجه الخصوص .. فهي اذن موجهة اليهم اكثر منها الى . ومن ثم فليس من حقي أن أمسكها عنهم .. وما على الرسول سوى الابلاغ :

أخي الكاتب الاديب الاستاذ حلمي مراد

تحيتي اليك وسلامي عليك ، وبعد .. فانه ليسرني ان ابعت اليك بهذه الرسالة من لبنان ، من الفتى المضياف الكريم الذي اقيم فيه بـ « بنت مري » حيث استمتع منذ أيام بجبال لبنان وسحره ، ونبل اخلاق اهله اللبنايين الكرام الاعزاء ..

وقد وصلت الى لبنان بعد رحلة استغرقت اياما في المملكة الاردنية الهاشمية ، زوت خلالها (عمان) و (القدس) و (رام الله) وغيرها من المدن ، حتى استقر بس الملام حيث أنا الآن ..

وكان من الطبيعي أن اعنى قبل أي شيء — وأنا أزور تلك البلاد الجميلة — بدراسة الحياة الادبية فيها .. فالادب — على حد تعبير « تالور » فيلسوف

الهند الكبير - هو الموضع الذي يعالج اسقام الحياة ، بل هو الحياة !
وكانت اول مدينة استقرت بنا الطائرة فيها بعد مغادرتنا مطار القاهرة.
هي مدينة عمان .. ولا اتمنك اننى لم اكن اتوقع ان ارى فيها مدينة عامرة
جميلة التنسيق ، لا تال مبانيها روعة عن اجمل ما تراه من مبان حديثة
فى القاهرة ..

ورحت اطوف أرجاء مدينة عمان الجديدة ، الجميلة ، الهائلة ، لغريت
اولا بمكتباتها ومتاجر بيع الصحف والمجلات فيها .. سررتنى شيء ، وراعتنى
شيء آخر : فلما التفتى الذى سررتنى فهو اعتلاء هذه المتاجر بجميع الصحف
والمجلات المصرية ، سواء ما كان يصدر منها يوميا ، او اسبوعيا ، او
شهريا .. فانت تستطيع ان تقرأ هناك نتاج الطابع المصرية عل اختلاف
الوانه دون أى عناء .. وقد سررتنى هذا لان دلالة ومعناه ان الصحافة المصرية
والادب المصرى يحتلان مكانة مرموقة فى الافطار العربية الشقيقة ..

اما التفتى الذى راعتنى فهو يتعلق بـ .. كتابى فقد رحت اطوف
بالمكتبات واحدة اثر اخرى اسألها مستقصيا ومندققا عن .. كتابى .. : زدت
مكتبات ومتاجر الصحف فى عمان والقدس ورام الله فى شرق الاردن ..
وزدت مثيلاتها فى بيروت وجبال لبنان .. فراعتنى ان اتلقى عن استقصائى
جوابا واحدا منها جميعا ، جوابا كانه منشور دورى مؤرخ عليها كلها بغير
استثناء ، وهذا الجواب هو : - لقد نفذ (كتابى) .. فلا توجد منه نسخة
واحدة باقية !

ولما سالت المتفرجين عل هذه الدور الصغيرة الانيقة عن سبب هذا النفاذ
السريع لنسخ .. كتابى .. ، كان الجواب واحدا منها عل السواء : - ان العدد
الذى يصلنا من .. كتابى .. يباع فور وصوله .. ولو ارسل الينا لمعه لبيع
فور وصوله ايضا .. !

راعتنى هذه الحقيقة وسررتنى غاية السرور - واظنك بمشاركة حسدا
الشعور ! - فلوان .. كتابى .. كان مجلة ماجة خلية ، تستثير موضوعاتها
الفراتى ، وتلهب صورها الحواس .. وذاع وانتشر ، لما كسان فى ذبوعه
وانتشاره ما يشرف البائع والمشتري معا ! اما وهو يقدم لقراءة أدوع النار
الادب فى تاريخ الادب كله ، قديمه وحديثه ، فان ذبوعه يشرف صاحبه بقدر
ما يشرف قارئه ! .. وهذا الذبوع دليل قوى عل ان الافطار العربية
الشقيقة لم تعد لتحفل الا بالجواهر .. وان التسباب والقراء فيها لا اثر
للعيب والعيون فى اخلاصهم ، وانهم يقبلون عل العلم والادب الرليح بلهفة
وشوق يدعوان للاعجاب الكبير ! .. وحيدا لك عل انه ليس للادب وطن ،

هو منذ القدم تراث انساني شائع ، لكل فرد من الانسانية فيه نصيب ..
والا ، فلو كان للادب وطن ، ولو كان للادب جنسية ، ، ولو كان
للادب عصبية .. لا عتزت كل امة بادبائها دون ادبها غيرها .. ولكانت
هذه الكانة الرفيعة التي يتسم بها كتابي ، في تلك الاقطار - ولا سيما في
سوريا ولبنان - اول بها لغيره من الكتب والمجلات التي تصدر في مصر ،
والتي لا تحتل نصف مكانته فيها ، بلفضل دولة العلم .. وعالية الادب
... وسمو الذوق الفني والادبي في البلاد العربية الشقيقة العزيزة

فاعتذك ، وارجو ان يكون ما صادفته حتى الآن من نجاح ، بلفضل
اغلاصك وادباك على خدعة قرائك ، خالزا لك على المزيد .. مشجعا لك على
تزويد قراء كتابي ، بما اعتدت تزويدهم به من الروائع والشوامخ التي
جلدت بها العبقرية الانسانية على الناس في التاريخين القديم والحديث ..
ولقد صادفت في بدء جهادك الادبي من الصعاب ما امره تمام المعرفة ..
واعلم عليك بعض من محنك في الاقلام ، ومعتصري الكتاب - الذين يعني بهم
الادب في كل زمان ومكان - حربا عوانا ، تخطي اذا ظننت ان اوارها قد
انطفا او سينطفئ .. ولكن عزاءك هو فيما تلاقيه انت ، وما يلاونه هم .
في مصر والعالم العربي كله من جزاء .. والسلام عليك حتى اللقاء ..
(بيت حري) - لبنان
الخلص كليم ابو سيف

تفتيش مشروعات رى غرب الدلتا بدمنهو

وتركيب الاعمال الصناعية اللازمة
للهورسين .

ويمكن الحصول على الشروط
والمواصفات والرسومات بتقديم طلب
على ورقة تممة من قسمة الخمسين
ملحيا لكل عملية على حدة - نظير
دفع مبلغ ١٥ جنيهًا للعملية الاولى
و ٢٠ جنيهًا للعملية الثانية بطلال
للامانة مليم اجرة البريد عن كل
عملية

وكل عطاء غير مصحوب بتأمين
مؤقت كامل قدره ٢ في المائة من
مجموع قيمة العطاء لا يلتفت اليه
احلًا .
٨٦٧.

تقبل عطاءات بمكتب التفتيش
لغاية الساعة الثانية عشر ظهر الأيام
المواصفة بعد للاعمال الآتية :

١ - يوم السبت ٢٧ نوفمبر
سنة ١٩٥٤ من عملية انشاء قنطرة
وهويس على رباح البحيرة كيلو
٢٦٠ (٢٦٠) وتوريد وتركيب الاعمال
الحديدية اللازمة للهوسوس
والكوبرى المنحرفة بمركز كسوم
حمادة بمديرية البحيرة

٢ - يوم الثلاثاء ٣٠ نوفمبر
سنة ١٩٥٤ من عملية انشاء قنطرة
وهويسين على ترعة المحمودية كيلو
٧٥٠ (٢٧٥٠) قرب كفر الدوار وتوريد

وزارة التربية والتعليم اعلان مسابقة لتأليف كتب في اللغة الفرنسية

شعبة الآداب ، يحتوى على :
مطالعة ، محادثة ، قواعد ، تمرينات
تحريرية

٢ - كتاب للسنة الثالثة الثانوية ،
شعبة الآداب ، يحتوى على :
مطالعة ، محادثة ، قواعد ، تمرينات
تحريرية

رابعا - كتابين لشعبة العلوم
بالمدارس الثانوية للبنين والبنات
« لغة أوروبية ثانية » بيدهما
كلائي ، ويراعى في اعدادهما
التسلسل :

١ - كتاب للسنة الثانية الثانوية
شعبة العلوم ، يحتوى على :
مطالعة ومحادثة ، قواعد ،
محفوظات ، تمرينات تحريرية .

٢ - كتاب للسنة الثالثة الثانوية
شعبة العلوم ، يحتوى على :
مطالعة ومحادثة ، قواعد ، تمرينات
تحريرية

وتقدم الكتب لمراقبة التوريدات
بوزارة التربية والتعليم - شارع
صفية زغلول بالتميرة - في موعد
غايته اول ديسمبر سنة ١٩٥٥

والكتب التي يقع عليها الاختيار ،
تشتري الوزارة حق تأليفها بصد
مطلقة نظير مكافأة في حدود (..)
جنيه لكل كتاب .

تعلم وزارة التربية والتعليم
من مسابقة لتأليف كتب اللغة
الفرنسية التالية ، وفقا للمناهج
الجديدة ، على أن يكون استعمالها
في المدارس الإعدادية والثانوية
ابتداء من العام الدراسي ١٩٥٧/٥٦
اولا : كتابين للمدارس الإعدادية
للبنين والبنات ، يراعى في اعدادهما
التسلسل وبيانهما كالاتي :

١ - كتاب للسنة الاولى
الإعدادية يحتوى على : مبادئ ،
المطالعة للمبتدئين ، مفردات تعبير ،
مطالعة ، قواعد ، محفوظات ،
تمرينات تحريرية .

٢ - كتاب للسنة الثانية الإعدادية
يحتوى على :

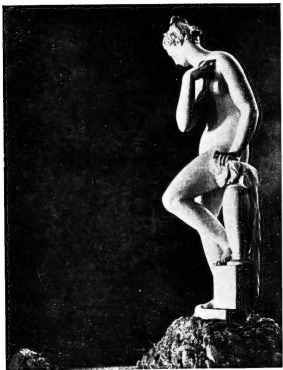
مطالعة ، مفردات ، محادثة ، قواعد ،
محفوظات ، تمرينات تحريرية .
ثانيا - كتاب للسنة الاولى
بالمدارس الثانوية للبنين والبنات
« لغة أوروبية ثانية » يحتوى على :
مطالعة ، مفردات ، محادثة ،
قواعد ، محفوظات ، تمرينات
تحريرية .

ثالثا - كتابين لشعبة الآداب
بالمدارس الثانوية للبنين والبنات
« لغة أوروبية ثانية » يراعى في
اعدادهما التسلسل :

١ - كتاب للسنة الثانية الثانوية

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع
٧	رايت وسمعت لك .. في اوربا : افتتاحية العدد
١٢	عيون حالة : قصة مصرية للمحرر
١٩	اميرة مصر (غرام في بلاط قهبيز) : قصة طويلة للروائي المؤرخ « جورج موريتز ايبيرز »
٦٣	العقد الاجتماعي : انجيل الحرية الخالد ، للمفكر الفرنسي جان جاك روسو
٩١	بيت الليل : قصة تمثيلية كبرى للروائي الفرنسي المعاصر « تييري مونييه »
١٢٥	غزو مصر وهزيمة عرابي ومخاتمته : صفحات حالكة من جنيات أسرة محمد علي علي مصر
١٥٣	عش بحكمة تعش سليما : للاخصائي « برنارد ديتمار »
١٧٣	رسالة الى ابنتي : من رسائل الادبية الخالدة « مدام دي سيفينييه »
١٨٥	مشكلات الطفولة المبكرة : الحلقة الاولى من سلسلة محاضرات « مدرسة الابهاء » للدكتورة فرانسواز دولتو
١٩٦	تحية .. الى الاقطار العربية الشقيقة : للاستاذ كليم ابو سيف



احد تماثيل « فينوس » ربة الجمال ، كما اقيم في حدائق (بوبول) بفلورنسا



(تمثال للفنان كانوفا مقام على بحيرة (كومو) بإيطاليا)

كتابي

«كريمة»!

«آه .. كيف يمزقني أهد على أن ينهمم الحب بشرة
أوفطية ١؟ .. ان قلبي ، الذي كان قبل أن تملأه
كريمة ، لا يعبر غير ذاته ، وغير الشيطان .. قد
غدا من عرفتني متبسط ، يفر في صدرى كلما فقيتها ،
ساجدا لله في خشوع ، شاكرا للسماء أنها ولقته حاضرا
السيد .. متعبا لولا أن تدميه عليه !
«كنا دائما نلتقي في مشرب للشاي قريب من
لحنا ، ثم نخرج إلى إحدى الضواحي الوردية ، فسير
من مصقوب تتطمس ، أدتني للطبيعة وهي تهتم
بأجاديث الجمال والسحر والحب .. حتى نتعب فتجاس
على أهد القاعد الغضبية المنشرة ، كل تقني في كريمة
بصيرة خافت سماري أغنية رقيقة .. بينما أهد أنا
في عينيها المائلتين ، اللتين كانتا تحكيان في كل جلسة
هنا ههنا ، وأنت أعزب من نسيم الفجر ، مسكرا
كعطر الربيع ، ناعما كأوراق الورد .. وكبشرة
فردا الحمري !»

(من قصة «عيون حائلة» ، إحدى قصص فزائلك)